أمين الريحاني

قلب لبنان

رحلات صغيرة في جبالنا

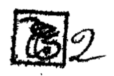
مطابع صادر ريحاني ، بيروت

أمين الريحاني

قلب لبنان

رحلات صغيرة في اجبالنا

مطابع صادر ريحاني ، بيروت



عُنيت بنشره وطبعه مطابع صادر ريحاني

بيروت، لبنان



امين الريحاني

بريشة الفنان العالمي أوبرهارت

الى الصديق العزيز
الاستاذ قدري قلعجي
تقدمة تقدير وحب واخلاص
من
البرت الريحاني

١٠ ت٢ ١٩٧٧

الى صديقي شارل قرم
امين

الطبعة الاولى

محتويات الكتاب

•

منذ خمس وعشرين سنة قام امين الريحاني برحلته الاولى في البلاد العربية وقد ازمع ان يؤلف على اثرها سلسلة من الكتب تبدأ وتنتهي كما بدأت الرحلة وانتهت — اي بالحجاز ولبنان. وقد يتسع نطاقها كالمشاريع الاقتصادية في هذا الزمان، الى البلدان المجاورة — كسوريا وفلسطين ومصر وايران فالهند. وما ان باشر الريحاني بسياحاته الصغيرة في لبنان لوضع هذا الكتاب حتى عاجله الاجل قبل انجازه فجاء « قلب لبنان » كما تراه. غير ان الرغبة باطلاعك، ايها القارىء العزيز، على طريقة الريحاني الكتابية دفعتني الى نشر واثبات بعض الرحلات التي لم ينهها كما هي. وكان قد وضع لها تصاميم وملاحظات كادت تكون بمثابة الهيكل العظمي للجسم. وحسب « قلب لبنان » هذا ان يكون خلاصة ما انطبع في نفس الريحاني من هذه السياحات الصغيرة في جبالنا المحبوبة، انطباعات تتسم بجهرة واسعة من الاسفار والاطلاع والعلم والفن والنقد الاصلاحي والاخلاص، تلك الصفات التي عرف بها « الامين ».

البرت الريحاني

قد يكون المؤلف اراد بجمع المعلومات التالية
وغيرها مما لم يتمكن من جمعها، وضع مقدمة لـ « قلب
لبنان » هذا، فحتّمَ القدر وحال دون ذلك. وقد اخترنا
هذه الصفحة لعرض هذه المعلومات كي يستوحي القارىء
تلك المقدمة المفروضة

مساحة لبنان

الطول ١٨٠ كيلو متراً. عرضاً وجنوباً ٢٩ كيلو متراً

يزداد الجبل سَعَةً. وعلواً من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي — بين صيدا ومشغره لا يزيد عرضه على ٢٩ كيلو متراً ومن طرابلس والهرمل ٤٦ كيلو متراً

يقول بعض العلماء ان علو لبنان كان في الزمن السابق لعهد التاريخ اعلى منه اليوم بنحو (٣٠٠) متر — فعوامل الطبيعة تجرف كل حقبة من الزمن بضعة امتار من رأس الجبال. وان صح هذا القول صح قول الاقدمين ان لبنان كان متوجاً بالثلج الخالد فدُعيَ لذلك بلبنان اي الجبل الابيض

لغات اهل لبنان

اللغة البابلية (مراسلات تل العمارنة) كُتبت بهذه اللغة الممزوجة بالمصرية (اي المسمارية والهيروغليفية) فتناوبت في لبنان بعدها اللغات الآرامية، البابلية ، الكنعانية، العربية — الايطوريون عرب اللجاء ادخلوا اللسان العربي الى لبنان .

اسماء لبنان

الاشوريون — لَبنانو

العبرانيون — لَبنون

الاراميون — لِبنون

ومنه استشق اليونان والرومان اسمه لبنانوس. فما اختلف الاسم على ممر الدهور اختلافاً يذكر — معناه الجبل الابيض، لبياض ثلوجه التي تكسو قممه. وللبنان معنى آخر في اللغات السابقة كما في العربية وهو اللبّان. اي البخور والكندر. ودُعي بذلك لما يفوح من جوانبه من الروائح العطرة التي تنشرها اشجاره ونباتاته ذات العرف الذكي.

السنديان — والادية — والزيتون — والارز . قال الامير مصطفى الشهابي: الارز من الفصيلة الصنوبرية، وليس من الصنوبر وهو غير الشربين رداً على من قال ان الارز من الصنوبر ويُقال له ايضاً الشربين. فرد عليه (في المقتطف) الاستاذ محمود مصطفى الدمياطي واورد ما جاء في المعجمات العربية مما يثبت ان الارز من الصنوبر وانه ذكر الصنوبر. وفي تاج العروس الارز بالفتح ويضم شجر الصنوبر — ويقول المستشرق الهولندي «دوزي» تحت مادة شربين انه معرب من اللغة الآرامية يقابلها باللغة الفرنسية **le cedré ordinaire**

الشربين في لبنان، يدعى السرو في مصر والجزائر — والعرعر في الشام هو الشربين في الجزائر.

انوار الكهرباء تختلط بالنجوم فتخطىء ان قلت هذا نجم سماوي او ذاك نور بيت لبناني

الرحلة الاولى

الى الارز

•

محتويات الرحلة

ص

8

نظرة الى الماضي

في العود الى الماضي ترويحٌ للنفس وتهريج . نذكر بعض ما مضى من الحياة ، فننتعش ونتكمش ، ونبتسم ونكتئب ، ثم نحمد الله اننا نستطيع ان نحيي بالذكرى ما كان ، ونحمد الله ان ما كان لا يعود .

وأية الذكريات تصفو كلها ، او تصفو على الدوام ؟ واية الذكريات تعيد الينا ما تضمخت به من طيب الحياة ، ولا يكون فيه اثر لألم ، او ظل لغواية ؟ واية الذكريات تبعث فينا شيئاً من الحبور ، وتجدد بعض قديم السرور ، دون ان يهتز فينا الحنين ، وما يصحبه من غصص واغتام .

وهل في كل حقائق الحياة اوضح واظهر من الحقيقة التي امست ذات امس ، ذات ذكر ، ذات خيال ؟ وهل الماضي في قشره ولبه غير ظل على الاجمال من الظلال ؟ انه مع ذلك حري بالتبصر والتفكير ، وان العود اليه ، على تعدد الوجوه فيه ، وتباين الالوان ، وعلى تباعد الصور بين ما هو كائن وما قد كان ، لا يخلو ، اذا ضربنا صفحاً عن لواعج الخيال ، ودواعي الحنين ، من شيء تتروح به القلوب ؛ وان لم يكن ذلك الشيء غير كلمة لكاتب او قصيدة لشاعر ، او صورة او مثال لفنان .

لا اريد في هذا المقام ان اشفع بالعبرة الذكرى ، بل اريد ان احيي بالذكرى بعض ما مضى ، واعطيك صورته مجردة من الشروح والتفسير ،

الا ما كان واجباً لازالة غامض او لاتمام ايضاح .

بعد التوكل اذن على الله ، وعلى الذاكرة ، اطوي من الماضي نحو ثلاثين سنة ، واقف عند السنة السابعة والتسعمائة والالف على كتف وادي الفريكة لاعرف الى القارىء شاباً لبنانياً كان قد هاجر الى اميركة وعاد منها ، يحمل الكتب الادبية ، لا السندات المالية ، واتخذ الوادي منسكاً له ، فبنى معبداً فيه ، او حسب معبداً كل مشهد من مشاهده ، بل كل مكان يقف فيه القلب مبتهجاً ، والفكر مستوحياً ، والروح خاشعة مطمئنة .

وكان ذلك الشاب مشغوفاً بالكتب والكتابة ، فانصرف بكل قواه وكل جنونه اليهما . جفا الانس ، الا الفلاحين منهم ، وما واصل الجن ، الا من كان منهم نسيباً لشاعر او صنواً لمجّان ضحّاك . فظل على شيء من الانسية المؤنسة ، وما ادعى النبوة مرة ولا القداسة .

ولكنه رأى ان يعبد الله في المعبد الاكبر ، في الفلاة ، في الحقول ، في الوادي ، في ظلال الصنوبر والزيتون ، فقال الناس انه كافر ينكر وجود الله . وقد سمعه بعضهم يقول : الطبيعة امي ، ويرددها ، فقالوا انه يجدف على الله تعالى .

ورأوه يقف مأخوذاً عند وكر تزقزق فيه صغار الطيور ، او عند زهرة تنور بين الصخور ، او عند قندولة يفوح طيبها من بين الادغال ، او على رابية خضراء فوق جبل اجرد اصم — رأوه يهيم في الحقول ، وفي الغابات ، فقالوا انه يتأثر الجن ، ويجتمع بهم في غار الوادي ، وانه لذو جنة . فكانوا لذلك يجتمعون عليه ، فيضحكهم ويضحكونه ، فيحار فيهم السنونو ، ويهز برأسه قائلاً : مَن العاقل فيهم يا ترى . ومَن المجنون ؟

ذلك الشاب ، بعد ان قضى نصف حياته في المدينة العظمى مدينة نويورك ، عاد الى مسقط رأسه في لبنان ينشد حقائق الوجود الكبرى ، فوجدها في العزلة ، او وجد في العزلة سبيلاً موصلة اليها . ووجدها في الطبيعة ، او وجد في الطبيعة الدليل الواضح الاصدق عليها . ووجدها في البساطة ،

و وجد في البساطة الطف ناحية من نواحيها . ووجدها في الجمال ، او وجد في الجمال الرمز الانور من رموزها . ووجدها في الوداعة ، بل وجد في الوداعة صورتها الساحرة ، وهي جالسة بين اختها الشمس واخيها القمر .

وفي تلك السنة التي وقفنا عندها ، في السنة السابعة والتسعماية والالف أحس ذلك الشاب ، وهو جالس على صخرة في الوادي ، في كل صنوبرة ساحقة ، ان يداً تمسح جبينه ، وتدلك ما بين عينيه ، فادرك انه في جبل القداسة ، وان كان لا يزال ابناؤه يبنون الكنائس ، وانه كيفما اتجه يرى للخالق اثراً في جمال الاودية ، وجلال الرواسي ، وادرك كذلك ان العبادة لا تلبس الثوب القاتم ، وان القداسة لا تعرو الوجه القمطرير ، وان الاشراق والبشاشة والضحاك كلها من نعمائه تعالى .

لقد تجلت هذه الحقائق لذلك الشاب ، وهو جالس ذات يوم على صخرة فوق هاوية سحيقة ، تنتهي الى ضفة نهر مزدانة بالحور والدفلى ، تظلل مياهاً تجري جرياً هادئاً لتسقي في الساحل البساتين . تبارك العقم تحت رجليك ، والجمال بين يديك ، والنمو والاثمار امام ناظريك . اي ورب الارز . ان الشمس ترقص على الصخور ، وتحت الحور والدفلى تستريح ، وفي البساتين تتعاون والتربة على البر والتقوى .

الجبل المقدس — جبل لبنان .

ثم تجلى لذلك الشاب حقيقة اخرى جليلة ، وهي ان اقدس ما في الجبل المقدس هو الارز . فكيف يبني العابد معبده في الوادي ويظل ابن الطبيعة مقيماً فيه ثلاث سنوات ولا يزور اقدس مكان في لبنان ، لا يحج الارز ؟ هذا هو الكفر بعينه . وقد آلى ذلك الشاب على نفسه الا يكون من الكافرين .

التأهب للسفر

اعتزمت الرحيل الى الشمال لازور الارز، وشرعت اوطىء للامر واتخذ له الاهبة. فما كانت الاسفار في تلك الايام كما هي اليوم فهي اسهل من نظم القصائد، واسلم من الجلوس في دور السينما. بل كانت، والحق يقال، من الامور المهمة الخطرة. تصدق فيها السجعتان وتترادفان: الاسفار، الاخطار.

اما العقبات، حرفاً ومعنى، والمشقات التي تذهب بالقوة والعزم ولا تبقي على غير الروح فيك، فحدث عنها ولا حرج. وقد كانت تكثر حتى بين واد وواد، فكيف بها بين اودية متعددة، سحيقة شاسعة، مختبئة بعضها وراء بعض، اولها يتصل بنهر الكلب، وآخرها بنهر قاديشا.

وما كان من اسباب الاسفار للركوب في تلك الايام غير العربات في اماكن محدودة، جلها في السواحل، والدواب في مسالك الجبال واوعارها.

اما العربات فقد كانت آية في الاتقان الشرقي، فلا يسلم فيها من الراكب غير الصبر والايمان. وما كانت طرق «الكروسة» والطرق «السلطانية» اقل من العربات حسناً واتقاناً.

بقيت الدواب لمن كان يأمل ان يسلم فيه غير الصبر والايمان. والدواب اربعة حمار وبغل وكديش وفرس. اما الجمل فليس منه في لبنان للاسفار، لان ذا السنام لا يفلح ولا يصلح في الجبال. وليس في الجبل افراس للاجرة. والكديش مثل الجمل في الوعار الجبلية. فما هو اين بجدتها. والكديش للسهول وللحراثة وللعربات في المدينة. وعندما ينتهي الكديش من مهنته. اي عندما يعجز عن القيام بها يعرض للبيع فيشتريه مغربي طواف يطوف البلاد حاملاً لذوي الاوجاع الدواء — دوآ — آ — عندي الدوآ — آ!! الكديش

والمغربي ذو الحشائش والعقاقير قلما يفترقان حقيقة، وقلما يفترقان في صورة الحقيقة المؤنسة .

اما الحمار فان في الجبل انواعاً منه، الا النوع الجميل الجليل اي القبرصي ما اكتحلت عيني برؤية قبرصي في لبنان. وجدت ما يشبهه في الحجاز، وفي البحرين، وخبرته في بعض رحلاتي هناك، فكنت معجباً به، وبجريه، وحسن سلوكه كل الاعجاب . حتى ان صوته ليختلف عن اصوات سائر الحمير . وقد وصفه اللغوي المتنطس في قوله حمار جلاجل اي صافي النهيق . وليس في لبنان من الحمر المصرية المتحدرة من القبرصية . ليس في لبنان، على قربه من قبرص فردوس الحمير، غير كل ذي علة وعاهة . مما يشير الى ان في سلالة هذا الحيوان الطائع الوادع حلقة مفقودة، وان هذه الحلقة وجدت عندنا .

ما بقي اذن غير البغال اختار منها بغلاً او بغلة. وبين الذكر والانثى من هذا الحيوان المشهور بالعصيان بون شاسع. بين الاثنين نسب يكاد ينحصر في النوع وفي الدم . اما في التفاصيل والصفات فالفوارق خفية وظاهرة، والخفية لا يعرفها غير المكارين، اما الظاهرة فالاهم فيها الرقبة والعين والاذن والحافر . فالرقبة في البغل قاسية، لا تلين لطرف الرسن الذي يستعمله الراكب كالكرباج حتى ولا لحجر من يد المكاري . والعين تشتعل فتشتد احمراراً لاقل عامل خارجي مكدر للبغل والاذنان تجمعان في مقدمة الرأس وترهفان انذاراً بالويل والثبور . والحافر يلبي مسرعاً دعوة العين والاذنين، فيرسل البغل الركلة تلو الركلة، في الجو الى الوراء، على الهواء، اذا لم يكن هناك غير الهواء . ثم يحرن فيقف في السير، ويدور دورات على محوره. ثم يأخذه الذعر، فيعدو حتى يجن، فيغار على اول توتة او دكة امامه . اما حمله فان كان من البضائع فهو ينتقل من ظهره الى تحت بطنه وان كان من البشر، ولو فارساً ماهراً، يود لوانه على الارض — هنيئاً لمن

هم على الارض—ولا يلبث ان يصير ممن يستحقون التعزية—والاعتناء الطبي.

اما البغلة فهي تمتاز عن اخيها بكل ما تقدم ذكره. رقبتها لينة، دقيقة الحس، وعينها ناعسة، واذنها ناعمة مسترخية، وحافرهـا قلما يُرفع في الهواء او عليه.

والبغلة تمتاز عن البغل بحسن صلاتها البشرية، وبما اورثتها تلك الصلات من الصفات الطيبة. كيف لا وما عرفت من بني آدم غير اصحاب الفضيلة واهل الهم والنهى، فتشرفت باسمائهم، واشتهرت بسجاياهم العقلية والروحية، فقال الناس: بغلة القاضي. ما شاء الله! وبغلة الرئيس، سبحـان الله، وبغلة المطران وبغلة الشريف تبارك اسم الله! وهناك من البغلات التاريخية بغلة ابن خلدون، التي احبها تيمورلنك قبل ان يراها — والاذن تعشق قبل العين حتى في المحاسن الحيوانية—فاهداها له المؤرخ المشهور يوم رافق الوفد الدمشقي اليه لمفاوضته في الصلح. وهناك دلدل البغلة الشهباء التي اهداها المقوقس صاحب الاسكندرية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم. وهناك من البغلات الكريمات كثيرات لم يحظها الله بشاعر يتغنى بجمالها او بمؤرخ يشرّف صفحاته بذكر مآثرها.

اذن، على ظهر البغلة الى الارز. واين البغلة؟ سمعني قسيس القرية اسأل هذا السؤال فقال: «البغلة عند محبوب. ليس في المكارين اصدق من محبوب، واعلم منه بطرق الجبال. وليس في البغلات اعقل من بغلته. بغلة طائعة مباركة، بغلة لطيفة ظريفة.»

وضم القسيس اصابعه الاربعة الى باهمه ليشير الاشارة التي تثبت ما قال.

سمعت من القسيس، فطلبت محبوباً، وعقدنا المعاهدة. على مجيدي واحد من مجيديات الدولة العلية كل يوم اجرته واجرة بغلته، وضمانة بثمن البغلة اذا ادركنا قطاعُ الطريق. واحبوها وآثروها على مالنا وعلينا، ثم «شوفة خاطر» (اكرامية) عندما نعود من الارز سالمين. عقدنا المعاهدة وشهد

عليها مختار القرية وقسيسها .

وفي ذلك اليوم شمر كل من في البيت عن ساعده وساعدهـا — الام والشقيقة والخادم والخادمة يعاونهم الجيران — وشرعوا جميعاً يعملون في تحضير الزاد ... « امين ، يقبرني ، مسافر الى الارز » ... دُقت الكبة ، وشويت وقليت كباباً واقراصاً ، وذبحت الدجاجة الهندية وذبح الديك الرومي ، وسلقت البطاطا والبيض ، وطبخ بالزيت السبانخ وورق العريش وخُبز المرقوق على الصاج خاصة ... « امين يقبرني مسافر الى الارز » ... لتزويدنا بالخبز الطري . وقد نذرت ام امين النذور من شمع وزيت وبخور ، لكنيستي الفريكة وقرنة الحمراء من اجل المسافر العزيز ، ليحفظه الله في الطريق ويعيده الى بيته واهله سالماً .

هي أهبة السفر او بعضها . وجاء محبوب في فجر اليوم التالي يقود بغلته المحبوبة ، وقد اثقل عنقها بالقلائد والاطواق ، وفيها الشراريب والاجراس وفيها الودع والخرز ، وفي احداها بين الشرابتين خرزة (حجاب) العين . اطواق من الصوف ، حمراء زرقاء خضراء ، مجدولة مفتولة ، وبينهـا طوق مرصع بالودع ومزدان بصف من الجلاجل الصفراء المدورة — بعشرين منها . فكانت البغلة نوبة ماشية ، وكانت اذا هزت رقبتها ، او ضربت برأسها ذبابة هناك تخرج من تلك الاجراس اصوات وقرقعـات تجفل المواشي ، وتفزع الطيور .

قلت لمحبوب لا بأس بهذه القلادة التي فيها التعاويذ ، وبهذه الحمراء الخضراء ذات الشراريب ، وبهذه المرصعة بالخرز والودع . اما الجلاجل — الجلاجل ، يا محبوب ، هي لعب الصغار ، وبغلتك كبيرة جليلة موقره ، لا يليق بها ما يليق بجحاش البغال .

فهز محبوب رأسه افقياً ، وهو ينتزع القلادة الموسيقية من رقبة محبوبته ويقول مخاطباً الهواء : هي تستأنس بالاجراس .

وكأني بمحبوبة تكذبه في الحال . فقد رمقتني بنظرة من عينها الناعسة، وهزت رأسها عمودياً لتخبرني شاكرة انهـا مرتاحة الى هذا التشذيب في زينتها .

بعد ذلك جاء الخادم بالسجادة وبمخدتين ، ففرش محبوب السجادة على ظهر البغلة ، ووضع تحتها الى الامام والى الوراء المخدتين . واوثقها بالحبال، فغدا الجلال سرجاً محكما ناعماً .

وجاءت الخادمة وزوجة المختار بالخرج الثقيل ، وفي احد عِدليه الزاد وفي الآخر حاجات السفر الاخرى ، فُشدّ الى مؤخر السرج .

وهذا ، يا محبوب ، المسدس . احمله انت . تمنطق به .

ذلك المسدس بمنطقته من الجلد هو مسدس عسكري طويل خطير، اشتريته في نويورك ، قبيل عودتي منها ، لما كان يشاع في الجالية هناك عن « الطيارين» قطاع الطرق في جبل لبنان . ولكني لم احمله مرة، ولا اضطررت مرة الى استعماله ؟ .

هذا بعض الحقيقة في امره . والبعض الآخر هو اني مـا تعودت حمل السلاح ، ولا تعلمت استعماله .

ولكني كنت استأنس بوجود ذلك المسدس في درج مكتبي . وثابرت في اذاعة خبره ، فاصبح مشهوراً ، وصار الناس يقولون : « مسدس الريحاني » كما يقولون : « اسطول بريطانية العظمى » ويسكتون .

نهر الكلب

ودعنا الاقارب والجيران في غمرة من القبلات والدموع . وكانت قبلة الام لابنها احر القبل ، يتبعها اشارة الصليب التي رسمتها على وجهه وصدره .

ومشى محبوب يقود البغلة ، ومشيت وراءها حتى طرف القرية . ذلك لان القسيس كان قد علمني شيئاً من الاصول المرعية في ركوب البغال . وردد النصائح قبل يوم السفر كما يردد الوصايا العشر . – لا تهز برجليك ، لا تلوح بيديك ، لا تحدّب ظهرك ، لا تشد بالرسن في طلعة ، ولا ترخه في نزلة ، لا تركب داخل القرية ، اكرم المكاري . . .

خرجنا من القرية ماشين ، ومررنا بالكنيسة العتيقة عند طرف القرية المجاورة ، فوقف محبوب امام الباب ، ومسح العتبة بيده وقبلها ، ثم رسم اشارة الصليب على وجهه وقال : « تفضل يا معلمي اركب . »

ركبت بعون الله ، وكذلك بعون المكاري الذي احتفظ بالرسن . « ساقودها في هذه النزلة . » وطمأنني ، فما اطمأننت . فأخرج حلقة الجلال من تحت السجادة وقال : « تمسك بها ولا تخف . »

أذلني بـ« لا تخف » ولكني ، وهي المرة الاولى اعلو بغلًا بعد عودتي من اميريكه ، ابتلعتها ، واجتهدت في هضمها ، فكانت والحق يقال نافعة ، حملتني على مغالبة الخوف فغالبته ، وكنت من حين الى حين اترك الحلقة ، واشعر اني منتصر عليه .

ولكننا في نزلة تشتد وعورةً وانحدارا . هي نزلة النهر التي اعرفها ماشيا واعرف ان اشجع المكارين ، وامهر الفرسان ، لا ينزلها راكباً . فترجلت ومشيت وراء محبوب ومحبوبة .

النزلة الى الوادي – عقبة نهر الكلب – ان في جبال لبنان اطول منها مدى ، واشد انحداراً . ولكنها . في اندلاق وعورها ، وتدكدك صخورها واعوجاج سطورها ، هي فريدة وحيدة عجيبة .

وهي مع ذلك تدعى طريق النهر . لا يا سيدي ، لو كانت طريق النهر لذهبت مياهه بشيء من تلك الوعورة ، وذلك التدكدك والاعوجاج .

وهل هي الطريق الى النهر ؟ لا يا سيدي العزيز ، هي درجات ودكات وجوَر ، وصخور مكسرة مبعثرة في ذلك الانحدار الجبلي الى النهر . بيد ان ابن الجبل وبغله حفرا على مدى الايام جوانبها ، وغيَّرا لونها . فصار احمر ادكن ، فاذا نظر اليها من بعيد ، من الجبل المقابل ، بدت كطريق بين اخضرار الادغال ، واغبرار الصخور .

قلت ابن الجبل وبغله ، فبالغت ، او ما حققت وما دققت . فان لها اعواناً لا تُرى ايديهم ، ولا تقدر بالمقاييس البشرية اعمالهم . فهذه درجة عالية غليظة يتبعها درجة واطئة وادعة ملساء اصطنعتها الارجل من اجيال جبلية ، للانسان والحيوان ، قديمة وحديثة . وهذه دكة هدمتها الامطار والرياح ، وجعلتها الايام والليالي درجات وفرجات ، تندمج الواحدة بالاخرى وهذه صخرة نقلها الزلزال من تحت قوادم النسور الى تحت حوافر البغال ، فحرنت عندها ، ودارت حولها ، فشقت طريقاً هيناً للانسان ، وجعلته موروثة لها . وهل وقع الحافر على الحافر اغرب من وقوف الدواب عند الرائحة الحامضة ووقع الروث على الروث ؟ وهذه صخور مركوم بعضها فوق بعض بشيء من النظام ، فجاءت تشبه درجات هرم الجيزه .

وهذه رجمة بيضاء تصل العقبة بطريق رحب عليه مسحة من التعبيد ، فالانسان والحيوان يتنفسان فيه الصعداء . ويقفان ليستمعا صوت النهر الصاعد من الهاوية بين سُمك الجبلين . لقد دنونا من المغارة وان كانت لا تزال محجوبة بحجاب من الصنوبر . وهذا صوت النهر يصل الينا كخوار

المواشي البعيد القرار فتهب ريح الصباح فتحمله وتجسمه ، فيبدو لنا كزئير السباع .

محبوب : « هذه المغارة • قف مكاني ومد نظرك بين الصنوبرتين هناك ، تر المياه قدام بابها . »

ووقفت محبوبته الى جنبي ، وحافرها على حافة الطريق ، وهي تتطال فوق الهاوية ، ثم تميل بوجهها الى المكان الذي اشار محبوب اليه . بغلة طائعة، بغلة فهيمة !

مشينا واياها فرحين في طريق لطيف الانحدار ، ذي درجات واسعة ليس فيها من التهدم ما يزعج الانس او الجان او خادمها الحيوان . وقد بان النهر ، واعجب لسيف يلمع في نصابه ، وتبينت هناك الحوض الذي يستحم فيه صبيان القرية عندما يؤمون الوادي . هو الحوض بصخوره القائمة حوله في مجرى النهر .

وان بين تلك الصخور صخرة صنعتها العناصر والزمان كرسياً بمجلس مجوف وسندات للظهر ولليدين. صخرة ملساء مكونة الطف تكوين تجري فوقها المياه ، فتجلس فيها تحت شلال فضي ينصبُّ فوق كتفيك وعلى صدرك وبين يديك . هو نعيم النهر ، نعيم الوادي ، نعيم الطبيعة ، أم الوادي والنهر وأمك وأمي .

هوذا العرش عرش الاله نبتون . اظنني اول من جلس عليه واسماه عرشاً فاصبح معروفاً بهذا الاسم الحديث . دللت للمكاري محبوباً عليه فقال : « صرت افهم ابني حنا عندما يقول لي انه نازل واصحابه الى النهر ليجلسوا على العرش ويصيروا سلاطين . والله ، يا معلمي ، زدتَ عدد السلاطين والملوك في الفريكة . »[1]

---

(1) من أهل الفريكه رجل كان يكنى بالسلطان وآخر بالملك وسنحدثك عنهما فيما بعد .

— وانت يا محبوب سلطان .

— « كثر خير ربنا . والله يا معلمي من لا له ولا عليه في هذه الدنيا هو سلطان . وانا، وحياة حنا وأم حنا ، لا علي ولا لي . لا اتديّن ولا اديّن . عندي هذه البغلة ، بمال السلطان ما ابيعها . وعندي موسم شرانق مائة اقة . وعندي من كرمي ثلاث خوابي نبيذ ، ومن زيتوني زيت السنة . وادفع الضريبة للحكومة والعشور المطوان بالضبط غب الطلب . »

— السلطان لا يدفع لا ضريبة ولا عشور . انت احسن من السلطان .

قبّل محبوب انامله ورفعها الى جبينه قائلاً : « كثر خير ربنا . » ثم وقف فوقفت البغلة ووقفتُ معها : « عندي سؤال يا معلمي . ارجوك ان تجاوبني عليه . انت تقرأ في الكتب وتعلم كل شيء . من هو الذي سمى هذا النهر نهر الكلب ، ولماذا سماه بهذا الاسم ؟ »

قلت : اجاوب ماشيا . اما اني اقرأ في الكتب فهذا صحيح . واما اني اعلم كل شيء فهذا بعيد بعيد جداً عن الصحة . ومما لا اعلمه ، يا محبوب الاصل والسبب في اسم هذا النهر . فليس في الكتب الخبر اليقين . انما تقول ان اليونان كانوا يسمونه نهر الذئب . فكيف صار الذئب كلباً انا لا ادري ...

— « ولا المنجم يدري ؟ »

— قد يدري المنجم ، ولا يدري العلماء .

ولا بأس ان اكمل كتابةً ما قلته لمحبوب . فقد يكون هنالك غيره من المحابيب الراغبين بالعلم ، وان كان لا يفيد .

ان لسؤال محبوب جواباً في اساطير الاقدمين . فقد كان يحرس ممرّ النهر كلب كبير خطير ، فصيح اللسان ، محب للالغاز ، فيطرحها على المسارين ليحلوها . فمن حل لغزاً منها اعطاه الامان واذن له بالمرور ، ومن عجز ابتلعه ابتلاعاً ، دون ان يكسر عظماً من عظامه .

وقالت الاساطير ان الوثنيين نصبوا عند مصب النهر صنماً في صورة كلب كانوا يعبدونه لانه كان يرى العدو من بعيد فينبح لينبه عبّاده ويحذرهم منه .

وقالت كذلك ان بعض الصخور القريبة من النهر تشبه ذلك الصنم . .

— « تشبه الكلاب ؟ »

— نعم ، ومن الصخور ما يشبه الخنازير والثيران . وقيل لي ان في جوار فيترون كثيراً منها . ستراها اليوم . ولو كان اول من اسمى هذا النهر بالكلب كاتباً ، يا محبوب ، مثلي ، وكان مثلي ذا ضمير يحمله على تقدير فضول الناس ، لكان سجل في بطون الكتب اسمه والسبب في تسميته الكلبية للنهر ، كما ساسجل انا اخبار هذه الرحلة ، واخبارك انت ومحبوبة ، ولا انسى الصخرة في مجرى النهر التي اسميتها العرش ، فلا يحار ويتحزر احد بخصوصها وخصوصاً في المستقبل ، ولا احد يسأل السؤالات التي يجيب عليها العلماء حتى بما لا يفكه من الخرافات .

كنا قد وصلنا الى الطواحين التي تتدفق من فوهاتها المياه في شكل زهرة ضخمة من الاضاليا البيضاء او كدولاب كبير من دواليب الالعاب النارية .

وقفنا عند الدكاكين ليشتري محبوب علبة سواكير ويسأل عن صحة صاحب الدكان وزوجته . ثم مشينا الى الجسر ذي القنطرة الواحدة العالية ، فاجتزناه الى ضفة النهر الشمالية ، فاصبحنا في كسروان ، في سفح الجبل المجلبب ، المزدان بغابات من الصنوبر سندسية الاخضرار ، وفيها الطريق تدعونا للتصعيد .

— « تفضل ، يا معلمي ، اركب . »

وبعد ان اعانني ، واطمأن لجلستي ، قدم لي الرسن قائلًا : « لا تشد ولا ترخي . هكذا . ولا تخف . »

كظمتها ثانية هذه ان «لاتخف» ولكنني عزمت ان اقدم لمحبوب البرهان والدليل ، قبل ان نصل الى آخر المرحلة في ذاك النهار ، اني لا اعرف من الخوف اكثر مما اعرف من الحقيقة في اسم نهر الكلب .

وبدأت في الحال . بدأت اسوق البغلة بطرف الرسن ، المس به رقبتها ، فراحت تنهب العقبة نهباً ، فصاح محبوب بي : « على مهل ، يا معلمي ، على مهل . » فذكرت اذ ذاك قول قسيس القرية ان ليس من الاصول المرعية في ركوب الدواب ان يركض الراكب دابته فور الركوب .

كانت الطريق تلتف حول جذوع الصنوبر ، في فيئها العاطر المنعش ، التفافاً هادئاً لطيفاً منبسطاً ، فيمشي محبوب في المقربات ليدركنا .

ورأيته عندمـــا دنونا من راس الجبل يشير بيده ان قف . فوقفت . فجاءني ينهج ويقول : السيكارة طيبة تحت هذه الصنوبرة . فاشعلت غليوني . وقررنا ان نأكل طعام الظهر قبل ان نصل الى ريفون ، فلا نقف في البلدة ، وان نواصل السير الى ميروبه فنبيت فيها .

استأنفنا السير . وكان محبوب يمشي الى جنب البغلة لا وراءها ، حتى اذا استحثثتها فاسرعت ، بادر اليها فمشى الهوينا ورأسه الى عنقها ، فتحتذيه في مشيته بالرغم عما يكون من امر سائقها والرسن .

مررنا بطرف جعيتا فوق بستان الزيتون ذي الاشجار الهرمة التي يتجاوز عمر بعضها الالف سنة . ووقفنا بعد ساعة من السير في عرض الجبل عند دكان وخيمة بين صنوبرات وارفة الظلال ، فربط محبوب البغلة وانزل الخرج ثم اخرج منديله الاحمر من جيبه يمسح به جبينه .

ليس في المشاهد الجبلية من هذا المكان بعجلتون اجمل من ناحية القاطع التي جئنا منها . فهناك بكفيا تحت جفن الجبل الاعلى ، وبيت شباب على صدر الجبل تحتها ، ومنها غرباً سلسلة من القرى — الشاوية والفريكة وقرنة الحمراء ومزرعة يشوع وديك المحدي وبيت الشعار — متصل بعضها ببعض

وهناك بيت الريحاني ، وقد ذهبت المسافة بالقليل من الارض المنحدرة منه الى شفا الوادي،فيخيل للناظر اليه من هذا المكان انه قائم على جفن الوادي على شفا الهاوية .

جاء محبوب بالابريق يتبعه صاحب الدكان بكرسيين وطاولة صغيرة . وبين كان يخرج الزاد من الخرج اشار بابهامه الى فمه ، فطلبت له كأساً من العرق ، شربه صرفاً ، وأكل قرصاً من الكبة، وهو يقول: اليوم يا معلمي عيدك . « فطلبت له كأساً آخر من العرق . »

وبعد ان انتهينا من الغداء نظرت اليه والغليون الفارغ بيدي ، ففهم وقال لصاحب الدكان : « اركيله للخواجه . معنا وقت . الاركيله طيبة تحت هذه الصنوبرة . »

وكان محبوب قد قسم الطريق الى ثلاث مراحل من اجل راحتي ، كما قال . ولكني علمت بالتقسيم ، بالتدريج،انه كان يحرص على راحته كذلك وراحة بغلته المصونة محبوبة. وعلمت ايضاً بالاستقراء انه من الذين يعتقدون وان لم يقلها ، ان العجلة من الشيطان .

فما عجلنا في الخيمة بعجلتون .,وما عجلنا في السير من عجلتون الى ريفون . ولكننا ، ونحن صاعدون الى فيترون ، في ارض صخرية جرداء لا ظل فيها ، شعرت بالحر ، فاستحثثت البغلة فلبت طائعة ، بارك الله فيها ، وهي تكدف فتردد الصخور صدى صوت حوافرها ، فعدا محبوب وراءنا وقطع القرية فادركنا وقال بشيء من التأنيب والخوف : « الوقعة بين هذه الصخور ملعونة . على مهل يامعلمي على مهل . »

فكلمته بلهجة فيها شيء من نبرة الظفر والتذكير : لا تخف ، يا محبوب، لا تخف.

فضحك وقال : « والله يا معلمي صرت من الفوارس . »

وفي تلك الفينة وقفت محبوبة فجأة وركلت ركلة « عنيفة » ، وهي

تضرب وركيها بذنبها لتطرد ذبابة كانت تزعجها . كل ذلك بسرعة كادت تكون مفجعة . فقد تقلقل « الفارس » وهوى على ظهرها . ولولا لطف الله ومحبوب لطاح بين الصخور . يالذلة الفوارس !

مشينا بعد ذلك المشي الهون كما يقول عرب نجد ، ودخلنا عند الاصيل متحف الصخور في جوار فيترون .

اقول متحف الصخور ولا اغالي . فان هناك بقعة بركانية منقطعة النظير في لبنان . فهي لا تمتاز بتعدد وتركيب صخورها فقط ، بل تمتاز كذلك بالاشكال التي اتخذتها تلك الصخور . فكأن يد المكون الاعظم ، يد فنان جلس ها هنا ينحت التماثيل والاشكال البشرية والحيوانية والهندسية ، جلس ها هنا يعمل على هواه في هذه الصخور فكوّن منها كل ما يستطيع ان يتخيله اخصب الشعراء خيالا ، وكل ما يستطيع ان يبدعه ابعد العلماء تصوراً ، وفيها الجميل والرائع والفظيع والقبيح والغامض والمضحك من الصور والاشكال . فلا مبالغة في القول انه متحف الصخور .

ولا يمكن ان تتملأ العين منه بربع ساعة . فقد خرجت من متحف الطبيعة وفي النفس رغبة بالعودة اليه ، رغبة تحققت بعد بضع سنوات .

وهذا المتحف لا يبعد عن البلد فهو متنزه اهلها وخصوصاً الفتيات منهم والفتيان ، فتراهم عند الغروب بين تحف الصخور كقطيع من القطا ، او كسرب من الغزلان .

وما كان في الحسبان ان سنلقي بفيترون من جميل المفاجئات اثنتين في وقت واحد . ذكرت الاولى وهي في المتحف .

وهذه الثانية عند طرف البلدة ، بعد ان مررنا بدير الرهبان ، حيّانا احد ابنائها تحية حارة ، تحية معرفة وصداقة ومحبة ، ورحب بنا . فترجلت مدهوشاً لارد التحية .

ما كنت اعرف احداً في فيترون . ولكني علمت بعد ذلك ان خير

سفرنا الى الارز وصل الى احد الاصدقاء ببيروت له صديق بفيترون، فكتب اليه يعلمه بقدومنا ويوصيه بنا .

وهذا الصديق الجديد – مضيفنا – الذي اصبح بعدئذ صديقاً عزيزاً ، وظل شأنه كشأن الخمر والزمان ، فصار صديقاً حميماً قديماً ، هو الدكتور حنا دريان .

نبع الحديد

حططنا الرحال في فيترون، وكانت ليلةٌ في بيت دريان تذكر وتعاد. وقد تعددت بعدها العودات وكنا في كل عودة نشعر الشعور الاول، شعور الدهش والابتهاج، وقد قُرِن بعدئذٍ بزيادة المعرفة والتقدير، وبزيادة الحب والاعجاب.

تمتاز الضيافة الكسروانية عن سواها في لبنان بشيء يصعب وصفه وتحديده. فهناك الكرم واللطف والمروءة وشيء معها يجعلها من الصفات التي لا تقيدها، وان أوْجَبَتْها، التقاليد والعادات. فقد تتغير العادات والتقاليد،وهي لا تتغير، كما هو الحال في هذا الزمان. فالضيافة الكسروانية لبنانية، وليست الضيافة اللبنانية دوماً كسروانية.

ولهذه الضيافة الكسروانية آفة من جنسها، تدخل على قلب الضيف شيئاً من الهم يمازج ما فيه من سرور، ويتغلب في بعض الاحايين عليه. لا نكران ان رب البيت يُسَر سروراً فائقاً صافياً بكل ما يبذله في سبيل ضيفه. ولكن الضيف، وخصوصاً اذا كان من ناحية المتن والشوف، حيث تتعدد النزل الحديثة، وتقل الضيافة المأثورة، يخشى ان يكون مقصراً — وسيكون ولا ريب مقصراً — ان انقلبت يوماً الآية وصار مضيفه ضيفاً في بيته.

فهو لا يخشى ان يقال في كرمه او ادبه او مروءته كلمة نقد معيبة، او كلمة تفسير مريبة، ولكنه يخشى ان يقال فيه انه لا يلح على الضيف ساعة الوداع الالحاح اللازم اللائق ليبقى يوماً او اسبوعاً او شهراً آخر في ضيافته، ولا يمزق ثوبه، وهو متمسك به، ليحول دون الارتحال.

وقد مزق الدكتور حنا دريان واهله ثوبي، صباح اليوم التالي، ساعة الرحيل، وما اذنوا باستئناف السفر الا بعد ان اقسمت يميناً مغلظة، بشرفي. بحياة أمي – وحق ربنا، ربي وربهم – ان اعرّج في العودة من الارز عليهم، واقيم عندهم اسبوعاً واحداً على الاقل.

– « الخرج ملان، والله، ملان. معنا من خيركم وخيرالله ما يكفي لسفرة الى حلب. »

هذه الكلمات كان يرددها محبوب عند خروجي من البيت. وسمعت الخدم يقولون: « ما عملنا ما يليق بكم – ما في شيء من قيمتكم – لا تؤاخذونا » وهم يدسون في الخرج رزماً من الزاد، وزجاجات من النبيذ.

ثم جاء الدكتور حنا بمكتوب كتبه الى صديق له في المغيره واعطاه المكاري، وهو يقول له: « ناموا الليلة في المغيره. لا تتجاوزوها اليوم وان وصلتم اليها الظهر. واين الخطر؟ لا خطر هناك. ولكننا نريد راحة الافندي. »

ولكن المكارين الذين تحدث واياهم محبوب الليلة البارحة قالوا له ان الطريق الاعلى – في الصرود – لا يخلو من خطر. ونصحوا له ان يلزم الطريق الاسفل الى لاسا فالغابات والمغيرة.

فيترون هي في مستوى ضهور الشوير (١١٥٠ متراً) ان لم تكن تعلوها قليلًا. ولكن الارض منها صعوداً الى ميروبة وما دونها هي اخشن واوعر من الارض بين ضهور الشوير مثلًا وعينطورة المتن. ولا عجب فقضاء المتن اكثر عمراناً من قضاء كسروان.

فالطريق من فيترون الى ميروبة، وان عدت « سالكه » وان كانت في بعض اجزائها تمر بين الكروم، هي من الصرود وخشونة الصرود بمكان. هي طريق كسروانية تتطاير الشرر والحصى من تحت حوافر الدواب فيها، وتسمع اصوات رناتها من وراء الصخور، ومن حنايا العقبات.



بعد ساعتين من السير مررنا في ضواحي ميروبا العالية وصعدنا من هناك بين الكروم الى الصرود الحقيقية، حيث يضمحل الاخضرار، وتضأل وتتضاءل الظلال، فتغدو في بادية صخرية قاحلة، شديد حرها، عميم نور شمسها، بعيدة القرار سكينتها. وهي مع ذلك لا تحرم حسنات الطبيعة كلها، بل تمتاز بحسنتين، بنعمتين، هما النسيم البارد المُنشِط، وينابيع المياه الباردة المنعشة.

ولعمري ان اللبناني اللاصق بصخور جباله هو مثل الصرود في اخشيشانها، وفي نسيمها وينابيعها. هو ذلك النسيم العطر في لطفه ونعومته، وهو ينبوع الماء القراح في كرمه. وقل فيه بعد ذلك ما تشاء، فتظل كفة الخير في ميزانه راجحة.

وهذه من عيون الصرد عين الجرن، وعين القدح، وعين « فك جرابك» ونبع الحديد!

ما الذي جاء بنا الى نبع الحديد؟ كان يجب على محبوب أن يتخذ الطريق الاسفل، البعيد عن اوكار النسور — واللصوص — الى لاسا. فضلّ بين الصخور، دون ان يعلمني بذلك. وامعن في الطريق الذي كان يخشاه، الطريق العالي الى مغارة افقا.

وكنت قد طلبت منه ان نمر بافقا فجمجم الكلام ثم قال: واي شيء في مغارة افقا. وما هي مغارة افقا؟ قُدْح (ثقب) في جبل. غداً اشتري لك في بيروت صورتها فترى انها لا تستحق الزيارة. صورتها احسن منها، والله يا معلمي. وبعد ان تراها تقول صدق محبوب.»

وها نحن مع ذلك في نبع الحديد، الذي هو على ساعة فقط من المغارة، والطريق منه اليها ينحدر نزولا. فقد بلغنا في هذا المكان اعلى ما اجتزناه من الجبال. نبع الحديد ١٥٩٠ متراً هو بِرْكة في شكل تنور، بل بَرْكة بين الصخور، تنبع ماء زلالاً فيطفو على وجهه الحبب، كأنه في غليان. واذا مددت اليه يدك فانك لا تجلد عليها اكثر من ربع دقيقة من شدة البرودة.

جربنا فعددت خمسة عشر وسحبت يدي متألماً . وعدّ محبوب عشرين. اما المعاز الذي كان هناك عند وصولنا، فقد عد ثلاثين، وسحب يده من الماء هادىء البال فخورا .

المعاز على نبع الحديد شيء مألوف. ولا ازال اذكر ذلك المعاز الشاب بما رسخ في ذهني من جماله الجبلي البارز. في عين سوداء كبيرة براقة النور، وفم قرمزي مستفيض، كأنه الاله تموز .

وكان قد فك جرابه واخرج منه الخبز اليابس، الخبز لا غير، يبل الرغيف منه بالماء، ويلفه ويكدمه كدمتين، ومن حين الى حين يأخذ حجراً ويرمي به احدى العنزات الشاردة ليردها الى القطيع .

تظللنا صخرة بين تلك الصخور فانزل محبوب الخرج وفتحه ففاحت منه روائح الدجاج المقلي والكبة المشوية. وكان المعاز لا يزال يبل الرغفان ويكدم فناديته فقال: « كثر الله خيركم » فالححت، فجاء متردداً خجولاً، ثم جلس على حجر الى جنبي معتذراً. فشاركنا، وقبل ما قدمناه له من الزادين زاد الفريكة وزاد فيترون.

ثم قال: « ارجوكم ان تنتظروا دقيقة واحدة » وراح يثب بين الصخور كاحدى عنزاته، وعاد بعد قليل يحمل سطلاً من الحليب وهو لا يزال على حرارة الضرع فوضعناه في ماء النبع ليبرد فغدا بعد بضع دقائق كالحليب المثلج .

رأيت المكاري اثناء ذلك يكلم المعاز وسمعت هذا يقول: « هذه طريق افقا — وهناك — رمى بحجر من تحت الابط رمية معاز فتقوس عالياً — هناك . طريق لاسا . »

وكان محبوب سائراً في الطريق الذي يخشاه، الى المكان الذي شئته انا، وما شاءه هو خوفاً من قطاع الطريق ، فلما وصلنا الى حيث طاح حجر المعاز، بانت الجادة التي تدور غرباً بشمال ثم تستقيم غرباً، فتقطع ساقية تدعى نهر بوندي، فتمر بقرية شواتا، وكل سكانها، نحو ثلاثماية نفس،

من الشيعة ، ومنها الى لاسا.

عندما رفض محبوب ان يسير بي الى افقا ، وقال ان اشتري رسمها من بيروت وهو احسن منها، ظننت ان الرجل الكسل فيه يريد ان يختصر الطريق وعندما رأيت في تخوفه وضلاله دار دورة طويلة ودنا من افقا وحاد مع ذلك عنها، اصلحت ظني وقلت انه جبان.

ثم حدث الحادث الآخر الذي زاد بعلمي فيه واصلحه. كنا في النزلة مسددين الى لاسا. فمررنا بغابة من شجر الزمزريق الزاهر، فقلت لمحبوب: خذ هذه السكين وهات لي غصناً منه فقال: « قدامنا كثير من « السِيزَرَيق ».

وما كان عليه الا ان يجتاز جداراً لا يزيد علوه على المتر الواحد ويمشي بضعة عشر متراً الى تلك الشجرة. فابى ، فسجلت عليه الجبن والكسل.

افقا « ثقب في جبل. وصورتها احسن منها ». هي ذي الجبانة المتفلسفة. « الزمزريق كثير في الطريق قدامنا ». هو ذا الكسل الكريم الكذاب.

ليس مثل الطريق، في كشف مخبئات الرفيق. ونحن لا نزال في المرحلة الثانية، لطف الله بنا، وستر عيوبنا.

الاودية المقدسة

من حسنات هذا الطريق الى الارز انه طريق جبلي يمر بك على ثلاثة انهر تاريخية، هي نهر الكلب ونهر ابراهيم ونهر قاديشا، وثلاثة مغاور أثرية عجيبة هي مغارة جعيتا، ومغارة أفقا، ومغارة بشراي.

ومن صفات هذه الانهر والمغاور صفة قدسية زرع بزورها الكهان، وانماها ذوو الورع والايمان، وضمخها ببخوره الزمان. وقد غرست الامم الشرقية والغربية على ضفاف تلك الانهر اغراس الاساطير والخرافات، ووسمتها بالميسم الديني الوطني، فكانت يوماً فينيقية، ويوماً يونانية رومانية، ويوماً سريانية او ارامية او عربية.

لقد مررنا بآثار اليونان والرومان في نهر الكلب، ونحن الان مشرفون على فينيقية المتجسدة في هذا النهر الحامل اليوم رسماً سامياً ولكنه غير فينيقي. وللانسان وآثاره في الاسماء شؤون.

اما المغارة فهي في اسمها اقرب الى مصدر قداستها من النهر. ولولا جبانة المكاري محبوب لكنا واصلنا السير في الطريق العالي اليها. فالفرق في المسافة الى محجتنا بالمغيرة لا يربو على العشرة الكيلومترات. وسنعود الى هذا الموضوع، وسنزور مغارة افقا ان شاء الله، وسنطلع القارىء على الحادث المنكود الذي حصل، ذلك الحادث الذي كاد يفرّق شملنا نحن الثلاثة، اي صاحب هذه الرحلة ومحبوب ومحبوبة.

انما اقول الان جبانة محبوب لم تخلُ من فائدة. فلولاها لكنا حرمنا رؤية بلدة في هذا الوادي الفينيقي المقدس، هي غريبة في اسمها، وفي اهلها، وفي اوضاعها الدينية.

هي قرية صغيرة كامنة آمنة في منعطف الوادي الذي ينبع في رأسه نبع الحديد، ويجري عند قدميه نهر آدونيس. وان في هذه القرية ثلاث من متناقضات الحياة، هي في اهل القرية، واسمها، وفي كرسي اسقفها، في اهلها المسلمين الشيعيين . وفي اسمها الهندي الطيبي ، وفي كرسيها الاسقفي المسيحي الكاثوليكي الماروني. فاين آدونيس وعشتاروت واين عبّادهما من هذه الشطائب والشواذات؟

لا اظن ان المطران يوحنا مراد رئيس اساقفة ابرشية بعلبك يستطيع ان يخبرنا ما الاصل والسبب في اسم القرية التي هي مقره الصيفي. لاسا — من اين جاء هذا الاسم الى لبنان ؟

ان في بلاد المغول « بطِنِيتْ » مدينة لاسا المشهورة باديرتها ورهابينها وبوذيتها الكثيرة الطقوس والخرافات. لاسا — عرش الآلهة في لغة اهل الهند الاقدمين — لاسا ، المدينة المقدسة لبوذه والبوذيين — ما الصلة يا ترى بينها وبين هذه اللاسا اللبنانية، التي تحتوي على بضع عائلات مارونية شركاء السدة البطريركية، وما لا يربو عليهم من الشيعة .

كنت انا السائل هذه المرة، وكان سؤالي موجهاً الى محبوب لا الى محبوبة. وكنا نحن الثلاثة ماشين في هبوط الى لاسا، فوقفت البغلة، قبل ان يقف المكاري، عند بيتٍ الى جنب الطريق، فقال محبوب:

— « وقفتُ هنا آخر مرة لاشتري فاصوليا، وهي لا تزال تعرف البيت. فهل بعد هذا ننكر انها بغلة فطنة ذكية ؟ »

— « ولم لم تستمر في الطريق الاعلى الى افقا، وقد قلت لي انك سلكته مرات عديدة. »

— « لانها يا معلمي، فطنة ذكية. فهل ينصب الرجل العاقل مشنقته بيده ؟ لا، ولا البغلة العاقلة. ولا تنس، يا معلمي، اني مسؤول عنك. قلت لك ان صورة افقا احسن منها، وغداً تراها وتقول: صدق محبوب. »

— ما جاوبت على سؤالي الاول.

— « بخصوص لاسا ؟ والله يا معلمي اهلها اوادم. وصدقهم في البيع والشراء معروف. ولكنهم مثل العقبان الكاسرة، عندما تضيق ب٣٣ الاحوال، فيطلعون الى الجرود (الصرود) ويقطعون الطرق. »

— وهل تظن انهم اشجع من غيرهم ؟

— « اظن ان سلاحهم احسن »

— احسن من السلاح الحامله انت، يا محبوب.

— « الله يخليك، لا تكثر علي السؤالات. قلت لك، يامعلمي، اني مسؤول عنك. ومع ذلك اذا كنت تريد ان تذهب الى افقا... على رأسي وعيني. » ضرب البغلة بكفه على رقبتها فدارت كالدولاب، فساقها صعداً وهو يصيح بها: « دِرِيهْ دِرِيهْ! » ويسب دين افقا ودين الارز.

— لا تغضب، يا محبوب، لا تغضب. قريباً نصل الى المُغَيْره، وعندما ترتاح تروق. دعني انا اسوق البغلة.

— « انا رايق، والله رايق. ولكن سؤالاتك، يا معلمي، تعكر حتى نبع الحديد. »

— سؤالي هذه المرة، يا محبوب، هو بخصوص لاسا...

— « كل ما اعرفه عن لاسا هو اننا نحمل اليها فخار بيت شباب ونبيعه لاهلها باسعار زائدة، ونشتري منهم الفاصوليا والحمص والعدس باسعار رخيصة. »

وكنا قد اجتزنا البلدة ذات الاسم المغولي، ودخلنا قرية الغابات التي لا يخطأ اسمها، فقد كان المكان للاشجار وفيه منها غابات قبل ان صار للانسان، فبني مكان الاشجار قرية على ضفة النهر الجنوبية. هو نهر ابرهيم، قطعنا جسره الى الضفة الشمالية فوصلنا بعد ربع ساعة الى الساقية التي يجري فيها مياه العاقورا، وتجتمع بعد الغابات بمياه النهر التاريخي. فقطعنا الجسر

21

الآخر الى المغيرة، القرية المقيم فيها من نحمل كتاباً اليه.

كانت المُغَيرة قديماً تدعى بالاسم الفينيقي يانوح. وكان بيانوح في العهد الفينيقي هيكل لادونيس معاصر لهيكل افقا، فصار في العهد المسيحي ديراً، وصار الدير سدة للبطريركية المارونية، اقام ومات فيها ثمانية عشر بطريركاً ذكرهم الدويهي في المجمع اللبناني. ولا يزال في المُغَيرة من الاثار الفينيقية بقايا قصر ونواميس، ومن آثار الرؤساء المارونيين ارزاق سنأكل الليلة من ريعها.

صعدنا الى بيت داود ملكون، الذي كان يومئذ خولياً للمطران يوسف دريان في ملك له بالمغيرة. وصاحب الملك والشريك امسيا في الجوار الواحد في غير هذه الفانية رحمها الله

اني لا ازال اذكر داود الطاهر المبسم، الخفيف الظل، الذي كان يحسن النكتة كما يحسن قِرى الضيف، واذكر مع بسمته الطاهرة حديثه المقلقل. وقد تقلقل منه محبوب في تلك الليلة، وتغلغل الفلفل الى دمه، عندما كنا جالسين الى الطعام، على سجادة فُرشت فوق حصير على الارض، حول طبق من النحاس الابيض. وكان الحديث في قُطاع الطرق، فقال داود وهو يسكب العرق في قدح محبوب:

— « مساكين، الواحد منهم يخاف من خياله. ولكن اصواتهم عريضة وشواربهم طويلة مفتوله... سموهم « طيارين » لانهم اليوم هنا وغداً على النبع، وعند المغاره — مثل الطيور — بعيد الشبه. ولو علمت الحكومة ان سلاحهم مصدّي وبارودهم مثل التراب المندّى... ولكن الحكومة — ايضاً وايضاً — الحكومة تخاف من « الطيار » « والطيار » يخاف من خياله. »

— وهل الحكومة وحدها تخاف الطيارين — هذا محبوب...

استشاط محبوب غيظاً قبل ان نطقت باسمه، فرمى الكأس من يده

وهو يسب دين الطيارين ودين افقا.

وقد كان علي ان احفظ من وصايا قسيس الفريكة، في الاصول المرعية في ركوب الدواب، الوصية الاخيرة وهي: اكرم مكاريك. فلا اغيظ على الاقل محبوباً وان هو اغاظني.

بيد ان الكلمة التي فرطت مني زادت بعلمي، وفي كل علم شيء من الخير. فقد اكتشفت خلقاً اخر من اخلاق محبوب غير المحبوبة، فحملني ذلك على الكظم والتساهل اثناء الرحلة حباً بالسلامة، بل كنت اجامله، واتحاشى الامر المجرد فاقول: من فضلك، يا محبوب، هات الأبريق، مثلاً، ومن فضلك فك الخرج. ومن فضلك افرش السجادة...

وقد أعجبَتْهُ هذه العبارة فاقتبسها، وراح منذ تلك الليلة يستعملها جزافاً، فقال وهو يخاطب داود ساعة كانت الخادمة تفرش لنا الفُرُشَ للنوم: «انا من فضلك انام على السطح.»

كان الشريك في تلك الايام ميسور الحال مناصفاً كان او مثالثاً او مرابعاً وموفور الكرامة، خصوصاً اذا كان خولياً لمطران، او شريكاً لملاك كبير ذي نفوذ سياسي. وقد كان داود شيخ ذلك الوادي، يعاونه في استثمار الملك معاونون، وتخدم احدى نسائهم في بيته.

وكان منزل ذلك الشريك، مثل منازل الشركاء والفلاحين جميعاً، ذا مسقَّفٍ واحدٍ او بيتين مسقَّفين يفتحان من احدى جهتيهما على سطح لقبوٍ تحتهما، ويظلل السطح خيمة من الشيح. او من عرائش العنب. منزلٌ مشرق تلعب الرياح فيه. مشرق الا في سقفه القاتم المخيف. وهو قائم على عمود واحد من حجر بجسرٍ وروافدٍ من خشب، يكسوها دخان الموقد بالسواد، وتختبىء فيها الحشرات والحيات، فيسقط منها في بعض الاحايين في طعامك وانت تأكل، او في فراشك وانت تنام.

ما كان شيء من هذا، والحمد لله، يوم اضافنا داود، فأكلنا دجاجة

الخمر وشربنا نبيذَهُ المعتق، وغنا آمنين منعمين في فرُشه النظيفة الوثيرة. لا ازال اذكر ما كان في ذلك البيت البسيط الحقير من اثر النظافة والاناقة في كل ما احتواه من فرش وماعون.

انها لضيافة جميلة في وداعتها، كبيرة في روحها. وما انتهت في صباح اليوم التالي عندما هممنا بالرحيل. حتى كان داود يحمّل حماره بينما كانت الخادمة تتبادل ومحبوباً آيات المجاملة والاعتذار. فقد اضافت الى ما تبقى من الزاد، زاداً جديداً، فصار خرجنا كالخرج المسحور للكردي المشهور في كتاب الف ليلة وليلة. فماذا تبتغي من الفواكه والخضر؟ وماذا تبتغي من المآكل؟ وماذا تبتغي من الشراب. الخمر، العرق، الكازوزا؟ حاضر، سيدي.

وركب داود في معيتنا الى نبع اللألوء، مسافة ساعة ونصف ساعة. ووقفنا عند بيت شعر في الحي هناك كان داود، رحمه الله، يعرف صاحبته الحسناء. فسلم عليها سلام الاحباب فردت السلام بمثله وتمازحا بعد ذلك وتضاحكا. فاشار داود بعصاه الى القبة تحت صدرها، وهو يقول: «وابن من هذا؟» فاجابته الزينة ضاحكة: «الله اعلم»

ودعنا داود في اللألوء بعد ان دل محبوباً على الطريق. فمشينا شرقاً بشمال من اعلى مكان (١٨٠٠ متراً) ادركناه في ما تقدم من الرحلة، فمررنا فوق تنورين ثم صعدنا الى الجبل المكسو بالارز المعروف بارز الحدث او ارز «البطرك». ذلك لان هذه الغابات المزروعة بالارز والشربين هي مشاع لاهل الحدث، يشتركون في استغلالها حسب نظام وضعته البطريركية المارونية وتولت المحافظة عليه.

ومن هذه الغابة، التي تدنو في علوها من مستوى الارز الاشهر، نزلنا الى الحدث فانتهينا من الطرق الجبلية الوعرة الى طريق العربات، وهي تمتد من وسط الجبل على كتف وادي قاديشا من الحدث الى حصرون فبزعون فبشراي، في مستوى فوق سطح البحر يتراوح بين الثلاثمائة والاربعمائة

والالف من الامتار

وكان المكاري محبوب لا يزال عَكِر الخاطر متكرّهاً من حديث الليلة البارحة وقد زاد طول مرحلتنا هذه الثالثة في سؤ حاله، فصار يغتاظ من خياله اذا ما انعكس الى جنبه او امامه، فيسب دين كل شيء، لا لشيء سوى التعب والضجر.

وقد سب حتى بغلته محبوبة، وهي مصعِّدة كالفرس الاصيل في جبل الحدث، ورماها بحجر اصاب ما وراء اذنها، فجمحت وشالت بذنبها، وكادت ترمي بفارسها الى الارض،لولم يكن قد اصبح حقاً من الفوارس.

وعندما ادركنا طريق العربات مشى الى البغلة، وحظر علي استعمال الرسن في استحثاثها. فسرنا سير الهون من الحدث الى بشراي، دون ان نقف للاستراحة. وقد كان محبوب يريد ان نقف في حصرون، او بزعون، او بشراي للغداء، فقلت جازماً: لا غداء ولا استراحة الا في الارز، فزاد ذلك في تعكُّر مزاجه وتغيظه.

دِيهْ. دِيهْ!! كنا في الشوط الاخير بين بشراي والارز، نصعد في جادةٍ ضيقةٍ متعوجةٍ متهدمةٍ هائرة الحرف الخارجي، تدور دورةً لولبية، ونحن محشورون فيها بين حائط الجبل وانحداره، بل بين سورٍ عالٍ يتجهم المسافرين، وهاوية سحيقة ترحب بهم. فضقت ذرعاً بهذا الطريق، وسئمت محبوبة ومشيتها وتخوفها وترددها. وكان قد حظر محبوب علي الرسن، اصوّت به على رقبتها، فحاولت ان استحثها بالقول المعروف وبالمجاملة: يا بنت الحلال، يا زينة البغال، يا عروس الدروب، يا قرة عين محبوب، يا مباركة، يا محبوبة. انتهي كما بدأتِ. كوني حتى النهاية المثل الاعلى في النشاط وفي الفطنة والطاعة. لا تضيعي في هذه العقبة المقدسة ما احرزتِهِ من المجد في الرحلة كلها. ثم خاطبتها بلغة المكارين:

دِ يهْ ! دِ يهْ !!

فصاح محبوب بي: « بلا ديه ديه، يا معلمي، بلاها. البغلة لا تفهم بلسانك. اتركها لي. انا اكلمها. »

« دِ يهْ ! دين اصحابك، دِ يهْ !! »

وكانت محبوبة تخطو بضع خطوات، مكسّرات، وتقف، ومحبوب صابر عليها، وهو يمشي ويقف معها، فمد يده الى الارض، عندما رآها في متسع من الجادة، وقذف بالحجر الاول فبعج وركها، وبالثاني فقوّم اعوجاج رقبتها. ثم عدا وراءها، فادركها في منعطف الجادة، فمشى الى جنبها لاصقاً بها، فقالت انا الرسن — سرى الغيظ الي — فدارت دورة حادّة، فارتطم كفلها بصدر محبوب، فوقع الى الارض عند شفا الهاوية، وكاد يسقط فيها. تخيلته متدحرجاً كالصخر في ذلك المنحدر الهائل الى قعر الوادي، فارتعبت، وحزنت، واعتذرت.

— لا تؤاخذني، يا محبوب، لا تؤاخذني.

محبوب، وهو ينفض الغبار عن سراويله، ويصلح الكوفية على رأسه: « امشِ، يا معلمي، امشِ. اذا وقفنا في كل طلعة نؤآخذ بعضنا لا نصل اليوم. »

ولكننا، والحمدلله، اطللنا بعد قليل على الارز. وفي الساعة الثانية زوالية من اليوم العاشر، من شهر آب، من السنة السابعة والتسعماية والالف مسيحية، دخلنا الجوار المقدس سالمين جميعاً.

وصلنا اليك، يا ارز لبناني، سالمين.

ولكن الامل تدهور من علياه، والخيال طاح من سماه، والقلب نُكِب في ايمانه وهواه، عندما أطللتُ على مجدك المكوَّم تحت جفن الجبل.

مجد الارز — كنت اتخيله منتشراً فوق الرواسي، مخيّماً على البطاح والربى، مرتفعاً كقوس قُزَحٍ فوق الاودية والسهول، حاملاً في عبيره شذا الازاهير وطيب الرياحين، جامعاً في ظلاله كل انواع الاخضرار، باسطاً من جلاله على وجه المياه، وبين صخور السواقي، وعند ملتقى الوهاد والشعاب — كنت اتخيل الارز في هذا المجد الرفيع العميم، فرأيته متزوياً مقعنساً في حنيَّة من طرف فم الميزاب.

كنت اتخيل الجبل في ظل الارز، فالفيت الارز في ظل الجبل.

كنت اتخيل الزمان مجسماً في غابات الارز، فرأيت الارز مصغراً في كف الزمان.

كنت اتخيل اخضراراً يرتد البصر عن آفاقه حاسراً، وتتكسر اجنحة النسور في التحليق الى موطن بذوره وجذوره، فرأيت بقعة سوداء، في حنية دكناء، ونسراً يبسط فوقها جناح الكبرياء.

كنت اتخيل مجداً يملأ الجبال بطولها وعرضها وعلوها وانحدارها، ويرسل من علياه نفحات للمروج تزيد بعبيرها، وطيباً للسهول تنشره على مرجها وغديرها.

كنت اتخيل مجداً يقف نور الشمس في بابه، وضياء القمر في محرابه، فيرسلها الفاظاً قدسية، ترددها الاجيال والازمان.

كنت اتخيل امجاداً سندسية، على عروش ذهبية، في رحاب الهية.

كنت اتخيل كل هذا، قبل ان وقفت عند الباب، وبي دهش، وبي غم، وبي حيرة محرقة.

فهل الارز صفحة من التاريخ ؟

وهل الارز قصيدة من قصائد الشعراء، او نشيد من انشاد الانبياء ؟

وهل الارز سطور في كتاب مفدى ؟

وهل الارز بخور في مبخرة الزمان ؟

وهل الارز مدّة من قلم، ورسم على علَم ؟

قيل ان كل كبير في الطبيعة وفي الفنون هو صغير لمن في قربه. فيجب ان نبعد عنه قليلًا ليتجلى لنا ما فيه من سمو وجمال، ولندرك ما هو عليه من حقيقة العز والعظمة.

هذا القول يصح في بعض الاشياء، ولا يصح في غيرها. يصح مثلًا في الجبال العالية: فانك لا تدرك حقيقة العلو فيها وانت واقف في سفحها. ولا يصح في الصروح والمعابد والآثار والإشجار الكبرى.

فاذا وقفت في سفح جبل الارز تظن انك تستطيع ان تصعد في نحو ساعة الى اعلى قنة فيه. واذا نظرت في السماء الى القمر يطلع من وراء ضهر القضيب تظن ان في امكانك، لو كنت ذا جناح، ان تثب وثبة واحدة من احد اغصان الارز اليه. هي خدعة بصير، تريك المسافات مطوية.

وقد يصح ان نقول ان القرب يطوي المسافة العمودية، والبعد ينشرها اللهم البعد المحدود. فقد يأخذ الحقيقة شيء من الوهم عندما يتجاوز حداً ما، فيبدو الجبل العالي في نظرنا اعلى مما هو في افقه. ومما لا ريب ولا وهم فيه هو ان شيئاً من البعد واجب لادراك حقيقة العلو والجمال في الجبال.

اما في الصروح والمعابد الكبرى. وفي الآثار والاشجار العظيمة، فالحقيقة هي عكس ما اسلفت بيانه. فانك لا ترى المدهش العجيب في البنايات العالية، كناطحات السحاب بنويورك مثلاً، الا اذا دنوت منها.

ولا تشعر بهول العلو في العمد الستة في آثار بعلبك الا اذا وقفت في ظلها، او تحت افريزها:

ولا يتجلى لك الفن بكل جماله، والقداسة بكل جلالها، في معبد كبير مشهور، مثل كنيسة نوتردام في باريس او قبة الصخرة في القدس، الا اذا تجاوزت الظل، ودخلت الباب، ووقفت تحت القبة الى جنب عضادة شاهقة.

دخلت الغابة التاريخية القدسية، وانا التمس في سكينتها الرهيبة موطئاً للقلب الهائم، ومحراباً للروح الخاشعة.

دخلت الهيكل مؤمناً مستأمناً، ومشيت في الاروقة المفروشة بالطنافس السوداء المصنوعة من ورق الارز وترابه، ووقفت تحت القبة الخضراء، الى جنب عضادة من العضادات الكبرى، وانا افكر بما دهمني ساعة الاستطلال، وما غمرني ساعة التجلي.

سكينة يحتضنها الجبل، ويعطر جوانبها الارز. سكينة تتهادى تحت الاغصان، فتجر الاذيال على ما تناثر منها، فتحدث صوتاً ولا صوت النسيم في السحر. صوتاً هو الهمس السهل الممتنع. الذي تجثو له اساليب البلاغة والبيان.

وقفت في ذلك الهيكل، تحت القبة الخضراء، بين العمد الساحقة، اعفر في تراب السكينة وجه الشك، وامسح بعطورها عين الشوق، وارهف لهمسها اذن الحب والغفران.

ثم سمعت للبلاغة اصواتاً قديمة، وللبيان لهجات غريبة، وللتمجيد همسات ونبرات، كانت تتساقط كورق الارز في احضان السكينة، او كقطر

نيسان على ورق التوت .

اصواتاً ناعمة عريضة، واصواتاً رفيعة حادة، واصواتاً كصدى اجراس المساء في الجبال، واصواتاً كهديل الحمام في سكينة الفجر، واصواتاً كهمس الاشجار على ضفاف الانهار، واصواتاً كطنين الذباب في الهجيرة، واصواتاً كدوي الامواج بين الصخور.

سمعت الفينيقي يصف محاسن خشب الارز في مصر ليسمع فرعون. خشب صلب صقيل، جميل اللون والعروق، جميل الرائحة، زينة الهياكل والقصور. الزمان لا يقوى عليه، ولا السوس يدنو منه... خشب عجيب، يابس كالجلود، ملس كالزجاج، جميل كالورد...

وسمعت كلمات الفينيقي تردد في بلاط ملوك نينوة وآشور، وفي بلاط ملوك فارس.

وسمعت اصوات الفؤوس والمناجل في الغابات، واصوات المطارق والمناشير في مصانع طرابلس وجبيل.

وسمعت آشور بنبال يفاخر بجزيئه من شجر الارز، وسنحاريب يتبجح انه زار الارز في شماريخ الجبال.

وسمعت بعد اصوات الفاتحين والناهبين، اصوات المجد والشعر والقداسة.

صاحب المزامير يهتف باسم اشجار الرب ارز لبنان

وصاحب نشيد الانشاد يتغنى بتخته المصنوع من شجر الارز، وبرائحة عروسه الشبيهة برائحة لبنان.

وسمعت اشعيا يمجد ارز لبنان العالي المرتفع، وعاموس يشبه الأموري الجبار بالارز.

وسمعت صوت يوشع يقول ان حسن الارز لفخر لبنان، المكللة قننه بغابات منه غبياء. وصوت حزقيال كدوي الامواج بين الصخور.

ارزة لبنان، بهيجة الافنان، وارفة الظل، شامخة القوام.

ارزة لبنان عظمتها المياه، ورفعها الغمر الى اعالي الجبال.
ارزة لبنان وقد عشش في اغصانها كل طيور السماء، وولد تحت فروعها كل حيوان البر وسكن في ظلالها كل الامم العظيمة.
بهيجة في سموقها، بهيجة في امتداد افنانها، بهيجة في تكوينها.
فحسدتها كل اشجار عدن التي هي في جنة الله.

وسمعت مؤرخ اليونان يؤيد شاعر اسرائيل ونبيه، وسمعت شعراء الفرنجة يرددون اصداء اصوات الانبياء والمؤرخين.

وكانت الغابة، وانا استمع اصوات الشعر والتاريخ، تتشبح امامي، وتمحي شيئاً فشيئاً. ثم شاهدت على رأس الجبل غابة كبرى، تمتد شرقاً بغرب وشمالاً بجنوب، يتلوها غابات غبياء.

وسمعت في تلك الغابات اصوات الفؤوس والمناجل، واصوات القطّاعين والحطابين.

ورأيت خشب تلك الغابات في مصر، يُصفَّح بالواحه جدران قصور الفراعنة وهياكلهم، وتُذَرُّ نشارته على جثث الملوك المحنطة، وتضمخ بطيبه توابيت الموميات.

ورأيت خشب تلك الغابات في هياكل آشور، وفي قصور ملوك فارس.
وفي بلاط داود
وفي هيكل سليمان
وفي هياكل آلهة الرومان بإفِسُسْ وانطاكية
ورأيت خشب تلك الغابات في البحار فوق امواجها الصاخبة.
السفن التجارية، سفن الفينيقيين، التي اقتحمت اهوال اليَمّ عند اقدام هِرَقل، والتي شاهدت الامواج تفتتُ الصخور الكلسية على شواطىء الجزر البريطانية.

سفن الفينيقيين التي حملت الاصباغ والزجاج والمنسوجات من هذه

الشواطىء الشرقية القديمة الى شراطىء الغرب والشمال ، شواطىء الفرنجة .

سفن الفينيقيين التي عبرت بحر الظلمات الى العالم الحديث وطوت الشراع على شواطىء افريقية الغربية عند خط الاستواء .

سمعت اصوات الفؤوس والمناجل في الغابات .

وسمعت اصوات المطارق والمناشير في مصانع جبيل .

ورأيت خشب الارز في السفن الحربية التي غزا بها الفرس بلاد الاغريق .

سماع لاصوات الهدم في الغابات اللبنانية، ولاصوات البناء في المصانع الفينيقية .

ان الاسكندر في سوق الخشب يبتغي من الارز اجوده لبناء الجسور امام صور فيصل الجزيرة بالمدينة . خشباً من ارزكم لِأُؤَدِّب صور .

سماع لاصوات الفؤوس تردد صداها الاودية، ولاصوات المطارق تحمل صداها الامواج من جبيل الى طرابلس ومن طرابلس الى ارواد .

لقد جاءنا طالب من الملك انطيغون . انطيغون الملك يأمر ببناء خمسمائة سفينة حربية . ليغزو بها المدينة التي تمردت على الاسكندر، ليكتسح بها صور عروس فينيقية .

واصحاب الغابات فينيقيون، وتجار الخشب فينيقيون ، وصانعو السفن فينيقيون ! ؟

اي نعم، يا بني . وما خلا ذلك الزمان من الوطنيين . فقد كان هناك من تهامسوا في من آثروا مصلحتهم على مصلحة الوطن . وقد كان هناك صوت عالٍ للتذمر، وصوت آخر للاحتجاج .

ولكنها التجارة، يا بني، التجارة على الدوام، في كل زمان ومكان . .

هذا خشب الارز في اسطول انطيغون الملك .

وهذا ، بعد الف سنة، خشب الارز في اساطيل الخليفة الاموي الاول معاوية بن ابي سفيان. وتلك الاساطيل صنع الفينيقيين...

كلنا للوطن، كلنا للعلم.

مفائي ورفائي

ما كان في الارز من بناء في تلك الايام غير كنيسة صغيرة ودكان. وما كان من مأوى للسياح غير بضع خيمات عتيقة مرقعة، منصوبة داخل السور. فاستأجرت خيمة منها وقلت لمحبوب: الضيافة ثلاثة ايام. انت الان ضيفي، وانا ضيف الرب.

— « انت، يا معلمي، تغلبني في كل شيء. ما عدا — لا تؤاخذني — انا رحت اليوم الى الكنيسة وسمعت قداس الخوري. وانت، يا معلمي، زارك الخوري وعزمك وما رحت. فمن منا يكون ضيف الرب ؟ »

— وبهذه غلبتني، يا محبوب. اسمع القداس غداً عنك وعني. وسلم على الخوري.

« وهو قال لي. سلم على معلمك. آدمي. هذا الخوري، وكريم. عزمني للفطور معه والح علي. ففطرنا ومشينا بعد ذلك في هذه الغابة العجيبة، وما اكثر عجائبها: دلني الخوري على الارزة التي كان يسكن في جذعها الناسك. والارزة التي فيها جرن ماء، والجرن ملآن — بركته لا تنقطع — الجرن في جسم الشجرة والماء في الجرن، من اين يجيء ؟ هي عجيبة من عجائب الرب الكثيرة، اخبرني الخوري عنها كلها. »

— من آمن بالحجر يبرأ. اما قالها السيد المسيح ؟

— « بلى. وانا من الذين آمنوا. ما خبرتك عن الجرح في رجلي. وما الفائدة ؟ كنت اتعب، اهلك، في الطريق. وكنت اعض على جرحي وامشي، وانت « تخيل » البغلة، ولا تدري، ولا تكترث »

واتهمته فوق ذلك بالكسل ! انه حقاً لأمر عجيب. وعندما نزع

محبوب حذاءه ليريني الجرح — جرحاً بليغاً في رجله اليمنى تحت الكاحل بحجم حبة الفول ولكنه مقيح وملتهب، عراني من الدهش والخجل والحزن شيء شديد .

— « كان اكبر مما ترى . ولكني مسحته بالماء من جرن الارزة . وهو الان احسن . سبحان الله . »

فقلت له آنئذ لا بأس اذا فقأناه ودهناه كذلك بصبغة اليود، واخرجت الموسى والزجاجة من حقيبتي، فقال : « لا، يا معلمي، دوأ الرب يكفي . »

رأيته غير مرة يزور الشجرة ذات الجرن، وبعد ان يمسح جرحه بمائها يمسح وجهه كذلك . كأنه خارج من الكنيسة .

وكان محبوب في تلك الايام من السعداء في الناس ، راضياً مرضياً، لا عمل له غير الاكل والحديث وزيارة الاشجار المباركة — والنوم . وكان النوم احب اليه بعد زيارته للشجرة ذات الجرن، من كل شيء آخر .

ولكنه ابى ان ينام في الخيمة معي . ففرش فراشه تحت خيمة الرب، كما كان يقول، وعلى سجادة الارز الناعمة .

— « انا، يا معلمي، انام على فراش وسجادة، وانت تنام على فراش وثلاثة الواح . ولكني بقربك لا تخف . »

— وهل يخاف من يقيم في ارز الرب، يا محبوب ؟

— « الخوف، يا معلمي، ما له قاعدة . ابو مخايل جاري يمسك الثور الهائج بقرونه، ويسحب الحية من جحرها . ولكن عندما امرأته تنادي : يا بو مخايل ! يركض اليها مثل المذعور وعندما توبخه وتسب اجداده لتقصير منه او اهمال، يرجف امامها مثل القصبة . الخوف ما له قاعدة . »

— وهل يصح كلامك في كل الناس — وهل يصح فيك ؟

رمى السيكارة من يده بشيء من الغيظ وقال : « انا لا اخاف غير الله . ولكن عندما اكون مع ذات مثالك، وتكون امه واخوه وعمته وخالته

والقسيس والمختار وصّوني فيه اخاف من اجله— من اجلك يا معلمي— اخاف
زان من خيالي. لا تتعجب. اذا تخلّى الله عن انسان فلا خلاف بين خياله
وخيال الموت. ارحمنا يارب ساعة التخلّي. »

اشعل سيكارة وهو يردد « ارحمنا يارب ساعة التخلّي» ثم قال:
« ولا تظنني ذكرت الخيال لاضحكك او لاجاريك في الحديث، في هذه
الطلعة الاخيرة، طلعة الارز خفت والله من خيالي. في هذه الطلعة المشؤمة
كان التعب هالك البغلة وكانت البغلة متخوفة من الطريق مثلك ومثلي،
ومتكرهة من حياتها. فلما رأت خيالي امامها جفلت و« عَنطَزَتْ[1] »
ولو لم اسرع اليها واسكن روعها كانت تهوّرت وتهورت انت معها. كله
من خيالي، من خيال صاحبها. فهل تلومني اذا قلت اني اخاف خيالي من
اجلك . . .»

كفانا من هذا الحديث. « علمني من فضلك نصف ما تعلمته انت من
الكتب بخصوص الارز. كم عمر الارزة من الارزات الكبيرة القريبة من
الكنيسة »

— يقول احد العلماء. ان اكبر شجرة من تلك الشجرات عمرها ثلاثة
آلاف سنة، اي انها كانت غرسة صغيرة يوم كان سليمان الحكيم جالساً على
عرشه في اورشليم.

— « وكيف توصل العلماء الى هذا العلم ؟ »

الاشجار عقد تنبىء بعمرها. الا تعرف انت عمر الصنوبرة من عقدها ؟
—وما دامت ترتفع، وتظهر العقد، العلمُ سهل. ولكن عندما تقف
في ارتقاعها؛ وينحصر نموها في جسمها في ثخنها يصعب معرفة عمرها.

— ليس على العلماء. فان في جذع الشجرة ما ينبئ كذلك بعمرها
فاذا نشرتها ترى في جذعها دوائر، الدائرة تلو الاخرى، من قطبها الى قشرها

(1) فرقعت : عدت شديدا ومالت بعنقها

وهذه الدوائر مثل العقد في الخارج تساعد في معرفة عمرها. هل قست الارزة التي قرب الكنيسة ؟

— « قستها، بالحبل. وهذا هو. »

مدَّ الحبل فقسناه من رأسه الى المكان المعقود فاذا هو ثلاثة وعشرون ذراعاً. اي ان قطر جذع تلك الارزة هو نحو اربعة عشر متراً.

—« واذا تحققنا عمر الكبيرة، افلا يمكننا ان نعرف بالنسبة عمر غيرها ؟ هذه الارزة العالية مثلاً. كبرها في علوها. »

« ويمكننا انت وانا ان نطوقها باذرعنا. فما هو عمرها. »

— علوها بالتقريب عشرون متراً. ولا اظن ان عمرها يزيد على ثلاثمائة سنة بل عند العلماء من اخبار التاريخ ما يثبت ذلك. فان في هذه الغابة اليوم نحو اربعمائة شجرة كبيرة ووسط وصغيرة، وما كان فيها منذ ثلاثمائة سنة، بشهادة من ساحوا في هذه البلاد من علماء الفرنجة، اكثر من خمس وعشرين شجرة. وتلك الغابة الصغيرة بعد مائة سنة، اي في القرن الثامن عشر، نقصت عشر شجرات اي لم يكن هاهنا غير خمس عشرة شجرة، وهي هذه الكبيرة الضخمة التي نراها اليوم. ثم اخذت الغابة تتجدد فاصبحت شجراتها في القرن الماضي ثلاثمائة وخمسة وسبعين شجرة بشهادة عالم الماني زارها في اوائل القرن التاسع عشر وعدها. وبعد ذلك زارها عالم سويسري فأيد فيما كتب قول من تقدمه:

— « اذا كان عددها ٣٧٥ منذ مائة سنة، وهو اليوم ٤٠٠ فما زادت غير خمس وعشرين شجرة. وهذا قليل. »

— ولولا عناية بطاركة الموارنة، كما يقول الدويهي وغيره من العلماء المحققين المدققين، لما زادت قطعاً. بل كانت نقصت واوشكت ان تضمحل. ولكن اولئك البطاركة رحمهم الله كانوا يهددون بالحرم كل من قطع منها شيئاً.

— « هم البطاركة — الله يحرس دينهم ! »

— ولكن حرم البطريرك، يا محبوب، لا يؤثر بالرعد والبرق والامطار والرياح. لا يؤثر بالزوابع والزلازل والاعاصير. وقد كان الرب نفسه يغضب في بعض الاوقات على الموارنة كما هو غاضب اليوم، فيرسل الرياح والاعاصير والزلازل على ارزهم تذكيراً وتأديباً. وقد ذكر النبي داود ذلك مرة في مزاميره، فقال (المزمور ٢٩) «صوت الرب مكسر الارز، ويكسر الرب ارز لبنان.»

— « علمك بحر يا معلمي، بحر. ولكن ما كل العلوم تلذ الناس. انا لا تؤاخذني — افضل ان اجلس او اتمدد تحت هذه الشجرات العالية واتأمل الشيء الذي لا اظنك انتبهت اليه — عشق الارزات بعضها لبعض. انا دائماً اقول لأم حنا: بين الاشجار، مثل ما بين النساء والرجال، عشق وغرام. انظر الى ذلك الغصن الممدد من هذه الشجرة الى جارتها، اللاصق بغصن من اغصانها. وقد ولد من عناق الغصنين غصن ثالث، هو الابن — الاب والام والابن، هذه عائلة مقدسة. وانظر الى تلك الشجرة أم الجذعين. انا اقول، على قصر باعي في العلوم، كما تقول انت، يا معلمي، انا اقول ان الواحد من الغصنين ذكر والثاني انثى. ورب الارز كلل العريس والعروس، وظل الواحد يلزّ الى الآخر حتى لصق الصدر بالصدر، ودام العشق والغرام، وصار للزوجين اولاد — هذه الاغصان الكبيرة العالية. وستعيش هذه العائلة المباركة كما عاشت الارزة القريبة من الكنيسة، ستعيش ثلاثة آلاف سنة واكثر، ان شاء الله.»

— اللهم زد وبارك.

— « واكتب، يا معلمي، في كتابك، الذي سيقرأه الناس بعد ثلاثة آلاف سنة ان شاء الله، كما تقرأ انت اليوم مزامير داود» (شككت في حسن نية محبوب في هذا الدعاء. ولكني قبلته متواضعاً) «اكتب في

كتابك، يا معلمي، اني انا ابو حنا محبوب بن جرجس بن انطون الملّاح رافقتك الى الارز وقلت ان بين الاشجار من العشق والغرام اكثر مما بين البشر. وان احسن ما في هذه الغابة، بعد الارزة التي فيها جرن الماء المقدس، الارزات المتلازّة المتزوجة، العاشق بعضها لبعض. ؟

30

من حق الزائر للارز في تلك الايام ان يدعى حاجاً، لا لقداسة المكان فقط، بل لمسلكه الوعر ايضاً، وخصوصاً القسم الاخير منه. ولا عجب اذا كان الزوار الحجاج في تلك الايام قليلين. ما رأينا مُدّة اقامتنا هناك غير الخوري وصاحب الدكان، وبعض الرعاة والحطابين في الجوار المقدس، وحاجيّن لا غير، لا من السياح الاجانب، بل من اهل البلاد.

وكنت ارى محبوباً يحدث كل راع او حطاب يراه ليزيد بعلمه واطمئنانه فيما يتعلق بالطريق الذي قررناه — بالاجماع — صوناً لانفسنا وللبغلة. فلا نعود في ذلك الجبل الذي يفصل — كان يفصل — بشراي عن الارز. فنتدهور كلنا ونهلك في مهاويه.

ومع انه لم يكن يعرف طريق الصرد الاعلى الذي عزمنا على العودة فيه، ومع ان ذلك الطريق يستوجب التصعيد الى قنة جبل الارز، الى ضهر القضيب، فما بدا منه شيء من الاعتراض او التردد.

وقد سألته عن جرحه ونحن نتأهب للعودة صباح اليوم الرابع، فقال لي انه احسن: ولكني رأيته يزور ارزته المعبودة، قبل ان يرفع المخلاة من رقبة محبوبة ويربطها وراء الخرج ايذاناً بالرحيل. رأيته يزور تلك الارزة، ويدهن رجله بماء من جذعها، ويدهن كذلك جبينه، وهو يرسم على وجهه شارة الصليب.

ثم جاء الخوري يودعنا وهو يحمل غصناً من الارز قدمه لي قائلاً: « بركة الارز ترافقكم دائماً. » وقد كان لعمله هذا وقع جميل في نفسي دام ذكره طويلاً. واني اذكره اليوم، بعد ثلاثين سنة، بمثل ما تقبلته

يومئذٍ من الامتنان والاعجاب. هوذا الراعي الصالح الذي يعدو وراء الشارد من الخراف ليرده الى الحظيرة. انما السيد المسيح قال لتلاميذه: اذهبوا الى الخراف الضالة. وقد قال اكثر من ذلك كما رواه متى في انجيله (١٨ : ١٢)

ودعت ذلك الخوري المحترم وتوكلت على الله. وودعه محبوب مكملاً ما ظنه نقصاً في دعائي: «وعلى سيدة الارز.»

كانت الشمس ترسل طلائع نورها، فتلمع وتتلألأ على حافة ضهر القضيب، ساعة شرّقنا وشرعنا نصعَد في الجبل.

ان ارتفاع الصرود اللبنانية يتراوح بين الف وخمسمائة وبين الفي متر، وفيها طرق مسلوكة لا يشينها غير العقبات من السهول اليها. اما الطرق نفسها فانها على الاجمال في مستوى واحد، او في انحدارٍ او صعودٍ سهلٍ منبسط، وهي تمتاز بحسنات الجو العالي لمن لا يشكون ضيقاً في التنفس او نقصاً او زيادة في ضغط الدم.

والارز (١٩٢٥ متراً) يُعَدُّ في الصرود، ومن الارز الى ما فوقه يُعَدُّ في السماء. ولا غرو، فما كانت الطيارة قد أذلّت الاجواء العالية، كما تفعل اليوم، فنحسبها من غبار الارض. كان العلاء علاءً بكل ما في معانيه من روعةٍ ومجدٍ واعتزاز.

الى ما فوق الصرود اذن، الى قنن الرواسي، الى شماريخ الجبال! واظنني تبجحت يومئذٍ مثل سنحاريب ملك آشور عندما عاد الى نينوه من الغزوة السورية يقول: وقد زرنا الارز في شماريخ لبنان!

كانت الساعة الاولى من التصعيد ساعة ميمونة كريمة حملت اللذة والنشاط لصاحب الرحلة، ولصاحب البغلة، وللبغلة نفسها. فقد كانت محبوبة «تأخذ الطلعات» — لغة المكارين — كانها شربة ماء او حفنة شعير - وكانت على خفتها وسرعتها متمكنة الخطى، فيُرَدِّدُ صدى وقعها بين

31

الصخور، ويتطاير من تحت سنابكها الشرر والحصى. وما كان من حاجة الى استحثاثها بالرسن او بغيره، ولا الى تشجيعها بـ«ديه» مني او من محبوب.

الى العلياء الى الاعالي! وكانت محبوبة تقف هنيهة في حَنيَّةٍ من حنايا الطريق وتتلفت لتسرح نظرها فيما كان يتسع من الافق الغربي وراءها. أفق يبعد فيدنو لونه من لون السماء، ونحن نمعن في التصعيد. وهاك غابة الارز، فهي تصغر شيئاً فشيئاً، وقد غدت في نهاية امرها وامرنا منها مثل كومة شيحٍ في ظل الجبل.

الى العلياء! الى الاعالي! وما ابهج التصعيد، وما اطيب الهواء، وما انعم اشعة الشمس الشارقة في وجوهنا، وما اكرم الجبل بها، وان ضاق طريقاً بنا، وما آنس العزلة التي تدنينا من القنن، من الشماريخ، ومما فوقها من سماء ضاحكةٍ مرحبةٍ موالية.

لا يعرف السائح كل لذات الجبل، وكل جماله، وكل معانيه، وكل مصادر الصحة والوحي فيه، الا بعد ان يقف ولو مرة واحدة على سطحه.

اننا لا نزال في العقبة الى السطح، الى ضهر القضيب. وقد بدا التعب بعد الساعة الاولى من التصعيد، في خطى محبوبة، وفي وقفاتها عند حنايا الطريق.

وفي خطى محبوب كذلك. فها هو يقف ويستوقفنا. وها هو يخلع حذاءه، ويخرج المنديل الاحمر من جيبه، فيقطع بالسكين قطعة منه، يضمد بها جرحه، ثم يثني مؤخر الحذاء الى الداخل (يكعفه) ويلبسه ويمشي.

وعندما سألته عن الجرح قال: «احسن، يا معلمي احسن.» ولكني احسست بما وراء «الاحسن» من تجلد وكظم وشجاعة. وخفت ان يكون قد ازداد التهاب الجرح، فعرضت عليه الاسعاف، فشدّ عصاه وراء

كتفيه، كتف يديه عليها، وهزّ برأسه. فاستأنفنا التصعيد انما بالرفق وسمعتُهُ يقول: « هذه طريق بعلبك لا يقطعها غير المفادي بروحه. »

وكنا قد دنونا من القنة التي تشرف شرقاً على بعلبك ومن الصخرة العجيبة في وضعها عند تلك القنة. هناك تنتقل في دقيقة واحدة من المغرب الى المشرق هناك وانت تصعد حول تلك الصخرة تدنو من الخط الفاصل، فتقف على ضلع الطريق بين الافقين. وهناك الاعجوبة. فان خطوة واحدة شرقاً تنقلك من الآفاق البحرية الى الآفاق البرية، ومن وادي قاديشا الى سهول بعلبك، ومن هيكل الارز الى هيكل الشمس:

وقبل ان تخطو الخطوة الاخيرة فتولي وجهك شطر المشرق، قف قليلاً هناك على حرف الافق الغربي ترَ مشهداً منقطع النظير في جبال العالم. وما الاودية والشعاب ينقطع بعضها عن بعض ثم يتصل، وما الانهر والسواقي يفترق بعضها عن بعض ثم يلتقي، وما الحقول المزروعة والمحصودة المتعددة الالوان، وما البطاح والآكام يتدرج بعضها الى بعض فتتموج وتلمع في اخضرارها واصفرارها وما الوهاد السحيقة والصخور الصماء تحنو عليها، ما هذه بكل محاسن ذلك المشهد الجليل الغريب. فان هناك دونه، على بعدٍ محسوس مستحب، ازرقاق البحر، وهو يتشبّحُ ليدنو من ازرقاق السماء. وهناك في الناحية الشمالية من الافق البحري تبدو لك، حين يكون الجو صافياً شفافاً، بقعة قاتمة صغيرة هي جزيرة ارواد.

وقفة عند تلك الصخرة، ثم خطوة حولها، فيختفي المشهد الغربي باجمعه، وينكشف امامك المشهد الشرقي بسهوله وقراه، ومروجه ورباه، والوان ارضه وسماه.

بعد قليل من هذا المشهد الفسيح نجنح جنوباً الى طريق الجرد الاعلى. ذلك الطريق الممتد بين حافتي قمة الجبل، بين شماريخه، فيختفي عن النظر، شيئاً فشيئاً، الافقان الغربي والشرقي.

32

وهذا الطريق، الذي يبدأ عند ضهر القضيب (٣٠٦٧ متراً) بانحدار لا يدرك بالحس ولا يُرى، وينتهي في العاقورة (١٤٥٠ متراً) هو نحو خمسة عشر كيلومتراً.

ومن صفاته ان في جدرانه الى الغرب والى الشرق، التي تعلو كلما امعنا جنوباً، فرجات هي كالشبابيك، ترينا طوراً الافق الغربي، وتارة الشرقي، فتلمح منها البحر حيناً، وحيناً السهول.

وفي منتصف الطريق بين ضهر القضيب والعاقورة، فوق تنورين، عين روما، المعروفة عند الرعاة والحطابين ببركتها المشهورة باعجوبتها في هذه النواحي الشمالية.

وقد حدثنا خوري الارز بها، واشاد بمحاسنها، وخصوصاً بالاعجوبة. «اشربوا من مائها البارد، واذا كان هناك احد الرعاة تشاهدون الاعجوبة.»

وكانت آمال محبوب بهذه العين تدنو من ايمانه بالارزة ذات الجرن. فصبر على جرحه، ولكنه غُلِبَ قبل ان يصل الى محجته. فقد كنا في الساعة السادسة من السير، وكان قد ظهر العرج في مشية محبوب.

وقف ووقفت محبوبة، فترجلت لاتفقد الجرح، فاذا به قد انفقأ وسالت المادة منه. فبادرت الى الخرج وعدت بزجاجة من الماء المطهّر وبلفة من القطن. فغسل هو الجرح، بعد ان الححت عليه، ثم طلب الموسى، فترددت فكرر الطلب فرفضت، الا ان اكون الجراح. فنسل اذ ذاك سلسلة في وسطه معلقاً بطرفها سكين جزينية كبيرة وباشر العملية الجراحية. كشط اللحم المقيح المهتري بضربات عنيفة شقت اللحم السليم فسال منه الدم. فعل ذلك والعين منه جامدة، والوجه هادىء كأنه يقشّر خيارة او ليمونة. وبعد ذلك قبل أن يدهنه بصبغة اليود.

كنا لا نزال على نصف ساعة من العين ومن وقت الغداء. فقدمت له البغلة ليركب فابى الا ان يمشي. فقلت: اذن اردفك. فابى. فركبت،

واستأنفنا السير .

« لسنا بعيدين عن العين وقد سبقتنا المعزى اليها . »

قال هذا وهو يشير الى الابعار الطرية في الطريق. ولقد كان الدليل صادقاً. فهاك القطيع، وهاك المعاز مستنداً على بندقيته، وهاك في ظل البندقية العين.

— عين روما، اشربوا من مائها وشاهدوا الاعجوبة .

وما الاعجوبة ؟ سألت المعاز، فقال: « تفضل » وتقدمني فنزل بضع درجات، ووقف على الاخيرة عند حوض صغير، لا يتجاوز المتر ونصف المتر طولاً والثلاثة الارباع من المتر عرضاً، وهو ملآن، وليس في جوانبه اثر ظاهر لمجرى المياه. الا تحت الدرجة الاخيرة، فان بين اسفلها وبين المياه طبقة هواء — فراغاً — علوه نحو خمس اصابع .

قال المعاز: « هذه العين لا تزيد ولا تنقص، لا في الصيف ولا في الشتاء. تسقي مائة رأس، الف رأس، من المعزى ولا تنقص . »

كذلك قال الخوري . بل هذا هو الشائع في تلك النواحي عن عين روما .

المعاز: « تريد البرهان : ابق مكانك لاسقي عنزاتي » وشرع يخرج من الحوض السطل تلو السطل ليملأ للقطيع جرناً الى جنب العين وهو يقول:

« عين مباركة. مثل قدرة الرب لا تتغير . »

وانها حقاً لا تتغير. فقد ملأ المعاز الجرن وما ظهر في العين نقصان. اما السبب فقد لا يسر ذكره المؤمنين. ان نقل الماء بالسطل من الحوض تحت الدرجات الى الجرن فوقها هو عمل بطيء، فلا يكاد يظهر الفرق الطفيف في مستوى الماء حتى يختفي. وليس للمستقي ان يراه. فلو كان لنا ان نستخرج الماء الذي في الحوض بطريقة سريعة، بمضخة مثلاً، لظهر السبب، وزال العجب .

ومما لا شك فيه هو ان للحوض مجرى مياه قلما يتغير لقوبه من مخازن الثلج الدائم في هذه الاعالي، وله منفذ تحت الدرجة الاخيرة تجري منه المياه التي تفيض فيه. وهذا المنفذ وذلك المجرى محجوبان عن الانظار .

فلا عجب اذا قال المعاز والحطاب، وصدقهما اهل القرية انها لاعجوبة .

اذن. لا بد ان يكون للرب يد في امتلاء الحوض على الدوام، ولا بد ان تكون تلك اليد الربانية البيضاء متصلة بسبب من الاسباب الحقيقة . مثل مجرى العين ومنفذها . بتقوى ابناء هذه الجبال وايمانهم .

فالاعجوبة هي في ايمان الناس اكثر مما هي في عين روما او في الارزة ذات الثقب المتحجر في جذعها .

واذا قصرت الامطار في املاء الجرن فليس اسهل على الرجل الصالح المؤمن من ان يعاونها، لتتم الاعجوبة، ولتكمل مشيئة الرب .

بقي ان اقول لا دخل لروما او للرومانيين في اسم العين. فان اللفظة سريانية كما قيل ومعناها العين الباردة .

جلسنا في جوارها للغداء والاستراحة، فشربنا من مائها البارد القراح، وسقينا محبوبة، وغسلنا جرح محبوب . ثم استأنفنا السير بأمل منتعش ونشاط مستجد، فمررنا بمقالع من البلاط الابيض الشبيه بالرخام — وما اكثره في تلك الصرود — ثم انبأتنا البيادر بدنونا من الارض المزروعة والعمران، فوصلنا الى العاقورة في الاصيل، والى المجدل فالمُغَيْرة قبل الغروب .

حلت البركة

من مفاجآت الحياة مفاجأة تفعل باليقين فعلها، فتزعزعه او تغيره، وقلما ترعج او تسيء.ومفاجأة تسيء وتؤلم، وقلما تغير مما في القلب من عقيدة وايمان.

خذ المثل الاول. قد اتهمت محبوباً بالكسل والجبانة، وما تسرعت بالتهمة، بل كنت ادق من مدعي الجمهورية العام في التحقيق، وفي الاستقراء والاستنتاج، وما اكتفيت بالدليل الواحد والشهادة الواحدة. حفظت الحقائق وسلسلتها، وعندما اجتمع لدي منها ما ظننته كافياً — وما اظنه يكفي مدعي الجمهورية العام — قررت التهمة واثبتها بالبرهان والدليل، وسجلت الحكم على المكاري محبوب بالكسل والجبانة.

ثم كانت المفاجأة في الارز، ساعة كشف لي عن جرحه، في المكان المعول عليه بالمشي في عقبة، وكان قد مشى، مع ذلك، خمسين كيلومتراً، دون ان يقول اخ او يفوه بكلمة. وقد مشى ايضاً من الارز الى ضهر القضيب، وعمل العملية الجراحية في طريق الصرد الاعلى، بسكين جزار، دون ان يحرك عصباً في وجهه او شعرة من جفونه. فهل يحق ان اقول بعد هذا ان محبوباً كسلان جبان ؟

هذه المفاجأة بالحقيقة الكبرى، غيرت يقيني المبني على الحقائق الصغيرة التي لا تخلو من باطن خفي، من بطانة مجهولة. على انها ما ازعجتني ولا اساءت الي. بل كنت، والحق يقال، مسروراً بما بان، ناسياً لما كان.

وخذ المثل الثاني: لقد آمن محبوب بالحجر — آمن بالارزة ذات الجرن، وبمائها المقدس، فدهن به جرحه، ووجهه، وروحه، وهو يتوقع الشفاء العاجل، ويرى — او تريه عين الايمان — التحسين يوماً فيوماً، فكان الامر

عكساً عليه، وفاجأته الصرود بالحقيقة المؤلمة حقاً، فآلمته المًا شديداً، دون ان تغير بعقيدته، او تؤثر بايمانه.

هذا المثال الصغير، المأخوذ من لوح صغائر الامور، اثبته ها هنا بما يستحقه من البيان والتوكيد لانه مثال كذلك للكبير الخطير في حياتنا الاجتماعية والسياسية والعلمية. فكم من المفاجآت التي تزعزع منا اليقين، وتغير الاعتقاد، وتقضي على ما قررناه من «قواعد ثابتة» في السياسة وفي العلوم؟ وهي تزعجنا وتؤلمنا بقدر ما لنا فيما تغير من مصلحة او كرامة. ولكنها لا تؤلم ولا تزعج اذا نحن آثرنا الحقيقة فيها على الكرامة والمصلحة.

وكم من المفاجآت التي تزعجنا، تؤلمنا، تحزننا، وتخسرنا فوق ذلك المال والجاه والبنين، او السيادة والعز والاقتدار، ولا تغير ما رسخ فينا مما تعلمناه، او اكتسبناه، او ورثناه من خرافة او سخافة، او من عادة سقيمة وتقليد عقيم.

هذه الظاهرة الطبيعية النفسية شائعة، وتكاد تكون عامة. وسأحضرها الان في احوال شخصين ترافقا وتعاملا مدة من الزمن لاريك ظاهرة نفسية اخرى عجيبة. فان الذي ينتفع بمثل هذه المفاجآت انتفاعاً عقلياً، بل انتفاعاً ادبياً روحياً، فيؤثر الحقيقة على مصلحته وكرامته، يكون غالباً مغبوناً مغلوباً. والذي يتوجع ويتألم ويظل متمسكاً بما ورثه او اكتسبه من الترهات، او ما تعلمه من الخرافات، يكون غالباً الغالب المكرم كل الاكرام. الاول في نظر الناس خاطىء ضعيف متندم، والثاني بطل جبار.

كذلك كنا نحن الاثنين محبوبا وهذا الكاتب في نظر داود ملكون مضيفنا للمرة الثانية في المُغَيْرَة. فقد تحدثنا تلك الليلة، ونحن جالسون الى السماط، بما كان من امرنا، فجهرت بالحقيقة المذلة ظاهراً لنفسي، المشرِّفة في

كل حال لمحبوب، فاكبر داود المكاري وقال متحمساً: « انا رفيقكم غداً الى افقا، وحق الله. وسنذهب كلنا الى المغارة راكبين. محبوب يستاهل احسن الحمير. وعندنا حمار يعجبك ليطمئن بالك. »

وفي تلك الليلة بدل ان يشرب محبوب العرق غسل به جرحه، فضله — هي العقيدة الموروثة — على الماء المطهر (السلياني) وصبغة اليود. ولكن الجرح استمر في التهاب، فغدا كالجيدي حجماً بعد ان كان كالفولة، وتجدد التقيح فيه. مما زاد بتخوفي وقضى على رغبتي بزيارة افقا، فصممت على العودة في الطريق الاقصر الى الفريكة.

وهناك عامل آخر من عوامل هذا الانقلاب لا اخفيه عن القارىء. وقد جعلته شاهداً للمظهر النفسي باجمعه في أشخاص الرواية الثلاثة. فقد احسست تلك الليلة برعدة صحبها شيء من الحمى، ونهضت صباح اليوم التالي على غير نشاطي المألوف، فنظرت الى لساني في المرآة وقلت لنفسي: لا كلام بعدا هذا. العود احمد.

ولكن الشخصين الآخرين في الرواية الرفيق والمضيف، اصبحا من السياح المغامرين، واشدّ رغبة مني في زيارة افقا.

ومن الغريب العجيب، في كل هذه المفاجآت، ان شجاعتي انتقلت الى محبوب، وخوفَ محبوب سرى الي، فتفلسفتُ او بالحري تفلسفتِ الجبانة دفاعاً عني.

— وما نفع المسدس العسكري الخطير، ومحبوب لا يستطيع ان يقف على رجله ليدافع عن نفسه؟ وهل شاهدت في زمانك بطلًا على حمار، او قرأت في غير القصص الرومنتيقية اخبارَ حمارٍ عنتري، كحمار سنكوينزا مثلًا في رواية دون كيشوت؟ ولو فرضنا ان حمار سنكوينزا تجسد في حمار داود ملكون بيانوح الفينيقيين، بالمغيرة، فهل تظنه يهجم على قطاع الطريق في وعور الجبال اللبنانية كما كان يهجم على دواليب الهواء في

السهول الاسبانية ؟ كيفما نظرنا الى هذه المسألة نرى الحمار فيها والبطل والمسدس متنافرين غير مؤتلفين، متباينين غير متجانسين، فلا يجتمعون في مكان واحد، ووقت واحد، وخطر واحد، ويفلحون.

لذلك اشيح بوجهي عن افقا، ولو حرمت نفسي مشاهدة غارها وآثارها في هذه الرحلة.

وبعد المشادة والمناقشة بيني وبين البطل محبوب والفدائي داود تلك الليلة اجمعنا الرأي على ان يكون للبغلة المحبوبة رفيق من الحمير للرفيق المجروح، وان يكون الحمَّار ممن يقوون على المشي، ويعرفون مسالك الجبال.

وقد قررنا كذلك ان ننهض في اليوم التالي مع نجمة الصبح —الزهرة— اي قبل ساعة الفجر، ونشد للرحيل لنصل الى الفريكة في ذلك النهار.

وكذلك كان. مشت القافلة، ساعة كانت الزهرة تتلألأ عند حرف الافق الشرقي العالي. مشت القافلة في السكينة الرهيبة التي هي همزة الوصل بين الليل والفجر، يتقدمها محبوب راكباً حمارَه، والى جنبه الحمَّار حاملاً عصاه على كتفه كالبندقية، ووراءه محبوبة الرضيَّة المرضيَّة، كانها في غبطة علوية لرؤيتها صاحبها راكباً.

وقد اجتزنا بأمان الله الشعاب والآكام والينابيع، فاستقام لنا الظل بفيترون، فدخلنا البلدة وخرجنا منها ساعة كان الناس يأكلون او ينامون القيلولة، فما رآنا احد من آل دريان الكرام، الذين كانوا ينتظرون عودتنا ليضيفونا اسبوعاً على الاقل كاملاً.

وكان الجوع قد أخذ فينا جميعاً، واتعبنا السير، فحططنا الرحال في القُلَيعات للغداء والاستراحة. ثم نزلنا الى داريَّا، ومنها الى نهر الكلب، الناضب صيفاً في كل ما هو شرقي المغارة منه، فردَّد الجبلان صدى وقع الحوافر على بلاطه وبين صخوره. ومن هناك شرعنا في التصعيد الى عين

الخروبة فالمياسه فوادي شاهين فبيت شباب، فادركنا ساعة الغسق طريق العربات، ونزلنا فيه على ظلام الشاوية، ومنها الى الفريكة، فدخلناها آمنين عندما كان البدر يطل عليها من وراء جبل صنين.

وفي اليوم الثالث، بعد عودتنا من الارز، جاء محبوب يعرج ويعكز على عصاه ليزور « معلمه » الذي كان طريح الفراش من مرض جلدي، سرى مكروبه اليه يوم كان « ضيف الرب » في تلك الخيمة العتيقة الوسخة بالارز .

وبعد التحدث بالبركات الظاهرة والخفية، والموجعة والمبهجة، قدمت لمحبوب الاكرامية التي وعدته بها قبل السفر، فابى ان يأخذها وقال : « ما عدنا ، يا معلمي، سالمين. فقد حلّت البركة علي وعليك . ولكن، يا معلمي، الله يجرّب خائفيه. »

الرحلة الثانية

حيث شاء الطريق

•

محتويات الرحلة

الاخ هنا

تعودتُ المشي في الجبال لا رغبة بالنزهة فقط بل حباً بالاستكشاف عن جمال الطبيعة في مشاهدها ومكنوناتها . مارست المشي قليلاً في بادىء الامر، فقويت عليه، فصرت ابن بجدته، كما يقال، اهبط الوادي، واصعِد فيه، واتسلق الصخور، واقفز فوق الدكات، كالاشداء من ابناء القرية. بل صرت صنواً للرعاة والحطابين منهم، اباريهم متى شاءوا، ولا خوف علي. وصار المشي يشوقني حباً به لا بشيء سواه، مثل كل عمل يحسنه المرء فيهواه، فنشأت فيّ، بعد العودة من الارز، رغبة برحلة على الرجل مثل المكارين — رحلة طويلة، لا تعد بالساعات بل بالايام.

ولكني عدوت عن المألوف حتى في هذا الشيء الذي يحسبه ابن الجبل غير مألوف لدى من كان مثلي . ولا اخفي عليك ان والدي كان من خواجات لبنان، وفوق ذلك من « الكرخنجية » فيه، اي من اصحاب معامل الحرير. فوجب على اولاده ان يترفعوا عن العمل مهما كان صغيراً . فاذا كان الابريق مثلاً قيد يد احدهم في البيت، وهو متربع على الديوان يدخن الاركيلة، فينبغي له ان يصفق بيديه ويقول بلهجة السيد الآمر: هات الابريق يا ولد. واذا شاء السفر فيجب ان يكون ذلك على فرس من الجياد او بغلة من كريمات البغال، تعلو جلالها سجادة ووسائد مشدودة اليه (تقدم المثال في

« محبوبة » بغلة محبوب) ويمشي الى جانبها خادم او الى جانبيها خادمان.

على اني، كما علمت، او كما بدأت تعلم، ارغب عن المألوف في كل شيء، ولا تبهجني الأبهة، ولا يغمني ضياعها، اذا ما وطنت النفس على امرٍ فيه الشواذ كله او بعضه. فالرحلة ماشياً تقررت في نفسي، وقد ازمعت الرحيل كذلك وحدي. هذه في غير المألوف فعلة مزدوجة — فعلتان. وهناك الثالثة، وهي افظع الفعلات في نظر الجيران. ذلك اني فكرت في الضيافة اللبنانية، وفي الاستكشاف عن حقيقتها الكلية. فقد اسلفت القول انها في كسروان وافرة الحواشي، طيبة الاريج. وقد تفوق بمحاسنها الجمة سواها في اماكن اخرى من الجبل. هذا ما وددت ان اتحققه بالخبر والمشاهدة.

وما كنت في تلك الايام اتحرج من اختبار الامور بنفسي مهما كانت المشقة او التضحية، او مهما كانت البهجة متافة. اضف الى ذلك اني مثل اكثر اللبنانيين من نسل ورع تقي متقشف. وقد كانت زهرة هذا النسل في الماضي تختار الصخور والاودية والمغاور تتوّر بها. وبكلمة لا مجاز فيها كان الاجداد يتنسكون حتى التوحش، اي حتى الوحشة والجوع، فينأون عن الانس ومنازل الانس، ويقتدون قولاً وعملاً بالسيد المسيح، فلا يحملون ذهباً او فضة.

هي ذي كبيرة التجاوز في رحلتي. فقد وطنت النفس على الاقتداء باجدادي القديسين وبالسيد ذي المجد الاعلى، فلا احمل في الترحال، شيئاً من زادٍ او مال. وساسير على بركة الله وحدي. بيد اني لم اكن وحدي في البيت، فاستقل في تنفيذ ما قررت. فلما علمت بالامر الوالدة، رحمها الله، رفعت يديها الى السماء متوسلة، ثم الي مضطربة مستنكرة. فقالت ان ذلك مستحيل، وانه جنون مني. فقلت انه جنون الايمان. وما الايمان ؟ تناقشنا فيما هو الايمان نظراً وعملاً، ثم تساومنا سِواماً دَولياً. قبلت الوالدة،

38

وهي التقية النقية، ان اتشبه بالنساك، وقبلت انا بما فرضته علي، اي بالرفيق، فلا ارحل الرحلة وحدي.

وكان في بيتنا يومئذٍ راهبٌ حوليٌّ – مبتدئٌ ابنُ سنة – يدعى الاخ حنا. هو شاب من القوية ذو فطنة راجحة، ومخيلة واسعة، يكره الفلاحة والزراعة، ويزدري رعاية البقر او الغنم او المعزى، ولا يطيب له المشي كالمكارين وراء البغال. فقد كان الاخ حنا يحلم الاحلام الذهبية في ظل الزيتونة الهرمة المجاورة للدير القديم. كان يحلم بالثروة او بالسيادة. وبما ان الهجرة لم تكن متيسرة له تغلبت السيادة على الثروة في حلمه الذهبي، حلم الشاب الذكي الكسلان.

ها قد فاجأتك بالسر في باطن حاله. فقد كان الاخ حنا يقول: اني اتشوق الى خدمة الله. اريد ان اكون راهباً متعبداً. انما رغبته بالرهبنة كانت مقيدة بمطامع دنيوية. نعم. كان الاخ حنا طموحاً، يمد يده ليتناول القمر. وكان يرى السلّم امامه كأنه سلّم يعقوب منصوباً بين الارض والسماء، فيردد في نفسه، ويُسر في بعض الاحايين الى رفقائه في القرية، هذا النغم في حلقات التصعيد الى العلاء: الاخ حنا – القس حنا – المدبر حنا – الرئيس حنا ومن الرهبان من تختارهم النعمة الالهية الاسقفية، فيقفز الرئيس حنا الى صاحب السيادة الاسقف حنا. وما يدريك، فان في كل اسقف جرثومة بطريركية. وما يدريك، فقد تكون هذه الجرثومة كامنة بين اضلع ابن الفريكة هذا. اذن، ليست الدرجة العليا في خدمة الرب القدوس بالامر المستحيل. واذن – حنا بنعمة الله بطريرك الطائفة المارونية، بطريرك انطاكية وسائر المشرق !!

هذا هو الحلم الذهبي الذي كان يحلمه حنا بن جرجس بن بطرس الملّاح في ظل الزيتونة الهرمة المجاورة للدير القديم. بل هذا ما كان يقوله لبعض رفقائه في الفريكة. ولكن ابا حنا كان يقول، بعد ان هرب ابنه من

البيت: « كسلان ، وجبان ، ودائماً جوعان . هرب من الشغل، فاستراح المعجن منه. والى اين هرب؟ الى الدير! كأن الدير قصر البرامكة. الله يساعده على ما في الدير . »

وما عتم الاخ حنا ان رأى ما في الدير. فقد كان يعمل في بيت ابيه ساعتين او ثلاث ساعات في النهار، فيرعى الغنمات، ويحلب البقرة، ويوقد لأمه النار وهي تخبز له الخبز على « الصاج »، فصار يعمل في حراثة الارض، ارض الدير، وفي خدمة رؤسائه الرهبان، اثنتي عشرة ساعة في النهار ما عدا ساعات الصلاة والتهجد. كان يأكل اللحم في بيت ابيه مرةً او مرتين في الاسبوع، اي في الآحاد والاعياد، فصار مثال التقشف، لا يأكل غير « المخلوطة » — طبيخ من العدس والحمص — ولا يشم رائحة اللحم الا على مائدة الرئيس. كان معجن الخبز في بيت ابيه طوع يده، يسحب منه الرغيف تلو الرغيف ولا يُرَد ولا يُسأل، فصارت تُعَد عليه الارغفة وما يشفعها من بصل او زيتون. كان يسمع القول المعروف من والديه ممزوجاً في بعض الاحايين بشيء من التوبيخ لوفرة اكله وقلة شغله، فامسى في الدير لا يسمع غير كلمات التوبيخ والانذار اذا شوهد مرةً جالساً على صخرة يستريح، او متأبطاً رغيفاً وهو سائر الى الحقل. واين الزيتونة الهرمة يحلم في ظلها حلمه الذهبي؟

ثلاثة اشهر من هذا الكد والنصب والجوع — جوع الجسد وجوع الروح — ومن الأوامر المدبجة بغليظ الكلام، ثلاثة اشهر كاملة تحملها وصبر عليها لمجد يسوع بن مريم. وكان في تلك الاثناء، وهو يختلس الدقائق للتأمل، يرى حلمه الذهبي متشبحاً امامه، فيشتد اسوداداً ثم يختفي. ويبدو تارة كالتنين وطوراً كالحية. هالته هذه الرؤيا، وروَّعته في ترددها. وفي ذات يوم وهو عائد من الحقل تخيل ظله منتصباً امامه، فتناول حجراً وضربه به، فرآه احد الرهبان، فسارع الى الرئيس يقول: « جنَّ الاخ حنا ،

39

يا محترم. فقد رأيته يرشق خياله بالحجارة، وسمعته يسب الدين.»

وفي اليوم التالي، بعد ان وقف الاخ حنا في حضرة الرئيس يستمع كلمات التوبيخ والانذار، رأى الراهب الذي وشى به، فعاتبه، فانكر الراهب الأمر، فدعاه كذاباً منافقاً، فتشاجرا، فرمى الاخُ الصادق الاخَ الكاذب حجراً شج به رأسه. ثم فرَّ هارباً من الدير.

عاد الاخ حنا تائباً الى بيت ابيه. ولكن اباه ابى ان يقبل توبته، فطرده من البيت. وما أفلحت أم حنا بتوسطها من اجله. فقد كان ابو حنا رجلاً عنيداً، وذا قلب كالصوان. فراح الاخ المطرود يطوف في القرية وجوارها، طالباً عملاً، مسترزقاً، وما استطاع، وهو المهز في الهرب، ان يهرب من الجوع. فرثت لحاله الوالدة، فاستخدمته في البيت، وهي ترجو ان تعود النعمة الى قلبه، فيعود الى الدير.

طابت للاخ حنا الاقامة في بيتنا لاسباب ثلاثة على ما اظن. فما كان عليه غير القهوة والاراكيل يعملها ويقدمها للزائرين. وما كان عليه من مراقبة في المطبخ، فيأكل ما تشتهيه نفسه وساعة تشتهي. وقد توفرت لديه ساعات الفراغ فكان يملأها بالتأمل — والنوم!

ومع ذلك فقد احببت الرويهب حنا، لانه كان قليل الكلام، وكان يحسن عمل القهوة، وما كان مثل اخوانه الرهابين يكثر من مجالسة النساء ووعظهن. وهناك سبب آخر في حبي له، وهو اني، على رغبتي بالنسك والتقشف، كنت احس بسرور يخالطه بعض الزهو، بل بتموجات من الاحساسين تتموج في قلبي، وانا اناديه قائلاً: هات القهوة يا «خي» حنا، هات الاركيلة يا «خي» حنا!

فيجيء الاخ حنا بطلعته المشرقة، وقد زيَّنها بلحية فتية مدورة، وبقامته الطويلة، وقد البسها الثوب الاسود والقلنسوه، يجيء والطبق بيده، وهي ممدودة مرفوعة الى مستوى لحيته، كأنه تعلم الخدمة في نزل بباريس،

او في الفاتيكان برومه.

هي ذي الابهة بعينها. راهب في خدمة من لا يحب كثيراً اصحاب القلانس. وقد أطعت الوالدة، كما اسلفت القول، فقبلت الاخ حنا رفيقاً لي في الرحلة السعيدة.

بسم الله — وهذه شمس ايلول تطل من وراء جبل صنين لترحب بنا.

— « الى اين يا خواجا امين ؟ »

— « الى حيث يشاء الطريق، يا « خي » حنا، ويشاء الله. »

وسرنا على بركة الله. الاخ حنا في ثوبه الاسود وقلنسوته، وقد القى بجبته على كتفه، وانا في ثوب افرنجي من النسيج الاصفر — الكاكي — العسكري — وبيدي عصا من السنديان. ومما زاد في غرابة القيافة قماطات من الجوخ مشدودة حول الساق على الطريقة العسكرية، وبرنيطة سوداء قوراء الحرف فوق شعر مسترسل، بل فوق شلالات من الشعر.

اثنان قلما اجتمعا في القصد الواحد، وقلما شوهد مثلهما في الطريق.

— « ا! اظن الرحلة طويلة يا خواجا امين. »

— الرحلة بيدنا يا « خي » حنا والعودة بيد الله.

40

دير مار جرجس

ليس من اغراض هذا الكتاب، وهو كتاب اسفار ومشاهدات، سردُ الاخبار الشخصية او العائلية. ولكننا نحدثك ونحن سائرون بما فيه منها عبرة او ذكرى، ونروي من الحوادث التاريخية، الخصوصية والعامة، ما لا يخلو من فائدة او تفكهة. بل نزيد على ذلك، من حين الى حين، عندما نقف في التسيار نستريح. فاذا كان هناك مشهد جميل وصفناه، او أثر قديم استنطقناه، واشرنا الى الطريف من ماضيه. وما آثار الامم غير نتيجة ظاهرة لجهود افراد منها امتازوا عن السواد بافكارهم واعمالهم، او باطماعهم اوغطرستهم، اوبشيء مَلَكَهم من المثل الاعلى في طلب السيادة والمجد.

هذا الدير القديم مثلاً،القائم على رابية صخريَّة بين الفريكة والشاوية، المُحَمَّرَةُ حجارتُهُ من عوامل الطبيعة والزمان — من الامطار والرياح والتراب والشمس — هو دير مار جرجس بجِرْدُقْ (لا تسألني عن النعت في اسمه. فان الالغاز والاصول الخفية في اعلام هذا الجبل لتكثر في تاريخه القديم والحديث)

الذي اعلمه هو ان هذا الدير كان للرهبان في القرن الثامن عشر، فصار في القرن التالي للراهبات، ثم تحوَّل الى مدرسة اكليريكية في عهد المطران يوسف جعجع، ثم الى بيت خصوصي ومعصرة للدبس والخمر، ثم الى مدرسة علمانية انشأها المرحوم نعوم مكرزل قبل ان هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية، وكان هذا الكاتب من تلاميذها في العاشرة من سنه. اما اليوم فالدير أثر من الآثار المسربلة بجلال العتق والقِدم.

لقد جئتك بالعنوان لبعض الفصول في تاريخه، ولا بأس بصفحة منه الخصها لما فيها من التفكهة. هذا الدير واملاكه الكثيرة هو وقف « مشايخ بيت الحايك » من بيت شباب « وقفاً مخلّداً » لقاء بركة نشدوها، ومساعدة حدودها. فقد جاء في صك الملك المحبوس، الذي أقرّهُ المطران باسيل عبد الاحد البجاني سنة ١٧٣٢، ان للمحتاجين من اسرة الواقفين حق الإعاشة من الدير، وللاسرة كلها قداسان اثنان كل سنة رحمةً وبركة. اي ان غابة الصنوبر التي تكسو هذه الرابية، واحراج السنديان والملول دونها، والاراضي الواسعة بدكّاتها وبطاحها، المغروسة كرماً وتوتاً وزيتوناً، هي كلها للدير لقاء قداسين اثنين يقدسها الرئيس او احد رهبانه المعاونين، خلاصاً لانفس الواقفين!

وقد حل محل الرهبان، بعد حُقب من الدهر، راهبات كن في الدير غير خاشعات، على ما يظهر، وغير تقيات. فقد جاء في اخبارهن انهن في العقد السابع من القرن التاسع عشر اقلقن راحة اسقف الابرشية المطران يوسف جعجع، فغضب عليهن غضبةً مشرّدة. وقد كان ذلك الحبر المفضال مشهوراً بعدله، ودمقراطيته، وشدة ساعده، يشارك عماله في حراثة الارض، له ضربة معول فالحة، وضربة مهدّة تفتت الصخور. وكان في احكامه، مثله في معوله ومهدّته، ذا مآثر مجيدة، لا يهاود في الحق، ولا يلين للباطل.

فلما حدث الشقاق في الدير، وتطاير من مبخرة الكنيسة شررُ الاحقاد والشهوات، انذر اولئك الراهبات، ثم هددهن بالطرد، ثم طردهن واقفل الدير، فامسى فارغاً غامراً لا متعبدون فيه ولا متعبدات.

وفي كتاب كتبه المطران جعجع سنة ١٨٧٠ الى رئيس مجمع الايمان المقدس برومه، ليرفعه الى قداسة البابا، قال انه عازم على تجديد الدير بعد ان « فوّق الراهبات بعضهن عن بعض »... « لاجل طمأنينتهن وراحتهن » واستأذن بان يجعله مدرسة اكليريكية، فاذن البابا بذلك. ولكن تلك

المدرسة الاكليريكية، مثل المدرسة العلمانية المكرزلية بعدها، لم تدم طويلاً.

ولقد كانت مدرسة نعوم، على قصر مدتها، كثيرة التنقل. فقد أنشأها في عين عار، ثم نقلها بعد سنة الى دير مار جرجس هذا، ومن الدير بعد نصف سنة الى الفريكة، وبعد ذلك ببضعة اشهر انتقلت الى رحمته تعالى.

اني اذكر من ايامها في عين عار يوماً مجيداً. فقد كان قنصل فرنسة ماراً بالبلدة في طريقه من بيروت الى مصيفه ببكفيا. فخرج تلاميذ المدرسة باثواب العيد صفاً مبهجاً وراء معلمهم نعوم، يرحبون بسعادة القنصل في ساحة البلدة، بين مزراب العين ومدخنة معمل الحرير.

وكان معلمنا، غفر الله ذنوبه، قد نظم في مدح القنصل ودولته قصيدة رنانة، فاختارني لالقائها، فالقيتها بلهجة أعجبت القنصل، فخصني بعطفه ووعد بان يستصحبني عندما يعود في آخر الصيف الى بلاده لاتعلم في احدى مدارسها.

بعد هذا الفوز المبين اعتراني شيء من الزهو، فأثر في دروسي وسلوكي. فقد كنت الاول في الصف، فصرت دون ذلك بدرجات، وكنت العاقل الطائع البار، فصرت «كبير الرأس» مشاكساً مشاغباً. ولا ازال اذكر قصاصاً قاصَنِيهِ المعلم نعوم، وهو انه ضربني على رؤوس انامل مجموعاً بعضها الى بعض عشر ضربات شديدات بالمسطرة!

لا احاول التحليل والاستقراء لما كان من تأثير هذين الحادثين في نفسي، اي عطف القنصل الفرنسي واخلافه بعدئذٍ بوعده، وقصاص نعوم القاسي. ولكني اذكر كذلك اني تأذيت من معلمي في دير مار جرجس. فقد دعاني يوماً للوحة التمرين السوداء وقال: خذ الطبشورة واكتب. فوقفت امام اللوحة والطبشورة بيدي انتظر الاملاء. فقال: اكتب — الحمار. فكتبت — الحمار. فقال: اكتب — امين. فكتبت — نعوم.

فضحك التلاميذ واستشاط نعوم غيظاً. ثم امرني ان اقف ووجهي الى الحائط عشر دقائق.

مررنا تحت الدير الذي يبعث هذه الذكريات من تلافيف الماضي. وحسبي ما تقدم من الاكليريكية والعلمانية منها، العامة والخاصة. وها نحن امام الكنيسة القديمة حيث كان الدير الصغير قبل ان نُقل الى رأس الرابية وكُبِّر بعد ان وقف له آل حاتك الوقف الذي تقدم ذكره.

هي كنيسة صغيرة حقيرة، ينبت عند جدرانها العليق والقندول، لا جرس في قبتها، ولا قفل لبابها. حولها مقبرة اهل الشاوية، وهي بضع حجرات مربعة تعلوها الصُلُب والقباب، منها حجرة بيت الريحاني، في ظل ثلاث سنديانات فتيات الى جانب الطريق. ها هنا مدفون الوالد والوالدة، والعم والعمة، والجد والجدة، وها هنا، في ظل هذه الثلاث السنديانات، عند سفح هذه الرابية المكللة بالصنوبر الدائم الاخضرار، اريد ان تتفيأ عظامي ابد الدهر. واني منذ الان استنزل لعنة الله على من يقطع هذه الشجرات الثلاث المقدسة او يمسها بسوء. واني اسأله تعالى ان يسبغ الرحمة والنعمة على كل من يعتني بها، فيدفع عنها عاديات الزمان والفساد، ويشذبها لتنمو في جمالها وتدوم، فتفرش ظلالها فوق المقبرة والكنيسة، ولكل من شاء الاستراحة من المارين. اني انظر الى هذه السنديانات الثلاث بعين الغيب فاراها بعد الف سنة — وقد اعود بعد الف سنة فاراها يومئذ بالعين التي تراها اليوم — قائمةً ها هنا يزورها الناس ويتبركون بها كما يزورون في هذا الزمان الارز.

قلت هذا للاخ حنا فقال: « افكارك مثل اعمالك، يا خواجا امين، غريبة عجيبة. وهل تظن ان الانسان بعد موته يعود الى الارض ؟ »

قلت: « الهندوس يعتقدون بالتقمص او التناسخ، اي بانتقال النفس الناطقة من جسد الى جسد. ولكل انسان تقمصات عدة تتنوع بحسب اعماله الصالحة او الطالحة. فالصالحون بعض الصلاح يتدرجون في التقمص،

وهو دوماً في ارتفاع، فيعودون الى هذه الارض مراراً الى ان يدركوا درجة الكمال الروحي، فيندمجون اذ ذاك بالفيض الازلي الابدي الذي يُدعى عندهم نرڤانا . »

هزَّ الاخ حنا برأسه، وهو ينقل جبته الملقاة على كتفه الى الكتف الاخرى، ثم قال: « هذا فوق ادراكي. واذا كان لي ان اعود الى هذه الارض، فافضل ان اتجسد في سنديانة من هذه السنديانات لادفع عنها الاذى، واظل ابداً في جواركم .»

الاخ حنا الخالد في سنديانة مقبرة مار جرجس. اعجبني هذا التخيل منه. ولكنه في تجسده الحاضر لا يطمئن الى ظل من ظلال الاديرة.

مررنا بقرية الشاوية، مسقط رأس الوالد، فسألني سؤالاً يتعلق بالعائلة. ما الذي حمل والدي على نقل بيته الى الفريكة؟ يظهر ان التنقل من الصفات اللازمة لبيت الريحاني. منذ ثلاثمائة سنة ويزيد نقل جد العائلة من بجّة في جبيل الى بيت شباب. وبعدها بمئة سنة نقل الخوري (ثم المطران) باسيل عبد الاحد البجاني من بيت شباب الى القرية المجاورة لها اي الشاوية. فبنى له قلّايةً فيها، وكان الآس الذي يدعى في هذا الجبل « الريحان » يكثر في تلك الناحية، فقال الناس: قلاية الريحان. ثم نُسبنا اليه فقالوا: بيت الريحاني. وهذه بيوتنا لا تزال قائمة تحت بيت شباب ولكنها مهجورة. هي اليوم خبر بعد عين، وغداً لا عين ولا خبر.

اما السبب في انتقال الوالد الى الفريكة فهو الحب. كان والدي شريكاً لخاله امين هاشم في معمل الحرير بالفريكة. فاضطر ان يقضي معظم ايامه فيها، وقد كان يجتمع في بيت خاله بانيسة جفّال طعمة من قرنة الحمراء، وهي في بيت عمتها امرأة خال ابي فاحب فارس انيسة، واحبت انيسة فارساً، فانغرس الحب في قلبيهما، ثم نوَّر بالزواج فأثمر، فكنت انا بكرهما الغالي، اطال الله بعمري وجمّل احوالي . . .

فهمت، يا اخ حنا، ما جاوبت بالتدقيق على سؤالك. فقد اختلف فارس وانيسة قبل الزواج في امر جوهري، هو محل الاقامة. وذلك لان انيسة جفال طعمه، لِعنجهية طعمية فيها، رفضت ان تسكن في الشاوية، وابى فارس انطون الريحاني، لعنجهيته الريحانية، ان ينقل بيته الى قرنة الحمراء او يسكن في بيت عمه هناك. وكاد الخلاف يؤدي الى المشاقة والجفاء لولا الحب قاهر العنجهيات البشرية. فقد اوحى الحب اليهما بالمساومة فتساوما من اجله، وتقرر بالاجماع في مجلس عائلي ألّا يقيم العروسان في الشاوية ولا في قرنة الحمراء، بل فيما بينهما، في قرية الفريكة! وهكذا كان.

وهذا هو السبب في نقمة اهل الشاوية علي. فان الشهرة التي جناها الدهر على الفريكة في عهدي كان ينبغي ان تكون للشاوية. ولكنهم يقولون: وان كان البيت بالفريكة فالمقبرة عندنا. وقد تدوم المقابر، والبيوت لا تدوم. سبحان الحي الباقي.

الضيعة وضيعاتها

في تحديد القاموس لبعض الالفاظ ما لا ينير من الذهن موضع الابهام، فيبلبل ويغيظ. ومن هذه الالفاظ القرية والدسكرة والمدينة والمزرعة والضيعة التي يهمنا الان التدقيق في معانيها. فأية منها تطلق على « البيتين والتنور » في عرف اللبنانيين، واية منها تليق بما هو اكبر من « المصر الجامع » واصغر من المدينة المنوّرة ؟

ان في جبل لبنان من « الامصار الجامعة » ما لا يتجاوز عدد سكانها المئة نفس، وفيه ما يتجاوز الثلاثين الفاً، وفيه ما بين الاثنين الكثير. فهل لنا ان نبدأ بالدسكرة، ونتدرج منها الى القرية فالبلد فالمدينة ؟

ولكن المدينة المنورة تدعى قرية الانصار، ومكة المكرمة تدعى بالبلد. أفيجوز لنا اذن ان نقول قرية بيروت « ونسمي نيويورك او باريس البلد ؟

اما المدينة فهي في عرف ارباب القاموس ما كان حولها سورٌ بخلاف البلد او القرية. ولكننا نحتاج في هذا الزمان الى غير هذا التحديد، والا فالمدن الحديثة، وهي غير مسوّرة، تُعد من القرى. خذ المعقول اذن، ودع عنك الاصطلاحات اللغوية. فالقياس المعقول في تحديد القرية او البلد او المدينة هو عدد السكان.

وهذا ما يتقيد به اصحاب القواميس الاوروبية. فاذا لجأنا الى القاموس الانكليزي مثلاً نرى التحديد دقيقاً معقولاً لا ابهام فيه. ان للصف الواحد او للصفين من البيوت في بقعة معينة اسماً واحداً لا اسمين، وهو هملت (Hamlet) ويجيء بعده فيليج (Village) اي القرية في

اصطلاح الناس، ثم طَوْن (Tawn) وهي اكبر من القرية، واصغر من المدينة. هذا صريح صحيح.

فهل لنا ان نجدد التحديد العربي بما يماثل ذلك فنقول دسكرة، او مزرعة في اصطلاح العامة (Hamlet) وقرية لما فوقها، اي (Village) ثم بلد (Tawn) ثم مدينة ؟

على ان في قرى لبنان تفاوتاً لا يرضى اهلها باهماله. فالفريكة « بيتان وتنور » اي دسكرة او مزرعة. لا مماراة في ذلك، ولا اعتراض عليه، لا مني ولا من مختار المزرعة او قسيسها. او بعبدات مثلاً والخنشارة وقرنة الحمراء. فهي من القرى، ولا اظن ان احداً من اهلها يدعي انها من المدن.

على ان هناك امصاراً مجموعة مثل بيت شباب وبكفيا وبشراي ودير القمر ما لا تُعد من القرى ولا من المدن. فان قلت قرية بيت شباب مثلاً نهض منها الف شاب لدفع الاهانة. ولا يكترثون لما قال القاموس في القرية، وان المدينة المنورة قد شرفت اللفظة بان انتحلتها اسماً لها فدعيت قرية الانصار.

بقيت البلد، واليك ما قاله فيها الفيروزابادي: « البلد والبلدة مكة شرفها الله تعالى وكل قطعة من الارض مستحيزة، عامرة او غامرة. والبلد التراب والقبر والمقبرة » اذن يصح ان نطلق اللفظة على الدسكرة والقرية والمزرعة، وعلى الغامرة منها مثل العامرة، اي على المقبرة ! فاين التدقيق والقياس المعقول في هذا التحديد ؟

اما اهل بيت شباب فكأني بهم قد استناروا بنور احد ادبائهم او بعلم كهنتهم المتأدبين، فنبذوا البلدة والمقبرة كما نبذوا القرية والدسكرة، وأسموا « قطعة ارضهم المستحيزة » ضيعة. بل هي الضيعة المشرّفة بأل التعريف. وقد اعترف بهذا الاسم اهل القرى المجاورة لها، من ديك المحدي

44

الى الشاوية، فيقول احدهم، اذا كان ذاهباً الى بيت شباب او قادماً منها:
« رايح الى الضيعة، جاي من الضيعة. »

ولكننا لا نزال في مبهمات الفيروزابادي واخوانه اللغويين. فالضيعة لا تدخل في تحديدات « قطع الارض المستحيزة » اي المجموعة. الضيعة — خذني بجلمك وَعُد معي الى القاموس — هي الارض المغلّة. وليست ارض بيت شباب على شيء يذكر من الغلة. والضيعة حرفة الرجل وصناعته. ها هنا بصيص من النور. ها هنا شيء من الحقيقة. واذا كانت قد خفيت على اهل بيت شباب فها هي «حباً وكرامة» ظاهرة جلية. لقد امتازت بيت شباب بصناعاتها، بضيعاتها العديدة. وبحسب القياسات كلها، العقلية واللغوية، والتصويرية والمعنوية، يجب ان تدعى وبحق هي تدعى الضيعة.

وقد كانت الضيعة في تلك الايام، اي منذ عشرين سنة، عامرةً مزدهرةً بالضيعات، بالصناعات. تُصنع فيها الاجراس، وتنسج المنسوجات الوطنية (الديما) ويُعمل الفخار، وتُحَل في معاملها شرانق الحرير. وقد كان حدادها ونجّارها وبنّاؤها، مثل نسّاجها وفخّاريها، مشهورين في القاطع، بل في المتن، بل في جبال لبنان شمالاً وجنوباً.

وما اجمل هذه الضيعة مشهداً للقادمين اليها من الفريكة، او للمشرفين عليها من طرف بكفيا الغربي. انها تملأ صدر الجبل ببيوتها وبساتينها ومصانعها وكنائسها، تحيط بها غابات الصنوبر، وتكللها الكروم. كثيرة الينابيع، غزيرة المياه. يتصاعد من مداخن معاملها الدخان، وتنتشر من جنائنها الروائح الزكية.

ضيعة متصاعدة بجمالها، متضمة بعمرانها، تملأ صدر الجبل الطويل العالي، الذي يتصل جنوباً بجبل بكفيا، ويدنو شمالاً من جبل كسروان. الاول من منازلها بعلو ستمائة متر عن سطح البحر، والاخير سبعمائة وخمسين متراً.

وبين اسفلها واعلاها تجتمع البيوت بعضها فوق بعض، وتنتثر وتتسلسل، وتستدير، باشكال فاتنة من الحجارة البيضاء والسطوح الحمراء المسنّمة، وقد تخللتها جميعاً بساتين التوت، وبواسق الحور والجوز والصفصاف .

اما سوقها فهو مؤلف من ثلاث ساحات، السفلى والوسطى والعليا، يصل بعضها ببعض طريق العربات الكثير التكويع والالتفاف—والاجراف الهائرة . على انك تستقبل في الساحة الاولى كنيسة السيدة — سيدة الجوزة— فتنذر لها نذر السلامة اذا كنت من المؤمنين، وتستمر في العربة مصعداً في ذلك الطريق اللولبي، ولا خوف عليك ان شاء الله .

اما اذا كنت من غير المؤمنين بالسيدات القديسات وكنائسهن — وما اكثر كنائسهن في الضيعة — فخير لك ان تسلك الجادات ذوات الادراج، المتغلغلة في صميم البلدة، فتعرج في التوقل على بيوت الصناعات ومعاملها .

هي الجادات التي سلكناها انا والاخ حنا بالرغم عن تردده وتبرّمه، لانه في السير مثل المياه الجارية . يَدُور الدورات ليخلص من الاوعار والعقبات . وفي عقبات الضيعة تُحَلّ الرُكب، وتُفك الرقاب . سلكنا احدى الجادات مستهترين، وما كنا آسفين . فاول ما استوقفنا بيتٌ فيه نول، وفي حفرة النول، وراء الخشبة، حورية شبابية، تشغل في النسيج يديها ورجليها . فاليد الواحدة على الخشبة، والاخرى تقبض على حبل المكوك، ورجلاها الحافيتان تصعدان وتنزلان على الدواستين كانها تمرنها على الرقص . هي فتاة النول المتحرك المتحركة . وليس صوته، وهو كصوت الدف، الذي استوقفنا، بل صوتها وهي تغني « العتابا » . ولكنها، عندما وقفنا في الباب المفتوح، توقفت عن الغناء والعمل ودعتنا الى الدخول . وكانت هناك امرأة اخرى جالسة على وسادة امام دولاب اللُّحمَة، وهي تديره باليمنى، وتعالج باليسرى الخيط وهو يلتف على البكرة التي تستعملها الناسجة في مكوكها .

وقفت السيدة وخرجت الفتاة من نولها ترحبان بنا. فعلمنا ونحن نمتحن لطفها بالسؤالات ان الفتاة عروس جديدة، وان زوجها مدير في معمل الحرير، وان المرأة التي تعدّ لها البكر للمكوك هي حماتها. وعلمنا كذلك ان في الضيعة اكثر من الف نول للنسيج الوطني تديرها النساء والرجال، فيتعاون في العمل الاخ واخته، او الزوج وزوجته، واحياناً العائلة كلها.

هوذا العمل الحر الشريف — النول في البيت تُشغله ساعة تشاء وقدر ما تشاء من الوقت — ساعتين او عشر ساعات او عشرين ساعة في النهار. النول في البيت هو رمز الحرية في العمل. وهو فوق ذلك سياج الكرامة، ومصدر الرزق، والحافظ الاكبر للصحة والعافية. فان ساعات في النول تشغل يديك ورجليك هي خير الالعاب الرياضية.

كنت ترى النول في كل بيت من بيت شباب قبل الحرب العظمى. بل كان في كل بيت نولان اوثلاثة انوال. وكان الانتاج من النسيج الوطني يضاهي الانتاج، كميةً لا ثمناً، من الحرير. فيصدر التجار منه الى خارج الجبل وخارج سورية — الى مصر وقبرص والاناضول.

ثم نُكب النول في الحرب العظمى وبعدها، وكادت تضمحل صناعة الحياكة. طغت عليها الاقمشة الاوروبية المنسوجة على الانوال الميكانيكية. وطغت عليها الهجرة، فقد هاجر من اهل بيت شباب اكثر من ثلث سكانها. وقد طغى على النول كذلك فساد الاخلاق، فصارت النساء يترفعن عنه، ويتكلن على رجالهن بافريقية — على ازواجهن او اخوتهن وآبائهن — بكل ما يحتجن اليه من ملبوس ورزق، ومن ادوات الزينة والبهرجة.

ثم نُكب لبنان في عهد الانتداب الفرنسي بازمة اقتصادية شديدة، فصار الناس يبحثون عن (دفاتر اجدادهم) وقام من بيت شباب اناس يجددون صناعة النسيج الوطني، ويتفننون بها ليقبل عليها ابناء هذا الزمان. ولكن العمال قليلون. وليس في الضيعة اليوم وفي مزارعها ومزارع بكفيا مقدار

ما كان في الضيعة وحدها من الانوال منذ ثلاثين سنة. ولكن صوت النول قد عاد اليها والحمد لله، وسيعود اليها كذلك صوت فتاة النول، وهو ينسج لقلبها ثوباً من « المواليا ».

وهناك، بالرغم عن الهجرة، جهود تبذل في تجديد الصناعات الاخرى التي كادت تضمحل بعد الحرب. على ان النجّار والبنّاء والحداد والفخّاري كلهم او اكثرهم فتنوا بافريقية، تلك الساحرة السوداء، وراحوا يلبونها. واذا كان في الضيعة اليوم نجار او حداد او بنّاء فانه يعمل بهمة باردة، وبروح يعتريها السأم. ان افريقية تناديه.

ولا تغني عن افريقية حتى صناعة الاجراس، وفيها السر المكنون الذي يتوارثه آل نفاع اباً عن جد من قديم الزمان. فمن في لبنان، في سورية، يجيد صب الاجراس اجادة هؤلاء الشبابيين ؟ ومن يدرك السر في الاجادة ؟ ان الجرس لفي صوته. وان في الاصوات لسحرا. تشهد على ذلك اجراس الكنائس في جبل لبنان، وهي تختلف في اصواتها وتتنوع ما شاء الصانع وشاء فنه. فمن العريض البعيد الصدى الى الحاد واللّين والدقيق، وبين الطرفين الوان واطايب من التهدار والطنين.

صوت الاجراس عند الغروب، يدوي في قباب الاديرة على قمم الجبال، فيحمله النسيم وتجسمه اصداء الاودية، فيتموج ويتشّح في الفضاء، فيزداد جلجلة وشجوا. هو ينادينا كما نادى الاجداد. هو يبعث في النفس الخشوع والتقوى. هو يذكر بالماضي كقصيدة او انشودة. جرس الغروب، جرس الصلاة من اجل اولئك الذين سبقونا الى دار الخلود — من اجل الاموات. جرس الذكريات التي يتعانق فيها الحزن والسرور. جرس الآمال التي يرددها تهدار الحديد، وتضمخها الاودية بشذى الزنابق والرياحين. كل مرة اسمع جرس المساء يرسل صوته المهيب من قبة الدير القائم على رأس الجبل ببيت شباب اتصور اشياء من الذهب والحرير تُنظم تراتيل محزنة،

واشتمُّ روائح البخور في الفضاء. هو الخيال في الفن المسيحي على مائدة السماء، هو السحر في الحزن المسربل بالغسق....

هي ذي ضيعة الضيعات في بيت شباب. وهي كذلك تكاد تضمحل. يقول لك صانع الاجراس ان الطلب محدود، والارباح قليلة، وان تكاليف الحياة تعددت، وان، وان — وهذه افريقية تنادي، دوماً تنادي. واللبنانيون يلبون. لبيكِ، ايتها الساحرة السوداء، لبيكِ! الحياة والموت بيديكِ!...

ومعمل الحرير. هل جاءك نبأ الدودة التي تُغرس من اجلها بساتين التوت، وتُشيَّد الخصاص، تلك البذرة الغالية الكامن فيها خيط الحرير. بذرة قزٍّ ساكنة، فجرثومة متحركة، فدودة نهمة، تأكل من ورق التوت ليل نهار سبعة ايام متواصلة، ثم تصوم يوماً كاملاً، ثم تعيد الكرة على الاطباق الخضراء، وبعد صومات واكلات معدودة تصعد الى الشيح لتحوك الشرنقة حبساً لها من حرير، فيحين يوم القطاف، وما يصحبه من امل بموسم مبارك. وهذي هي الشرانق تنقل الى المعامل فتخنق في مخانقها ولية نعمة الانسان، ثم تنقل الشرانق المخنّقة فيها الديدان، الى اجران المعمل وفيها المياه الحامية، وراءها الحلّالات والحلالون يتناولون بأناملهم خيوطها الذهبية، فتُحَل، فتُلَفُّ على الدواليب، ثم يُرزم الحرير المحلول خُصَلاً، فبالاتٍ تشحن الى اورويه.

والحلّالون والحلاّلات. سمعتهم يرتلون الصلوات ساعة الغروب، وهم في عملهم بين الاجران والدواليب. ترفع جميلة الصوت منهم صوتها بطلبة العذراء: «كيرياليسون كريستياليسون. ياسلطانة العذارى، ياسلطانة الملائكة!» فيردد العمال خمسون او مئة منهم: «تضرعي لاجلنا.» فهل يخطر في بالك ان في هذا الزمان الصناعي الاقتصادي المادي، المضطرب المضطرم بحروب العمال وارباب المال، لا يزال من نسل آدم من يعملون راضين قانعين،

ناعمي البال، ويرتلون فوق ذلك اثناء العمل ؟ !

انها لظاهرة عجيبة، وقد كانت في لبنان من الظاهرات المألوفة العادية. وهناك حركة الموسم، موسم الشرانق، وما اكثر بركاتها. لقد كانت تشعر بها حتى قوافل البغال وهي تحمل احمالها الغالية، اكياس الشرانق، من شتى القرى الى شتى المعامل، فتتهادى في زينتها وبين قلادات الودع جلاجل تسمعك دوياً فيه البشرى، «جات الشرانق!» فيه الخير، فيه الجذل....

هي الضيعات الضائعة، تحل محلها البطالة والكسل والقنوط. هي المعامل المقفلة تعزيك بها الكنائس — في بيت شباب عشر منها — والاديرة للرهبان والراهبات. هي الثروة الذاهبة تندبها الجرائد — في بيت شباب جريدتان — والازياء الفرنجية — هي الكرامة الوطنية ترفل بالحرير النباتي — الاصطناعي — وتأكل خبزها مغموساً بعرق افريقية !

على ان هناك صناعة واحدة لا تزال قائمة وان كان قد قل انتاجها. فقد ابى حتى الفخاري نداء تلك الساحرة السوداء، ومن ثلاثين معملاً للفخار لم يبق غير بضعة معامل. منها معمل صديقي ورفيقي في المدرسة الحاج ابو يسوع. فقد قرأنا معاً كراسة الابجد والمزمور الاول من مزامير النبي داود. قرأناهما على الشدياق متى، تحت الجوزة في الساحة السفلى، يوم كان والدي مقيماً ببيت شباب، اي في العشر الثامن من القرن الماضي، وهو يدير احد معامل الحرير فيها. اظنك تذكر القول المأثور: من علمني حرفاً كنت له عبداً. اذن للشدياق متى رحمه الله عبيد كثيرون. وقد سبقت شهرته في هذه الناحية من الجبل شهرة معلمي الثاني نعوم مكرزل.

ترحمت على الشدياق متى. ولكن ابا يسوع لا يشاركني في هذا الترحم. فقد كان بعض التلاميذ يقولون يومئذ في معلمهم الشدياق: «ضاعت السبتيَّة فيه.» والسبتية، طالت ايامك، ارغفة من الخبز يحملها كل تلميذ يوم السبت الى المعلم متى. لقاء التعليم. والحاج ابو يسوع لا يزال يردد هذه

الكلمات : «ضاعت السبتية فيه.» ذلك لانه، على ما يرى، لم يكن موموقاً بنظره الاعلى. ما أذكى فيه شعلة النبوغ كما اذكاها في سواه — فيّ انا مثلاً. وكثيراً ما يقول مسائلاً: «ما السبب في الفرق بيني وبين امين؟ قد لقطنا الحرف معاً في مدرسة الشدياق متي. تحت الجوزة، امام كنيسة سيدة الجوزة. واين هو اليوم واين انا؟ هو الفيلسوف، وانا؟ ما انا؟ فاخوري يلعب بالتراب... انا اظن ان الشدياق اعطاك مفتاح العلم يا امين، وحرمني اياه. فهل تلومني اذا قلت: ضاعت السبتية فيه!»

على ان الحاج يسوع فيلسوف مطبوع. لا تسحره افوريقية، ولا تغره الدنيا. القناعة كنز لا يفنى — الصحة هي النعمة الكبرى — الاستغناء هو الغنى. هي الكلمات التي يرددها دائماً. وهو يستمع كذلك لكلمات الكاهن في ايام الاعياد والآحاد، فيحفظ منها ما يلتئم وفلسفته، وينبذ الباقي نبذاً هادئاً، ولا ادعاء ولا كبرياء. «الانسان من التراب، يا امين. والذي يشتغل بالتراب هو اقرب الى الله من الذي يشتغل بالحرير.»

هذا الفخّاري الحكيم، اللاعب بالطين، يعتقد كذلك ان الله خلق آدم من تربة بيت شباب، من هذا الصلصال الذي تصنع منه القوارير والخوابي. انه لمن الطف اللاعبين بالطين، كما انه اكثرهم فطنة وحكمة. ولكنه، مثل زملائه وابناء عمه جميعاً، لا يزال في صناعته حيث كان شالوم بن شولام في ايام رفقة زوجة اسحق بن ابراهيم أبِ الآباء عليهم السلام. وان اليد التي تكوّن الطين على الدولاب جفنةً «او قارورةً» لهي اليد التي لا تستعين بغير العين والذاكرة لتنقل الينا ما كان منذ خمسة الاف سنة منتهى الاتقان في الصناعة، وما يزال بعد خمسة الاف سنة في كرّاسة الابجد منها.

فان شئت ان تشاهد الفخّاري الذي صنع قوارير الزيت للشونمية في قديم الزمان، وتشاهده في عمله يمد الطين ويكوّنه بيدين كالتراب لوناً

وليناً، ويسيرّ الدولاب برجله الحافية الشبيهة بكتلة من الحوّارى — تراب بتراب ! — والى التراب تعود ! — فزر الفخّاري الفيلسوف بضيعة بيت شباب ·

48

في ظلال الجوز

دخلنا بيت شباب بسلام، وطفنا في معاملها و بيوت صناعاتها بسلام وامان، تخللها حادث غير جدير بالذكر لولا الاشارة الشيطانية فيه. فقد اجتمع حولنا زمرة من الاولاد، وسمع الاخ حنا احدهم يقول لرفيقه : « هذا اللي حرمه المطران » فهمس الكلمة في اذني وهو يستعجلني في الخروج من الضيعة .

ما خفي امرنا على اولئك الاولاد، وكاد لذلك يضطرب. فقد خشي الاخ حنا على روحي، بل خشي كذلك على روحه، اذ ان خبر فراره من الدير قد شاع، ومزق الاجماع. فلا عجب اذ خُيل اليه، كما أسرَّ بعدئذٍ اليَّ، انه سمعهم يقولون كذلك: « وهذا اللي، هرب من الدير » اثنان كافران، تجمع عليهما الصبيان — عجل يا خواجا امين .

ان من الواجب علي الان، وان عجّلنا، ان احيط القارىء علماً بخبر الحرم الاسقفي. لقد اشرت في الفصل الاول من الرحلة الاولى الى عقيدة الكاتب الدينية الشاذة، وما كان من تأثيرها في اهل الفريكة. فقد وقفوا حائرين تجاه بدعة فاقت ادراكهم، وكان من حسن تعقلهم انهم في تلك الحيرة آثروا الحياد على اظهار العداء او الولاء.

وقد كان كتابي « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » حديث العهد يومئذٍ، واثره عالقاً في انفس الناس، وكلهم او اكثرهم لا يقرأون. انما الاشاعات تعددت، وتجاوزت في انتشارها حدود الفريكة، فانبرى من احدى القرى المجاورة احد ذوي الغيرة على الدين يهيج جيرانه على الكافر. وقد الف المتهيجون لجنة دفاع عن الفضيلة والايمان، وراحوا يحتجون الى

اسقف الابرشية، ويطلبون مساعدته في استئصال شأفة الكفر من بينهم. الحرم، ياسيدنا، الحرم. لا يؤدبه غير الحرم! فأستجاب سيادته طلبتهم، وأصدر حرماً كبيراً رهيباً يمنع فيه امين بن فارس بن انطون الريحاني القاطن في الفريكة بابرشية قبرص «من قبول الاسرار الكنسية ومن شركة المؤمنين ومخالطتهم.» او بالحري يمنع المؤمنين من مخالطته.

وقد كنت في تلك الايام شديد التمسك بقواعد التنسك، أوثر الوحدة الكلية على مخالطة الناس، فجاء الحرم في وقته ومحله، فكتبت الى سيادة الاسقف اشكره عليه، والى اهل الفريكة احضهم على طاعة اسقفهم، فيعملون بما يوجبه الحرم عليهم، ويتركونني وشأني.

استمرت هذه الحال بضعة اشهر، والناس بين محبذ ومنكر، وطائع وساخر، فما نجم من الضرر ما يذكر، والحمدلله، لا على المحروم، ولا على جيرانه المؤمنين. على ان المحروم ظل موضوع احاديثهم ردحاً من الدهر، وغدا كالثور الاباق، يشار اليه بالبنان في القرى المجاورة للفريكة، وحتى في بيت شباب كما يبدو في الحادث الذي استوجب هذا البيان.

وبين نحن في تلك الحلقة من المتجمعين، وقد اقتدوا بنا في التسآل فأمطرونا وابلاً منه، سمعنا صوتاً كصوت جرس من اجراس بني نفاع ينتهر اولئك الصبية، ويشتتهم ذعراً ووجلا. ثم سلم صاحب الصوت علينا، وهو يعتذر عن فضولهم ويقول: شرفتم الضيعة. اهلاً وسهلاً بكم،

لقد كان لظهور سعيد الحائك في تلك الساعة وذلك المكان وقع جميل في نفسي ونفس الرفيق. اما تعليل الظهور، فهو كما علمنا ان سعيداً رآنا من شرفة بيته، فبادر الينا لينقذنا من صبية البلد، ويدعونا الى البيت للغداء.

وقد كان سعيد في تلك الايام ولا يزال في مقدمة الشبان المثقفين الاحرار. وهو اول من خاطر بروحه فاحتقر حدود ذلك الحرم واقتحمها، فزارني في الفريكة، لا معزياً كما قال، بل مهنئاً. هي جرأة تذكر في تلك



الايام. بل ان سعيداً الحائك في الجبل وقسطنطين يني في بيروت كانا الاثنين الاولين من الانصار بعيد عودتي من اميركة في صيف السنة الرابعة من القرن العشرين. اني اذكر لهما هذه المأثرة وتلك الجرأة على الدوام.

ولا بأس ونحن في الطريق الى بيت سعيد بان ازيد القارىء علماً به وان كان يكره الظهور. فان المروءة والحمية تغلبان المرء بما يريد، والحقيقة نفسها لا تحترم مشيئة الناس. اقول اذن ولا حرج ان سعيداً من اسرة لبنانية كريمة يكثر فيها الطموح وحب المغامرة. فقد كان عم سعيد الشيخ ابو اسكندر الحائك رحمه الله اول من مدّ ببصره وبغية قلبه الى ما وراء الافق البحري، الى الغرب، فهاجر الى مصر ثم الى انكلتره يحمل ما يحسنه من اللغة الانكليزية الى من يحتاج الى علمه من السياح.

ثم اقتدى به ابو سعيد فصار مثل اخيه رفيقاً لاولئك الانكليز والاميركيين الذين تشوقهم بلادنا، فيؤمونها سائحين، متنزهين ومستكشفين. فلا عجب اذا اقتفى سعيد اثر ابيه وعمه فراح يحمل مصباح الهداية في الاسفار في شرقنا العربي، فاشتهر في هذه المهنة، وكان الرفيق فيها للكثيرين من اهل الجاه والمال والعلم، فافاد واستفاد، وغدا بين اهله مقدماً عُرف بأصالة الرأي، والجرأة الادبية، وحرية الفكر والعمل.

وقد سافر سعيد مرتين الى الولايات المتحدة، فتعرف هناك الى صديقي — وصديق العرب والجياد العربية — الفنان المشهور هومر داڤنپورت. وقد سمع من غيره وهو هناك ما جعله يصدق كل ما قاله في من أحب، ثم قرأ كتيبي الاول « التساهل الديني » والثاني « المحالفة الثلاثية » وعاد بعد سنة يحمل الكُتيبَين في حقيبته، ومعهما الى مؤلفهما سلام الاحرار، من وراء البحار.

بل جاء وفي جراب علمه بذور جديدة للزارعين. فمن مزاياه الحميدة انه لا يريد ان يستأثر بفضل او نعمة، ويعزّ عليه ان يقال ان ابس في بيت شباب

من الشبان الاحرار سواه. إنَّ فيه شيئاً من نفسية الرسل الاطهار، يسارع الى نشر ما يدركه من علم، ولا ينفك يدعو لما يتيقنه من حقيقة او عقيدة.

ولا بد في مثل هذه الحال ان يكون من المزعجين، اي من اولئك المختارين، ذوي الغيرة والحماس، الذين لا يحسبون حساباً لما قد ينجم عن غيرتهم وحماسهم من الكروب لانفسهم ولاصدقائهم. فقد كان سعيد النصير الاول، كما قلت، الذي تجاسر ان يزور الفريكة بالرغم عن غضب الاكليروس على ناسكها. اما اليوم فالسعيدون كثيرون بفضله، ومع ان عددهم لا ينسيني السعيد الاول، فقد صرت اخشى من الازدياد على وحدتي، وصار الناسك يستغفر الله لصديقه الرسول.

اما وقد عرفتك اليه فيما هو بارز من مزاياه فلا يجوز ان اهمل واحدة منها. هو اخو اسفار. هو رفيق الكبار. هو في مقدمة الاحرار، وهو صديق الابرار. فيجب ان تعلم كذلك انه من اولئك الذين يرفعهم العرب الى اعلى منزلة من الفضل، اي انه من اهل الكرم والجود. على ان الكرم انواع، منه المكتسب، ومنه الموروث، ومنه الطبيعي. فصاحب الكرم المكتسب ينشد في كرمه الوجاهة والسيادة. وصاحب الكرم الموروث يرعى التقاليد في الكرم محافظةً على ارث مجيد او غير مجيد في بيته. اما الثالث فهو لا يرى في الكرم غير الكرم اولاً وآخراً. هوذا الكرم الطبيعي، وان فيه لصاحبه اللذة الكبرى.

ليس احب الى قلب سعيد من الضيافة، ويندر من هم اكرم منه فيها واعلم. قد يكون لمهنته الفضل في ذلك العلم، اما الباقي فمن فضل ربك. ولكن العلم وحده يدهشك، ويثير فيك الاعجاب به. ان صديقي كعربي صميم في اقامة المآدب، وانه لأمهر من عرفت في ارتجالها، اذا جاز التعبير، هو شاعرها. هو سيدها. هو مجنونها. ولا اظن ان اجنبياً يمر ببيت شباب

دون ان يعلم به سعيد الحائك ، فيقطع عليه الطريق ، ويفرض عليه الضيافة . . .

وصلنا الى البيت القائم في قلب الضيعة، عند سَنَدٍ من الجبل، في ظلال بواسق الجوز، وقد تخللتها المياه الفضية، الجارية من ينابيع الساحة العليا. على ان الطريق اليه، مثلها امام بابه، محفورة في أسناد الجبل، وقلما تتسع. تدخل من الجهة الشرقية والجبل وراءك قائم كسور الصين. اما من الجهة الغربية فالمشهد مترامي الاطراف جليل مهيب. هنالك من قرى بيت شباب الشاوية والقنيطرة والفريكة. وهنالك الى الشمال جبل كسروان بصخوره ونفانفه الهائلة، وبغاباته وقراه المطمئنة، وباديرته المستأثرة بالربى المحصنة بها. وهنالك دون الاديرة والغابات خط ازرق، او بالحري جدار ازرق متصل بالسماء — هو البحر كما يبدو من اعالي الجبال، وهنالك اشياء بيضاء شبيهة بالحمام هي اشرعة المراكب التي كانت قديماً سيدة البحر المتوسط .

كانت الساعة تدنو من الظهر عندما وصلنا الى البيت. وقد رحبت بنا نساؤه الفاضلات أُم سعيد وزوجته وامرأة عمه، وشرعن يُهيّئن « لقمة » للضيوف. وما اكثر المقدمات لتلك « اللقمة » ! فقد جاءتنا احدى السيدات بكؤوس من شراب التوت، ثم جاءت الخادمة بالقهوة والاراكيل، وبعد قليل دخل الخادم يحمل طبقاً كبيراً، مزيناً بالقناني، ومزدحماً بالمقبلات .

قد تظن ان المشروب والمقبلات في الضيافة اللبنانية حيلة يحتالون بها على الضيف فيشغلونه في الوقت الذي يقتضيه تحضير الطعام. ان في هذا الظن بعض الاثم او كله . فالمقبلات نفسها تدهشك بتعداد اشكالها والوانها، البسيطة والمركبة، المطبوخة والخضراء، المجلوبة من البحار ومما وراء البحار، ومن شتى البساتين والبلدان. فهنالك لحم الخنزير الاميركي، ومعجون الكبد الفرنسي، والسردين الطلياني، والجبن الهولندي. وهنالك الباذنجان المكبس الدمشقي، والفستق الحلبي، وحشيشة البحر البيروتية،

والقصبة النيئة الشبابيه، والكلاوي المشوية. وهناك البذورات، قوافي قصيدة المقبلات. ومعها من المشروب العرق والبيرا والوسكي والسودا. كأن لصاحبنا « جراب الكردي » المشهور في قصة من قصص الف ليلة وليلة. هات، يا خادم الجراب! لبيك، يا صاحب الجراب.

هوذا المضيف الذي يتبارى الذوق والكرم في ضيافته. ثم يدهشك الدهشة الكبرى، اذ يدعوك الى « اللقمة » — الى مائدة هي بنت ساعتها — بعد ساعة ونصف ساعة من وصولك.

هي الإدارة والحركة والاناقة التي تتصف بها النُزُل الكبيرة في المدن العظمى. وهو الكرم الذي يتصف به اللبناني الكريم. وهي السرعة في التحضير التي تمرن عليها مضيفنا في مهنته. مأدبة فاخرة يسحرهـا من عالم الغيب الى عالم الوجود خادمُ « جراب الكردي »، فاتحتها لحوم افرنجية ممزوجة بالبقولات اللبنانية، وخاتمتها ثمار الجبل، وبين الاثنتين فصول شائقة تتمثل فيها الالوان الوطنية التي تتقدمها الكبة النيئه، ويتلوها الدجاج المحمّر، والمحاشي على انواعها.

وقد شربنا من خمر لبنان المعتقة، التي تفوق الـ« شري » الاسبانية، والـ« پورت » الانكليزية، والـ« ديبونه » الفرنسية، تفوقها كلها بطيب المرار والشذى، وبنعومة الحد والصفاء. شربنا على ذكر اصدقائنا في الغرب، وفي مقدمة الاجانب منهم، ذلك الاميركي المحب للسوريين، هومَر داڤنپورت رحمه الله. وشربنا على ذكر اصدقائنا الوطنيين، وفي مقدمتهم ذلك الشبابي الكريم، اول من هاجر من بيت شباب الى فرنسه، واصبح نقيب التجار في باريس، ذلك التاجر الاديب، والعربي اللبناني الصميم، عباس البجاني رحمه الله رحمة واسعة.

وكنت ارى سعيداً يخص بالاكرام الاخ حنا عندما علم انه فرَّ هارباً من الدير، وانه قريباً يخلع الثوب الاسود ويهجر الجبل كما هجر الرهابين.

هو الذي جهر بذلك، بعد ان افرغ الكأس الثانية من الخمر .
« سنسافر الى اميريكة ان شاء الله » قالها بهذه اللغة الفصحى وسكت.
انه لقليل الكلام، وخصوصاً عند الطعام، فلا يجمع بين العملين الا كل
والحديث. بيد انه في الاول أمهر منه في الثاني. كيف لا، وهو يهجم على
السماط هجمات الابطال. يدير خبزته في صحن الكبة فيزول نصفه بلحظة
عين، ويتناول الدجاجة بكلتا يديه فيذهب بالفخذين، وانت تستشهد
الملكين، ويلتهم محشي الكوسى المحشاية تلو المحشاية كأنها حبات من
الزيتون! لله درّ الاخ حنا، القاهر الخوان، المذلّ الجفان.

حاول سعيد ان يملأ له الكأس الثالثة من الخمر، فحلت دون ذلك،
فجمجم صدى اعتراضي، وفي صدره رغبة كامنة. فقد كان يظن اننا
سنقضي النهار والليل عند صاحبنا، فأخطأ الظن. وهل يجوز، بعد هذه
المأدبة، ان تلقي على مضيفك اثقال اختها؟ او ان تخجله فتحمله على
الاعتذار ساعة العشاء؟ مع اني كنت متيقناً انه يستطيع ان يفوق خيره
خيراً وابداعه ابداعاً بعد ست ساعات اخرى فقد احجمت، واستأذنت
بالرحيل.

وكانت ضجة اسف صادقة، لا احاول ان اصفها، اشترك فيها صاحب
البيت وخواتينه الكريمات. فذكروني في العزيمة والالحاف، وفي
استحلافهم اياي باني اعود لاقضي عندهم بضعة ايام، ذكروني باصدقائي
الكسروانيين. فوعدت وودعت. بل وعدت لِيُؤْذَنَ لنا بالوداع.

وما رضي سعيد بوداع واحد في بيته، فرافقنا، أسند معنا الى رأس
الضيعة، فوقفنا هناك مودعين الوداع الاخير.

سطوح الجبال

ان للجبال في تكوينها انواعاً من العظمة والجمال لا يدركها المرء وهو بوسطها او بالقرب منها. فهي لا تبدو بشتى اشكالها، وبما يرمز الى حالها، الا من المشارف العالية، او من المواقف الكشافة، النائية نأياً متوسطاً لا يحول دون مَدِّ البصر ولا يزيد عليه. فالقرب يشوّهها، والبعد يموّهها، فتبدو كالاطلال حيناً، وحيناً كالظلال. اما اذا اشرفتَ عليها، او نظرتَ من المكان الكشاف اليها، فانك لتراها مجموعةً متقطعةً، متموجةً متسلسلةً، هاويةً شامخةً، مرّحبةً متجهّمةً، مطمئنةً منذرةً. هاكها تحت قدميك فاغرةً فاها، هاكها امام ناظريك ناشرةً بهاها، هاكه الطريق المباح، لذوي الاجنحة والرياح—

وللمتطاولين عليهم. فها نحن في رأس الجبل المتمدد على صدره بيتُ شباب. وهذه القرى المنتثرة في ناحيتها الغربية هي من الوجهة الاجتماعية صغيرة حقيرة. ينظر اليها ابناء الضيعة من أسنادهم ومنحدراتهم نظرة الواقف على القنة الى المقيم في سفح الجبل، او في وادٍ من اوديته، او بين اضلعه وروابيه، هي محتقرة مستضعفة، واهلها فلاحون مزارعون.

اما المشهد الطبيعي، المنفصل عن الحالة الاجتماعية، فهو من اعالي بيت شباب مشهد رائع في تنوع اشكاله، القائمة في اوديته، المتسلسلة في روابيه، المحصنة بين اضلعه، الحافلة بالدساكر والقرى. وما اجملها في هذا الموقف، تلك القرى المغمورة بشمس الهجير، فتبدو بقرميدها الاحمر خلال البساتين والغابات كجُزُرٍ من المرجان في بحورٍ من الزمرد واللازورد.

ودعناها من المكان الذي هو الافق الشرقي للناظر اليه منها، المكان

52

الذي تشرّفه شمس الصباح بَنبسمها ، وبوطء قدمها . وولينا الوجه شطر المشرق، فاذا هناك، فوق الرواسي العديدة سيدها الاكبر صنين . جبل صنين، احد جبابرة السلسلة اللبنانية، قد تعودت ان اشاهده في اوج مجده، وفي سائر عظمته، من الفريكة، فرابني بل خيّبني عندما شاهدته للمرة الاولى من مكان اعلى من الفريكة واقرب اليه .

وهل يتجلى بكليته ، بمهابته وجلاله ، باشراقه وظلاله، بشموخه واستثاره، وبما يطأطىء الرأس عند قدميه من الآكام والربى، وبما يمثل بين يديه من الاودية والانجاد، هل يتجلى صنين بمجموع عظمته وجماله من غير الجهة البحرية، من احدى الآكام الغربية ؟ فلو نظرت اليه من سهل البقاع مثلًا لما رأيت غير نصفه الاعلى، وَلَضاعت نوافل مجده كلها . ولو وقفت عند نبعهِ ورفعت اليه البصر لبدا لك مقطوعاً مبتوراً،جافاً جافياً، لا تدمّثه شمس الفجر، ولا تؤثر به شمس الغروب .

صنين ساعة الغروب ! هل شاهدته مرةً يتجلبب بالالوان التي تنسجها له الشمس الغاربة على منوال الغيوم البحرية ؟ هاكه في جلباب فضي . هاكه في ثوب ارجواني . هاكه في قميص من نسج الورد والزعفران . هاكه في جبة الغسق البحران . وهل شاهدته ساعة الفجر، ساعة تطل الشمس من وراء عوشة فترسل اشعتها الناعمة على الحقول والآكام، وفوق الاودية الماثلة بين يديه، فتستخرج من مشبّحاتها حقائق الفن في الحياة ؟ ساعة الشروق تستيقظ رغبة صنين، وتلبس على مهل ثيابها، فهي اذ ذاك بهجة للناظرين . فالغابات المنتشرة بين الربى تغدو خضراء، والآكام القائمة دونها دكناء، والبطاح الرملية صفراء،والاودية السحيقة سحماء، والحقول المفلوحة المزروعة بنية حمراء . وبينها اديرة عامرة في وحدتها، تفرش قرميد سطوحها لنور الفجر، فيلمع فيه الذهب، وترفع زجاج نوافذها لنور المغيب، فيبرق فيه الماس .

اما الشموس في رائعة النهار فان وهج الاشعة العمودية يذهب بالالوان الا الاسحم منها في الغابات، والادكن المخطط بالخطوط الصهباء — أثر الحديد — في الآكام الصخرية. وهناك في التلوين عوامل جوية اخرى غير ما يكون منها في ساعتي الشروق والغروب. فالضباب الشفاف بعد المطر مثلاً يتخلل النور والظلال، فتتميز الالوان بعضها عن بعض، فيبدو أثر الحديد في الصخور أشد احمرارا، وتغدو خضرة الحقول اصفى اخضرارا، وتبرز حروف الآكام جلية، فتشعر بما يفصل بعضها عن بعض من الوهاد، وهي في كل حال، سحيقة قصية خفية.

ليس للجبال حدود مسنَّمة كما يظهر في الآفاق. بل ان الارض لتنفرج وراء كل افق وتتسع. وان لكل جبل مدارج من السفح الى القنة، وسطحاً دونها فسيحا. وهناك للجبل الواحد سطحان وثلاثة سطوح قائم بعضها فوق بعض.

اننا الان سائرون على سطح جبل بيت شباب الممتدّ شرقاً من بكفيا الى بتغرين. وهو يتراوح في علوه عن سطح البحر بين التسعمئة والالف متر. اي ان في مستواه صعوداً خفيفاً من الغرب الى الشرق — من بكفيا الى بتغرين — لا يتجاوز المئة متر. اما في الجهة الشمالية فهو يتهدم فيتقطع وهاداً واودية، فتتكون فيها الاضلع والآكام، وهي تنحدر كلها هادئة حيناً، وحيناً مضطربة، بفعل العناصر العادية او الزلازل، حتى نهر الصليب.

ولكن في الجهة الجنوبية أسناداً تصل بك مدارجها الى سطح آخر من هذا الجبل، مستواه مئتان وخمسون متراً اعلى من مستوى السطح السائرين الان عليه. فمن ضهور الشوير (١٢٠٠ متر) الى المروج (١٢٢٠ متراً) الى المتن، (١٢٠٠ متر) ثم يستمر الإسناد الى عينطورة (١٣٥٠ متراً) والى ما فوقها من الصرود التي تتصل بالقنن العليا المشرفة على سهل البقاع.

ان شكل الجبل اذن هو على الاجمال مدرَّج، الا ان الدرجة منه قطعة من الارض واسعة، وآخره مسطح لا مسنَّم. زد على ذلك ان الدرجات متهدمة هائرة. والاصح ان يقال انها تهدمت منذ مئات الالوف من السنين وثبتت في هذا الشكل المتهدم، الذي يتخلل وهادَه، ويلصق بثناياه العمران! فالانسان وهو ينشد مكاناً يقطن فيه يختار اولاً ما كان قريباً من المياه، ثم ما كان خصب التربة قليل الوعور. هذا على الاجمال.

على ان اجدادنا اللبنانيين الاقدمين كانوا يفضلون الاماكن الوعرة، على ما يظهر، النائية عن الطريق العام، لا اتقاء اللصوص فقط، بل خلاصاً مما كان في ذلك الزمان أشر الشرور، اي من التسخير – الاستعباد – المدني، او الاضطهاد الديني.

بكفيا – بيت الصخرة، كما يقول العالمون بالاصول السريانية، فهل يعلم احد اولئك المتضلعين من علوم الاقدمين وآثارهم كيف ابتُنيت بكفيا. ومن ذا الذي وضع الحجر الاول في البيت الاول منها؟ اني اتمثل ذلك الكلداني المتكلّد الذي فرّ هارباً من تسخير ملك جبيل، او من اضطهاد كهان البعل، وبنى له كوخاً في ظل هذه الصخرة، على رفٍّ من رفاف هذا الجبل، وأسماه بكفيا.

وقد يكون لصاً شريداً، او مجرماً طريداً. ذلك الادمي الدوسري الذي توقل هذا الجبل الى سطحه فاختار زاوية من احدى زواياه أوى الى كهف فيها، وأسماه وادي شاهين مثلاً او باسم حرفته ابو ميزان.

بعد ان تخرج من بكفيا، قرة عين المصطافين، ينحدر سطح الجبل الى الشمال انحداراً هادئاً، فيتسع ويتقطع حقولا وآكاماً، تطمئن اليها المزارع التابعة لبكفيا. فتعمر وتزدهر كوادي شاهين وعين الخروبة والمياسة وحلايا تحت شوايه – وابو ميزان تحتها وفيها «شركاء» دير مار الياس شوايه للروم – وتحت ابو ميزان في قعر الوادي دير شمرا وهي مزرعة

مار الياس شوايه للموارنة. وهناك اراض اخرى مزروعة هي ملك دير مار انطونيوس (بيت شباب) وغيرها لدير مار نوهرا القائم في الحرج بين بيت‌شباب وبكفيا. كل ما هو مزروع من سطح الجبل الى النهر هو للاديرة!

كادت الاديرة واملاكها تنسينا الطريق. فهناك الجبل الى الجنوب — الى عيننا — في أسنادٍ مستمر، فنجتاز — ولا نرى — ضهور الشوير فوقنا، ثم المروج، وبين القريتين غابة من الصنوبر جليلة ظليلة، امست بعدئذ محط رحال المتأنقين من المصطافين، فصارت تدعى بالافرنجية « بواده بولون. » واننا نثأر للعربية من الذين اسموها بهذا الاسم فنعربه ونختصره فنقول: حرج بولان.

وهذه شوايه الى يسارنا، وهذا، الى اليمين على تلك الرابية، الدير المزدوج المعد للصالحين من رهابين الموارنة والروم. هو دير النبي ايلياس الماروني، وهو دير النبي ايلياس الارثوذوكسي. والديران متحاذيان، غير متخازيين. الا ان الماروني منهما، وهو وقف المطران فيلبس الجميّل الذي استوطن جده شوايه في اوائل القرن الثامن عشر، أثار حرباً بين الرهبان وسيادة الاسقف، اختلطت فيها المطامع الرهبانية — الحلبية واللبنانية — فتدخل البطاركة في الامر وانقذوا الدير من براثن الاطماع والاحقاد، فصفت الهبة للنبي ايلياس الماروني المجاور لاخيه النبي ايلياس الارثوذوكسي. وفي الديرين اليوم سلام، والحمدلله — وخمر معتقة.

قال احد السياح الانكليز، الذي زار لبنان في اوائل القرن التاسع عشر، ان الاديرة ترحب بالطارئين وتضيفهم « وتقدم لهم، بكروم شرقي، من جيد الخمور اللبنانية . » لذلك كان يفضل ضيافة الاديرة على سواها. ولكن ذلك الانكليزي لم يكن محروماً مثل هذا الكاتب « من مخالطة المؤمنين » قد كان في النية، مع ذلك، ان ازور دير الايلياسين النبيين عليهما السلام، وابيت فيه، لولا رفيقي الاخ حنا الهارب من الاديرة . فسُنّة السفر

تقضي بألّا تعرّض رفيقك لشرور الزمان، او لكيد الرهبان.

لذلك استمررنا سائرين، فوصلنا الى الخنشارة القائمة في ارض يكثر فيها معدن الحديد. وقد استثمره في القرن الماضي ابراهيم باشا عندما كان محتلًا هذه البلاد. هذا ما يقوله شيوخ القرية، ويزيدون عليه ان اثر المناجم والمسابك لا يزال بادياً للعيان. ما عاينّا ذلك الاثر، ولا كذبنا الخبر.

على ان في الخنشارة ما يدل عليها من الآثار الحية الطيبة. فما لا ريب فيه ان لهذه القرية فضلًا على طرق جبل لبنان، وان للخزنة اللبنانية فضلًا على اسرة سماحة المشهورة ببنّائيها ومهندسيها. هذا في ايامنا السعيدة. اما في الزمن الماضي الاسعد فقد نبغ في الخنشارة عدد غامر من رجال الدين وفيهم الايكونومسة والمطارين من ابرار بيتَي الكفوري والرياشي، الذين خدموا ربهم بقدر ما فقهوا من اغراضه، وادركوا من الوهيته. فأين منهم مَن هم مِن مشاهير هذا الزمان؟

كدت انسى، ولا غفران لو نسيت، من قام في هذا الزمان من آل كفوري يقتفون اثر اجدادهم الصالحين، في خدمة رب العالمين، ويزيدون عليها خدمة اخوانهم بني آدم في هذه الدنيا قبل الاخرة. ولا شك عندي ان روح اولئك الايكونومسة والمطارين تنظر اليوم بعين الرضى عن المكملين لهم، المقدسين لسرهم، من انسبائهم العصريين، وفي مقدمتهم الخوري بولس الكفوري رحمه الله، والاستاذ جورج الكفوري امد الله بايامه.

على ان شهرة الاثنين الكفوريين هي كالحبة اذا قيست بتلك القبة الحمراء لشهرة ذلك الرياشي « التائه » الاستاذ اسكندر، المعلم الاكبر، للفن الاشهر، الممجد الغرام، بين الانام، المشعل للسرور مصابيح في هذه الفانية، الرافع علم المسيح للمومس والزانية. فان شهرة اسكندر شهرة دوسرية اذا نفخت شهرة من تقدمه من ابرار اسرته واسرة كفوري نفخةً واحدة

جعلتها هباء منثورا.

قرأنا السلام على الرياشي والكفوري، وعلى بني سماحة وواصلنا السير الى بتغرين، فادركنا « خواجها » – تخومها – بعيد الغروب .

حكيم بتغرين

سألت الاخ حنا، قبل ان دخلنا القرية: اي بيت نطرق للمبيت.
فاجابني مستفهماً: وهلا تعرف احداً في بتغرين ؟
فقلت معترضاً: وهل تظن ان لي في كل قرية من قرى لبنان صديقاً مضيافاً كمن لقينا في بيت شباب ؟
فقال مستنكراً: وهل تنزل ضيفاً على الغريب ؟
فقلت ماضياً في الاستفهام والاعتراض: وهل اخشى ان أُرَدَّ خائباً وانت معي ؟
— « ارجوك، يا معلمي، ألّا تتهكم علي. »
— انت تخشى ان نعامل كشحاذين الكلدان. وما ضرنا اذا نمنا في الفلاة، او في تنور ؟
— « انا اعتدت المشقات. ولكني اخشى عليك منها. وقد اوصتني الوالدة بك. »
— اذن، جاوب على سؤالي الاول: اي بيت نطرق للمبيت ؟
— « ما لنا غير بيت الشيخ، شيخ القرية. »
— أتريد ان تقول: عصفور باليد ولا عشرة بالشجرة. انت ثعلب في ثوب راهب. سنتعدى بتغرين، ونظل ماشيين الى بسكنتا.
— « الى بسكنتا ؟ أنقطع وادي الجماجم في الليل ؟ ! »
— وما المانع ؟
— « لا تؤاخذني، يا معلمي، هذا جنون منك. »
— وهل تأبى ان تجن مثلي ؟ اذن، عُد الى البيت. انا ماشٍ الليلة الى

يسكنتا.

قلت هذا بشيء من الغضب، وخلأنته. فلحق بي مسرعاً، وهو يقسم بالله، ويسب الشيطان.

فقلت: وما معنى القسم والسب، يا «خي» هنا؟

فاستوقفني وهو ينهج ويقول: والله، يامعلمي...

— والله — وبعد والله ماذا؟

— انا لا اخشى ان انام في الفلاة، ولا اخشى ان امشي في الليل. ولكني اخشى عليك. ووادي الجماجم وادٍ هائل مخيف.»

—ومم الخوف؟ ان كان في الوادي وحوش ضارية، فالقديس فرنسيس شفيعنا لديها. القديس فرنسيس الاسيسي هو قديسي الاطهر، وهو العاقد والذئاب معاهدات ولاء ووفاء. وان كان في وادي الجماجم قطاع طرق، فهم هناك يسلبون المسافرين اموالهم. فماذا يسلبوننا ونحن لا نحمل ذهباً ولا فضة.

— «كلامك على الرأس والعين يا معلمي. ولكني لا اخفي عليك...»

— قل. افصح عما بك.

— «المشي، لا في النهار ولا في الليل، يتعبني. ولكنه يؤثر بمعدتي التأثير المفجع.»

— وهل انت جائع؟ امأدبة منذ ساعتين وانت الآن جوعان؟

— «المشي يعجل بالهضم، يا معلمي، ويهيج الشهوة للاكل.»

— انت تفكر اذن بعشائك.

— «بعشائنا، يا معلمي.»

— ثعلب انت في ثوب الرهبان. ستنام الليلة بلا عشاء.

— «كما تريد — كما تريد.»

وكنا قد دنونا من البيت الاول في بتغرين، فخفضت الصوت، واطفت

اللهجة، فقلت مطمئناً الرفيق: سيكون لك ما تشاء. قل ان شاء الله.
— «ان شاء الله.»
— وتحقيقاً للامل سنختار المبيت على خيرة الله. قل: على خيرة الله.
— «على خيرة الله.»
— سنعد اذن اثني عشر بيتاً، ونطرق، بعد التوكل على الله، باب البيت الثالث عشر.
— «اتختار العدد ١٣؟ سمعتك مرةً تقول ان الناس باميريكة يتشاءمون به.»
— وهل نحن الآن باميريكة؟ وهل من شؤم او سوء مع توكل على الله. توكل على الله يا «خي» هنا.
— «توكلت عليه عندما دخلت الدير، يا معلمي.»
— فأنقذك، سبحانه وتعالى، من الدير.
— «صحيح، صحيح. توكلت على الله، توكلت عليه تعالى.»
— وهوذا البيت الاول من بيوت بتغرين، عدّ، ولا تخطأ في العد.

سرنا بين بساتين من التوت، نعد البيوت، بصوت فصّاح سمعه الواقفون في ابواب الدكاكين فتهامسوا، وسمعه الصبيان في الطريق فقهقهوا، كأنهم يقولون: بالغريبين مس من الجنون.

وها نحن امام البيت الثالث عشر المحاذي للطريق. هو بيت وضيع، يقوم امامه، ملاصقاً للحائط، بعض اشجار الازدخت. وقد كان الباب مفتوحاً، وصاحب البيت واقفاً هناك، فسلمنا عليه باللغة اللبنانية: «غسيكم بالخير.» فرد السلام بمثله: اسعد الله مساءكم. تفضلوا. تفضلوا.

فتفضلنا. او بالحري وقفنا مستبشرين، فأثلث قائلاً: تفضلوا، واردفها بـ «شرفوا».

دخلنا البيت مطمئنين، فاذا نحن في دار منه صغيرة، مرصوفة بالبلاط البلدي، والى جانبيها ديوانان متقابلان عربيان بمساندهما وقماشهما الشامي

المخطط، ومقصورهما المخرّج الاطراف، الناصع البياض.

جلسنا على الديوان، وكان المألوف من السلام. ثم انتقل صاحب البيت الى الفصل الثاني من الحديث فسألنا: من اين حضرتكم.

قلت: من الفريكة. انا امين بن فارس الريحاني، وحضرته الاخ حنا ابن جرجس بن بطرس الملاح.

وقد سرني ان يكون للاسمين وقع واحد في نفسه. سرني ان شهرة «الكافر» لم تصل الى بتغرين.

ثم سألنا عن بعض من يعرفهم في الفريكة وجوارها، ففتح للاخ حنا باباً للحديث.

وكان قد أوعز الى امرأته بتقديم القهوة، فجاءت خلال الحديث بها. وبعد ان شربناها ودعونا بدوامها، سألنا صاحبُ البيت السؤال الثالث: وهل جئتم تستشيرون الطبيب؟

الطبيب! كنت قد سمعت بحكيم بتغرين، الذائع الصيت ليس في قضاء المتن فقط، بل في كل اقضية لبنان، فيقول الناس، ان كان في كسروان او في الشوف. حكيم بتغرين، وكفى. ومنهم من كانوا يعرفونه باسمه الاول فيقولون: حبيب البتغريني.

ما كان حبيب من الاطباء الرسميين، الحاملين الشهادات الفخمة، المكتوبة باللغتين العربية والتركية في ذلك الزمان. ولا كان من الدجالين، ابناء عم المغاربة، الذين يداوون جميع الامراض بالاعشاب وبالقراءة في كتب السحر والتنجيم.

بل كان طبيباً قليل العلم بما في الكتب[1] كثيره بالخبرة والتجربة.

---

(١) من الكلمات العربية المأثورة: من اخذ النحو عن الكتب لحن في الكلام، ومن اخذ الفقه عن الكتب افسد في الاحكام، ومن اخذ الطب عن الكتب قتل الانام.

وقد اشتهر خصوصاً بالجراحة والتجبير، فكان يجيئه المعلولون من اقاصي الجبل، فينزلهم في بيته الذي كان شبه مستشفى، ويحسن معاملتهم ان لم يحسن المعالجة. فمن اخلاقه الطيبة انه كان كريماً متواضعاً، وما كان يطمع بالمال.

اجل كان، رحمه الله، من الطراز القديم المبارك، من سلالة اولئك المحسنين الى الناس بما عملوا وان قل علمهم. ولا اظن ان اغلاطهم في المداواة كانت اكثر من اغلاط اطباء هذا الزمان الرسميين، او ان ضحايا جهلهم، او تدجيل بعضهم، كانت اوفر مما هي في المستشفيات الحديثة — ومما هو مؤكد محقق ان اولئك الاطباء، المتخرجين من مدرسة التجارب والزمان، كانوا مشهورين ببرهم، فكان اشدهم حباً للمال يداوي المرضى مجاناً اكثر من النطاسي الشفيق الكريم في هذا الزمان تباركت تلك الاخلاق العالية، وتبارك العلم الذي لا يفسدها.

ومما هو جدير بالذكر والاعتبار — ما زلنا في الموضوع — ان الامراض في زماننا هي على الاجمال سريعة في مجراها، مثل غيرها من مظاهر الحياة. نعم، هي سريعة الفتك والقضاء — على الاجمال. وما كانت الابهة صفة ملازمة للمهنة كما هي اليوم.

في ذلك الزمان زمان، البتغريني حبيب واسلافه الصالحين، كان يجيء من قبل المريض احد اهله او اصدقائه، ومعه بغلة بسجادة فوق جِلالها لحضرة الحكيم فيركب حضرته، وتسير البغلة سيرَ الخالي البال المتنزه، ويسير الرسول ماشياً على هواها، وراءها او قدامها. وكان يستمر السفر يوماً او يومين او ثلاثة ايام في بعض الاحايين، فيصل الحكيم الى بيت المريض، فيجده هناك، منتظراً نعمة الشفاء والعافية. حتى وان تكررت العيادة الطويلة السفر، الكثيرة المشقات، فالمريض لا يخيب امل الحكيم اذا شفي او مات فعلى مهل في الحالين، على مهل.

اما اليوم فالمريض في بسكنتا مثلاً يطلب النطاسي الشهير في بيروت، فيركب هذا سيارته الكبيرة الفخمة، ويعطيها البنزين بكرم اميريكي، فيصل الى تلك الضيعة في سفح جبل صنين بعد ساعة ونصف ساعة، فيلقى المريض في حالة يهز لها رأسه، او يلقاه وقد لفظ النفس الاخير او كاد، فيقبض اجرته نقداً ذهباً، ويعود الى المدينة باسرع مما جاء منها. ولا يهمه ان العجلة من الشيطان، وان عزرائيل هو ابن عمه.

اما في قديم الزمان، وفي زمان حبيب البتغريني، فقد كان الحكيم يركب البغلة او الاتان، ويقول للشيطان: لا تستعجلني، ولا تطمع برجائي. فاني طبيب مؤمن بالله وبرسله، وبقديسيه واوليائه جميعاً، وما انت الا شيطان. فاذا كنت المبشر بـ« مُشَمِّر الاردان »[1] فامسح العرق من جبينك، واجلس هنيهة فنستريح ونريح البغلة. ومتى وصلنا يخيب مسعاك ان شاء الله، ولا يخيب املي.

وهكذا الحكيم حبيب في بيته مثله في عيادته، لا يعجل ولا يستعجل. قال لنا ثلاثاً: تفضلوا. ثم قال: شرفوا. ثم سلم سلاماً لبنانياً فسأل عن حالنا وعن الاصحاب في القرية، وقدم خلال ذلك القهوة، فشربناها ونحن ننفخ فيها لنبرِّدَ حرارتها — والاخ حنا يصوِّت في النفخ والشرب صوت صفير البلبل — كل ذلك على مهل، على مهل، الى ان حان وقت العمل فسألنا: هل جئتم تستشيرون الطبيب ؟

وما ذهب شيء من رخيم صوته، او لطف ابتسامته، عندما اجبته قائلاً: اننا والحمد لله بخير. ولكننا على سفر، ولا بد من مبيت. ورفيقي يشكو الجوع.

فقال الحكيم هاشا باشا: اهلاً وسهلاً ومرحبا. وكررها. ثم نهض

---

(1) « يمشي وعزرائيل من خلفه مشمِّر الأردان للقبض »



ينادي السيدة زوجته، وهو يعتذر الينا عما قد يكون من تقصير: نحن نبكر في العشاء، فقد سبقناكم. ولكن المثل يقول: خير الجود الموجود.

وبعد قليل دعتنا السيدة الى السماط، وفي وسطه من عشاء البيت البطاطة باللحم والارز، وحولها الزيادة — نعمة كريم — تتقدمها بيضات مقلية بالدهن معها بصلات بيضاء كبيرات مدورات، وتحف بها سلطة البندورة وصحاف من الجبن والزيتون، وجفنة كبيرة من التين المطبوخ، وَوَفرة من الخبز الرقيق.

انطح الزاد يا «خي» حنا.

رسم الاخ حنا شارة الصليب على وجهه، ومد يده الى بصلة من البصلات، فقطع رأسها باسنانه، ووضعها على الارض فضربها بمجموعة يده، فسال منها العصير، فسال له لعابه. ولا تظنه اكتفى بالبيضات والبصلات. يكفي ان اقول انه، بعد اربع ساعات من تلك المأدبة الفاخرة في بيت شباب، فتك بسماط الحكيم حبيب فتكاً ذريعاً. وبعد ان «حلى ضرسه» بلقمات عظيمات من التين المطبوخ، وتلمظ شاكراً حامداً، رسم شارة الصليب ثانية على وجهه، ونهض والعافية ملء جبته.

ومع العافية السلامة، والرغبة في دوامها. الا انه ارتاب على ما يظهر في دوامها اذا استمر مرافقاً لي في هذه الرحلة. فقد سمعته، قبل ان دخلنا غرفة النوم، يسأل الحكيم عن وادي الجماجم، ورأيته يهز بجمجمته.

وفي صباح اليوم التالي ناديت، عندما افقت، الاخ حنا، فلم يجبني. انهض يا «خي» حنا. سبقتنا الشمس يا «خي» حنا. لا جواب، ولا صوت شخير او صفير. قد يكون سبقني الى الدار. اخطأت الظن. قد يكون منتظراً خارج البيت. أسرفت في الامل.

ثم سألت الحكيم: اين الاخ حنا؟ ولكن الحكيم لا يدري ولا المنجم يدري. على ان زوجة الحكيم قالت انها سمعت الباب يُفتح باكراً،

فنظرت من الشباك، فرأت الراهب في الطريق، وهو يمشي مسرعاً صوب الخنشارة !

حاشية : قد يسأل القارىء عن مصير الاخ حنا بعد ذلك، فاني مقصر الجواب، اذ لست الان مؤلف رواية لا تتبع سيرة روجهي الحميدة. جل ما اعلمه انه عاد الى الفريكة، وخلع بعدئذ عذاره الاسود — ثوب الراهب — واعتذاره لابس الخلاعة، ثم سافر « مسرورا بخلعه وخلعته » — العفو يا سيدي الفارض (١)— الى اميريكة.

حاشية اخرى : كان حبيب البتغريني الحكيم الوحيد يومئذ في بتغرين. وهو اليوم السلف الصالح لرهط من الاطباء الرسميين، من أُسر صليبا والمر وصوايا، الحاملين الشهادات المزينة بالختوم الذهبية، — المفترَض صلاحهم. وهناك رهط اخر من اسياد هذه الاسر الثلاث الحاملين اللقب الجزل الجليل «ايكونوموس» واكثرهم اصبحوا من المجاورين لربهم. اما اذا كانوا من غير المجاورين، لا سمح الله، فالثلاثة النوابغ البتغريون الاصل او المولد، متري المر الموسيقي ودعيبس المر المحامي ايلياس المر المهندس، يتشفعون بايكونومسة بلدهم واطبائها ان شاء الله

(١) « خلعت عذاري واعتذاري لابس الخلاعة مسرورا بخلعي وخلعتي » الفارض

وادي الجماجم

كانت الشمس الشارقة تبعد عن قنة صنين السحماء بعداً يربو على الالف ميل في الحساب الفلكي، ولا يتجاوز الميلين فيما يتراءى للاديب او البقال. والاصح ان يقال كان قد دار شرقاً نحو الف ميل من الكرة الارضية، بعد ان بزغت الشمس من وراء صنين، احدى الرواسي البارزة في السلسلة التي تدعى جبل لبنان — لله من التدقيقات العلمية ! كلما دققت توغلت في الخطأ. فالاديب العربي يقول في الشمس وارضها في مثل هذه الساعة من النهار: تكبدت الشمس السماء، ولا يبالي ان كانت كُبَيْداء السماء فوق لبنان، او فيما وراء الدَّبَرات.

وحسبي انا ان اقول انها كانت هنالك، شمس ذلك النهار من ايلول — هنالك في مطلع مجدها الارضي المسمّى في القاموس الضحى، تغمر الاودية والجبال، والقرى والكروم، ببريق نورها وحرارته، عندما وقفت اودع مضيفيَّ الكريمين، فارتفع صوت الحكيم وصوت زوجته بالنفس الواحد، واللهجة الواحدة، ان لا يجوز ذلك ولا يليق. فيجب ان اقيم عندهم يومين او ثلاثة ايام. فشكرتهما واصررت على الوداع، فقال الحكيم ان اجتيازي وادي الجماجم وحدي مغامرة لا تخلو من خطر. فما عدلت عن قصدي. وقالت سيدة البيت ان المسافة بعيدة، وقد لا اصل الى بسكنتا حتى الغروب، واني قبل ان ابلغ حرج الصنوبر (في الجبل المقابل لِبتغرين) احس بالجوع. قالت هذا واستمهلتني ثم عادت تحمل رزمةً صغيرةً ملفوفةً بجرنال، مربوطةً بخيط من المِصِّيص، وهي تقول: لا تؤاخذنا. غض النظر.

حملت الرزمة الصغيرة في حجنة عصاي على كتفي، والرزمة الاخرى الكبيرة، — رزمة اللطف والكرم — في قلبي، ومشيت اقصد بسكنتا، وانا اتأمل هذه الفطرة الطيبة في اللبناني، واقول لنفسي: ان بيتاً واحداً في كل قرية من قرى لبنان، مثل هذا البيت الكريم، يكفي ليمحو ذنوب اهل الجبل جميعاً.

وما ان خرجت من بتغرين حتى اطللت على الوادي العميق الهائل، وادي الجماجم، الذي ذكره صاحب القاموس فقال انه سمي بهذا الاسم «لحرب وقعت فيه، فتراكمت فيه جماجم القتلى حتى سدّت طريق النهر الجاري هناك.»

وهذا هو الطريق الى النهر، يدور منحدراً في نَعف الجبل، ثم يدور فيدور، فلا ترى غير اليسير منه البادي امامك. اما في النَعف الآخر السحيق، المقابل لجبل بتغرين، فالطريق يبدو لناظريك بكامله، وهو ينساب كالحية الرقشاء بين الادغال الخضراء الصفراء، والصخور الدكناء السحماء، صاعداً متلوياً، من ضفة النهر الى الحرج المظلل السَنَد الاعلى من الجبل..

ان وادي الجماجم لاشد اودية لبنان وحشة وهولا. فلا عجب اذا روّع مجرّدُ اسمِهِ الاخ حنا، ففضل سلامة الجسد على سلامة السمعة.

بيد ان المشاهد الطبيعية، على هولها ووحشتها، هي حافلة بانواع المحاسن المغرية الفتانة، شكلاً ولوناً ومعنى. فبعد قليل من السير في الطريق المنحدر المتلوي، نجتاز بساتين التوت والكروم، فنبلغ الوعور الملتفة فيها ادغال العفص والملُّول، الناشرة على حواشيها اعلام القندول والعُلّيق، والغار والزمزريق، فتحييك منها الازاهير الصفراء والبنفسجية، والعناقيد الحمراء والارجوانية، والروائح الناعمة الندية. تحييك من اجناب الطريق، وتحييك من مختبآتها بين الصخور والآكام.

هناك العطار الاعظم يمزج روائح التربة النديّة، بروائح الاشجار المخضلة، بروائح النباتات العطرية، وما ابقى فصل الجفاف من الازاهير البرية وان قلّت، المجهولة الاسماء، فينتشر من مجموعها نفحةٌ طيبةٌ مركبةٌ عجيبة يعجز عن تحليلها علماء النبات والكيمياء.

وهنالك الفنان الخالد يمزج اخضرار الارض بازرقاق السماء، والاثنين بذهب الشمس، وفضة السُحُب الشفافة، فيبلغ في فن التلوين حد الاعجاز الذي يتوق دوماً اليه ويحاول ادراكه الفنانون الفانون.

وفي شتى أنحاء الوادي ترى آثار المثَّال الاكبر، وقد نحتَ من الصخور التماثيل العجيبة في معانيها، الغريبة في الغازها، المدهشة المروّعة في ظاهر اشكالها، وقد جمع بعضها فنًّا الى فن — كفن المصور مثلًا وفن البنّاء — وجمالاً الى جمال، وروعةً تنساق اليها الروائع. فهاك جداراً عالياً قائمًا تحت جفن الجبل، اجتمعت فيه المحاسن الهندسية والنباتية، فغدا كواجهة معبدٍ من معابد الهند. وهاك صخرةً ملساء، منحوتةً في ساعة جذلٍ والهام، فبدت كابي الهول، وقد نبت في فمه الصعتر والقرقفان، وبين مخالبه القندول، يفوح زهره طيباً في الربيع، فيتغلغل في صميم الغاب، وتنطلق من فمه في الفصول جميعاً كلمات الصعتر الزكية تحيي العابرين.

حياك الله، يا ابا الهول، الناطق بالصعتر والقرقفان. حياك الله، يا قرقفان، حياك. للنسور وحدها ذراك. وحيا زهورك الشوكية البنفسجية، المنقطعة النظير، بين الازاهير.

وادي الجماجم ! غفر الله لمن أسماه. فما عثرت على جمجمة او عظم من جمجمة فيه ولا رأيت حيواناً من الحيوانات الضارية فيه، لا ذئب، ولا ضبع ولا شبه ضبع او ذئب في الطريق او في ما دون الطريق. وادي الجماجم في الزمان الغابر — وادي الروائع في هذا الزمان. هاكه في بحر من النور، فوق بحر من السكون، فوق بحر من السلامة والاطمئنان. ترتل فيه

الجنادب تراتيل الظهر والمساء، ويؤذن فيه الوروار ودويك الجبل، وتغرد فيه الحساسين. وانك لتسمع ايضاً من حين الى حين وقع حوافر الدواب، وهي تنزل او تصعد في مدارجه، فيردد صداها بين الصخور.

والمعلقات من الصخور، والهاويات تحتها ا هاويات سحيقات، تسكن فيها اجنحة النسور، وهي هابطة سابحة جامدة، كأنها من جلد او ورق، ثم تنزو فيها الحياة فتصفق، فتحلق الى ما فوق الاسناد.

مشيت ساعةً مشية من لا يعرف همّاً من هموم الدنيا، مشية المتنزه المسحور، بل المتعبد المجبور، فنسيت المسافات والوعور، ونسيت المهاوي والصخور المعلقة. اجل، لقد سُحرت بما شاهدت من روائع التكوين، وبما استنشقت من اريج الازاهير والرياحين، وبما سمعت من الحان السكينة الموشّاة بذهب الشمس.

وما ادركت اني مسحور الا عندما فوجئت بالخطر المهلك، وانا واقف على حافة الهاوية، فانهارت الارض تحت قدمي، فرحت متزحلقاً ثم سابحاً على ظهري بضعة امتار، فانقذتني شجيرة من الآس تشبثت بها، وعدت أدِبُّ الى الطريق سالماً والحمدلله.

ذكرتني هذه الزحلقة بما ينهار احياناً من الجبال نفسها، أبان الزلازل، فتنفلت صخرة من بين اخواتها، او ينفصل جزء من الجبل عن اصله، ويروح سابحاً او متدحرجاً الى اعماق الوادي. وقد قرأت في تاريخ الامير حيدر الشهابي ما يلي انقله بالحرف الواحد:

« زلزل سفح جبل نهر الصفا الذي هو تحت قرية كفرنبرخ وانسلخ عن اصله ومال الى الجهة الثانية التي تحت قرية مجد المعوش حتى التصق بها وردم مجرى النهر الذي كان في الوادي بين الجانبين واندثر تحت ذلك الردم عدة عقارات. وكان في الوادي قرية صغيرة فهلك جميع اهلها تحت الردم. وقيل انه كان رجل حاملاً كوران نحل وسائراً في ذلك السفح

فلما زلزل ومال سار مع تلك الارض المائلة . وقد دخله الاندهاش والارتعاش من سير الارض به ولم يشعر الا وهو في الجانب الثاني الذي تحت قرية مجد المعوش المذكورة وبقي سالماً . الا انه زال عقله مما صادفه من انتقال الارض به من جهة الى جهة . وهذه الخسفة كانت في الثامن عشر من كانون الاول سنة ١٧٦٧ م ١١٨١ هـ . »

وفي ذلك اليوم من ايلول من السنة الخامسة والتسعمئة والالف مسيحية، والثالثة والعشرين والثلاثمئة والالف هجرية، ما « زال » عقلي انا مما حدث في وادي الجماجم، بل كدت انتقل الانتقال المطلق، وانا واقف فوق الهاوية، مسحور بها، ثم متزحلق على ظهري اليها، وهي فاغرة فاها لتضمني الى سكينتها الابدية !

ولقد أوقف الخوف فيَّ حسّ التلذذ بجمال الطبيعة ومحاسنها. فسددت خطواتي بشيء من الاسراع، وعيناي كنوريَ السيارة لا تحيدان عن الطريق امامي، الى ان بلغت قعر الوادي، فجلست على صخرة، في ظل دُفلةٍ هناك، اتأمل مدارج الجبل الذي هبطت منه، واحمد الله على السلامة.

وما علو ذلك الجبل بشيء يذكر لمن اعتاد التصعيد في جبال سويسرة مثلًا او جبال طيبة بأسيه . فالانحدار من بتغرين الى نهر الصليب في قعر الوادي هو نحو ثمانمئة قدم، اي ان علو الوادي عن سطح البحر، في هذه الناحية منه ، لا يتجاوز الخمسمئة والالفين من الاقدام . وعلو بسكنتا يبلغ اربعة آلاف قدم . فالذي عليَّ من التصعيد اذن هو نحو ضعف المسافة التي اجتزتها من بتغرين الى النهر .

الف وخمسمئة قدم من التصعيد ! ما راقني هذا الحساب . وكنت اشعر فوق ذلك، وانا في قعر الوادي الضيق، بين الجبلين ، بشيء من الانقباض – بكثير من الانقباض . وسرعان ما ذهبت محاسن الطبيعة التي ملأت صدري في سويعة من الزمن جذلا وحبورا .

ذهبتْ من افق احساسي، لامن الوادي، وهي منتشرة في كل مكان منه. فصوت جري الماء بين الصخور هو اعذب من صوت الجنادب وشذى النباتات والازاهير هو اشد في مضائق الجبال منه في مسارحها. والسكينة في قعر الوادي هي ابلغ معنىً منها في اعاليه. ما تغيرت المحسوسات، وما ذهب شيء من جمالها وبهجتها. انما تغير الاحساس الانساني الذي يسجّل فيه وجودها.

والذي غير الاحساس هو الخوف المستولي على صاحبه. فلو لقيت قاطع الطريق في تلك الساعة لنسيت ان اقول له: لست احمل ذهباً او فضة، ولرفعت يديَّ مستسلماً. ولو لقيت ذئباً لما خطر لي ان اذكّره بمعاهدة الذئاب وقديسي الاطهر فرنسيس الاسيسي رضي الله عنه.

وما سبب الخوف، يا رجل؟ وقد نجوت، بفضل شجرة الآس، يد الله، من الهلاك. افليس من المعقول، بل من الواجب ايضاً، ان تكون شاكراً مسرورا؟ اني شاكر مسرور، ولكن اثر الخوف لا يزال عالقاً بنفسي، ومخيّماً عليها. ورب اثر اشد من الحدث المسبب له. فقد سرى من القلب الى المخيلة، فتخيل لي ان وادي الجماجم جمجمة عظيمة هائلة، مشقوقة الرأس، واني انا حشرة في قعرها.

فانتفضت اذ ذاك ورفعت صوتي بالغناء، فعصاني، على قباحته، وردّني الى نفسي، فعاودني التصور السقيم، حشرة في قعر جمجمة!! حشرة في قعر جمجمة! ثم بغتة وعيت، وابيت، وشفيت. او بالحري سقت فكري على مخيلتي فدحرها، ووبخ الصوت الذي سخر مني، وقد شئته غناء فكان مكاء. تيقنت اذ ذاك ان الخوف الذي غشيني كالكابوس اضمحل او كاد، وعادت الحشرة في الجمجمة بشراً مفكراً حكيماً، ثم نهض ذلك البشر يحمل زاده في حجنة عصاه، ويصعد في الجبل.

ساعةً — ساعتين. والطريق الذي تراءى لي من الجبل المقابل كالحية

62

يتعوج صاعداً امامي، ولا ينتهي. وشمس ايلول في رائعة النهار تبعث الذكرى بايامها في تموز. وانا في التصعيد اسدد الخطوات ولا الوي على شيء.

لقد اسرعت في البدء فاخطأت، اذ ما عتمت ان ثقلت رجلي، وثقل النفس في صدري، وثقلت حتى العصا في يدي.

ثم عراني العطش — والجوع! فجلست في فيء صخرة استريح، وانظر بعين «كاسرة» الى الزاد بين يدي. ما الحيلة؟ هل يغني الخبز عن الماء؟ بالعكس. اذن الى الامام، الى الاعالي. استأنفت التصعيد، وفي القلب صوت ينادي غابة الصنوبر! اين انت، ايتها الغابة؟ ساعة اخرى من التعب والعطش والجوع ...

وهاك الغابة تفرش ظلالها الندية لثقيلي الاحمال والتعبين. تبارك الصنوبر، وتباركت ظلاله. لقد أمسكت الرمق مني، واعادت الي شيئاً من القوة والامل. فدخلت الغابة حامداً شاكراً، وانسرحت في ظل اول شجرة منها.

اني انبه ها هنا الى خطاء فيما كان من مسلكي، ما اعدته بعد ذلك. فاذا كنت ماشياً في الجبال، ايها القارىء العزيز، وامامك واد عميق تجتازه من جبل الى جبل، فلا تشغل نفسك، وانت هابط، بمحاسن الطبيعة. انزل مسرعاً، ولا تكترث لشيء حولك او امامك. ثم صعّد في الأسناد على مهل، واستمتع بكل ما هناك من جمال الطبيعة ومدهشاتها. فكلما عراك شيء من التعب قف هنيهة، وسرح النظر والنفس فيما حولك. استنشق — وانت في حال الادراك — الهواء الصافي، والروائح الطيبة تنتعش. استمع لصرير الجنادب وللنسور تصفق بأجنحتها تستأنس. ثم خذ بضع ورقات من الغار والقصعين فادلك بها يديك وجبينك تسترح وتستعد النشاط والعافية. انك اذا فعلت ذلك لا تشعر بشيء من التعب في التصعيد، مهما كان من وعورة الجبل.

بعد ربع ساعة في ظلال الصنوبر استأنفت السير آملًا بقرب الوصول الى بيت يقيني سورة العطش. فما كدت اجتاز الغابة حتى بدا ذلك البيت على حاشية ظلها. هو بيت قديمٌ مربع بسطحٍ منبسطٍ من التراب، حوله بستان تين وكرمة.

وهناك صبي يرعى بقرة في الجوار. ناديته فبادر الي. نشدت الماء، فراح مسرعاً الى البيت، وعاد يحمل الابريق.

وكنت قد فككت الرزمة التي زوّدتنيها زوجة الحكيم بتنغرين، فاذا فيها البيض المسلوق والبصل، والجبن والزيتون، والخبز الرقيق، ومنه رغيفٌ ملفوف مستقل يحتوي على كتلةٍ كبيرةٍ من التين المطبوخ بدبس الخرنوب. ففرشت الجويدة على بساطٍ ناعمٍ من ورق الصنوبر اليابس، وصففت الزاد عليها، ودعوت الصبي ليجلس امامي ويشاركني. فشكر واعتذر. ثم قال انه تغدى. ثم قبل ان يأخذ لقمة من التين المطبوخ. عملت لفافةً منه في نصف رغيف من الخبز، وقدمتها له. فتناولها هاشاً، وعاد يعدو الى البيت. فسألته، وانا في دهشة من امره، ان يرجع، فاشار بيده اشارة الايجاب.

وبعد قليل عاد، وفي احدى يديه عنب، وفي الاخرى تين اخضر. والاثنان ينضجان في تلك الاعالي من الجبل (٣٥٠٠ — ٤٠٠٠ قدم) بعد اسبوعين او ثلاثة اسابيع من نضجهما في الفريكة وجوارها. نحن نقول: عيد الرب (اب) بلغ الحَبُّ (نضج العنب) وكلما علوت على الفريكة تأخر عيد الرب، او بالحري بلوغ الحب. فبين نحن نقطف الكرمة اهل بسكنتا « يحبحبون » عناقيدها.

وهذا الصبي يحمل الي من خير السنة عناقيد عمبرية، وتيناً ارجواني اللون. انه حقاً لبناني كريم، لبناني من الطراز الاول، من الطراز القديم. ولقد ذكرني، عندما بادر الي بابريق الماء، بتلك السامرية التي خُلِّدت في



سيرة المسيح. كانه من سلالتها المباركة.

عملت لفافةً اخرى مما تبقى من التين، فأخذها كما أخذ الاولى ولم يأكلها. فسألته السبب في ذلك فقال: «انا لا احب التين المطبوخ، ولكن اختي الصغيرة في البيت تحبه كثيراً»

اسمه طنوس. وهو في الثانية عشرة من سنه. ازرق العين، وردي الخدين. في صوته رنة الثقة بالنفس، وفي حركاته يتبارى اللطف والنشاط. وهو يحب المسافرين لانه سافر مرة «سفرة طويلة» وعرف «الناس الاوادم.»

— والى اين سافرت، يا طنوس ؟

— «الى فاريّه، ومنها نزلنا الى جونية — جونية مدينة كبيرة وفي دكاكينها كل شيء — ومنها عدنا عن طريق انطلياس وبكفيا الى البيت. بقينا غايبين عشرة ايام — كنت انا والوالد. واشترينا هذه البقرة، وعنزة قبرصية. اشترينا القبرصية في فاريّه، وبعناها في سوق جونية وربحنا فيها مجيديان.»

وقد اخبرني ان له اخاً اكبر منه «عنده حمار يكاري عليه» واخت غير الصغيرة، التي تحب التين المطبوخ، اخت كبيرة «تزوجت في السنة الماضية عا اميريكه»

اي ان شاباً من القرية عاد موفقاً من اميريكة، فاقترن بأخته، ورجع واياها الى محل تجارته هناك.

وابو العين الزرقاء، طنوس، التاجر بالبقر والمعزى، عاقد النية على السفر الى اميريكة، حيث اخته وصهره.

— وفي اميريكة نتاجر ونربح (هو يتكلم غالباً مثل بابا رومه بضمير الجمع) ونصير «زناكيل» (اغنياء) ان شاء الله.

قبل ان ودعت طنوس، ودعوت «لهم» بالتوفيق، سألته اذا كانت بسكنتا لا تزال بعيدة، فاجاب: «وصلت. اول بيت منها نصيبه من رأس الشير (الصخر) هناك. بضربة حجر.»

صنين

قال فكتور هوغو : الضيافة مفتاح الاخاء الانساني والشعوب المضيافة عماد الانسانية .

وقال كاتب اغريقي قديم: الحرية وحسن الضيافة هما عنوان العظمة في الشعوب.

فالشعب اللبناني العربي ، في عرف الافرنسي الشهير ، هو من عماد الانسانية لانه مضياف .

ولكنه، في عرف الكاتب الاغريقي، لم يبلغ من العظمة الا نصفها او بعضها اي القسم القائم بحسن الضيافة. اما القسم الآخر، اي الحرية، فهو لا يزال مفتقراً اليه . هو لا يزال ينشد الحرية، ويتغنى بها، ويسلي نفسه بخيالها وقصائد شعرائه فيها .

ليس اجمل من لبنان في جبال الارض. وان الله ليكلأ هذا الجمال، ويصونه في شكله كما في جوهره . فلا خوف عليه في الحالين. اما الشعب اللبناني فمن يكلؤه يا ترى، ويصونه في حسن ضيافته ؟ الحرية — ولا مرية في ذلك. ان كلمة الفيلسوف الاغريقي لهي عين الصواب فالشعب الحر يستطيع ان يكون مضيافاً، والضيافة مع الحرية تدوم. اما بدون الحرية فالشك في دوامها اقرب الى الذهن منها الى اليقين

خذ العرب في شبه الجزيرة مثلًا تجدهم يقدسون بعد الدين اثنتين: الحرية والضيافة. وخذ المثل الآخر من الامة الاميركية وهو نقيض الاول. الضيافة موجودة وخصوصاً في الولايات الجنوبية والغربية. ولكنها لا تحسب من المزايا الاميركية البارزة. هنالك ضيافة فيّاضة فوّاحة لامعة

الحواشي، باهرة الاسباب في طبقة الاغنياء من الامة. على ان مزايا الامة - الحسنة منها والسيئة - انما هي التي تغلب في شعبها المتوسط والفقير لا في اغنيائها. فالعظمة الحقيقية لا تزال ناقصة هناك كما هي في لبنان.

وعندنا في لبنان عكس ما في اميركة. فالضيافة لا تزال مرعية كواجب من الواجبات الانسانية، في الحياة اللبنانية، وخصوصاً في الطبقتين، المتوسطة والفقيرة: اما الطبقة العالية، في الاصطلاح المدني، اي طبقة الاغنياء، فهي مثلها في اميركة، تسرف في الضيافة تارةً طلباً لجاهٍ، او حرصاً على سمعة، وطوراً تعتصم بالفرنجة من تقاليد وعادات، فتلجأُ الى النُزُل لتقوم بواجبٍ باردٍ في ضيافة رسمية. وكلما كثرت النزل الحديثة في لبنان، وانتشرت تجارة الاصطياف، قلّتِ الضيافة الحقيقية العربية الجميلة الاصل والأثر، في بيوت اللبنانيين، ومما لا ريب فيه انها كانت في الماضي شاملة عامّة.

جاء في كتاب انكليزي لاحد السياح، الذي ساح في هذه الجبال في اوائل القرن الماضي، ما يلي:

« لا خوف على السائح من ان يقضي ليلته في الحرج، او في كوخ لاحد الرعاة. فان اجمل اسباب السياحة في جبال لبنان هو انك تسيح متأكداً ما سيكون حظك من الضيافة في آخر كل نهار، فانك تتوفق دائماً الى بيت تنزل فيه ضيفاً كريماً مكرماً. »

وانك لتجد، بعد مئة سنة، اماكن في جبالنا، مثل كسروان ونواحي الشمال، وبعض المتن، كالناحية منه التي جبتها ماشياً، يصح فيها هذا القول. فهي لا تزال عامرة بالضيافة، عنوان فخرنا اللبناني العربي.

فحبذا المحافظة على هذه الحلة الطيبة العالية. حبذا الرجال يجاهدون في سبيل الحرية، ويصونون هذه الحرية، مصدر الاباءة والفضل والكرم. وحبذا النساء يشاركن الرجال في الجهاد، فيضمنّ السعادة لابناء هذا الجيل

ويتيقن انهم سوف ينشأون احراراً كراما، يقرون الضيف، ويأبون الحيف، ويضربون بالسيف. فلا يقال في المستقبل: كان الحازني، وكان الحبيشي. بل يكون ابناء المستقبل كلهم جميعاً من الطراز الاول الواحد الذي تغتبط به ارواح اولئك الاجداد، فيشتهون تجسداً آخر دنيوياً ليفوقوا ما كان من ماضيهم في ضرب السيف، ودفع الحيف، وقِرى الضيف.

عرضت لي هذه الخواطر بعد ان ودعت الولد طنوس، وانا افكر في فطرته اللبنانية، الطيبة — في لطفه ومعروفه واريحيته — وفيما قاله عند الوداع: سنسافر الى اميركة ونتاجر ونربح ونصير «زناكيل» (اغنياء) وكانت الخواطر والحقائق تتجاذبني، فتغالب العقل مني، وتملك الشعور. وهل للشعور مجال في معترك الحقائق الراهنة؟ وهل تنكر الحقيقة الغالية التي تكاد تنحصر اليوم في المهاجرة والمتاجرة والمال؟ لا سبيل الى انكارها ولا حيلة في دفع ما يجره الاقرار بها من النغص والالم.

وما كانت النفس خالية من النغص تلك الليلة، وانا احدث امرأة شاءت التقادير ان تكون مضيفتي. رأيتها في الطريق اذ دخلت البلدة، فسيتها بالخير فمستني بالسعادة، وهي تنظر الي بعين الاستغراب والاستحباب. فما ترددت في المحادثة التي ادّت الى التعارف. سألتني هل كنت في اميركة فسرها الجواب. وعندما علمت أني اعرف احد انسبائها في نيويورك، اهتشت لذكري اسمه اهتشاشاً تخلله شيء من حرارة الذكرى ومن ثلجها.

كانت في العقد الرابع من سنها وعلى شيء غير يسير من الملاحة. وصارت بعد هجرة النسيب اماً لثلاثة اولاد وارملة تحسن حجاب ما في نفسها.

جلسنا واولادها الثلاثة، ايلياس وبطرس وبولس، الى طبق من النحاس الابيض، ترفعه عن الارض وتختني تحته طاولة صغيرة واطئة. وعلى الطبق الطبخة التي كانت طبختها الام لاولادها، وهي المجدرة، وما اضافته

65

اليها، اكراماً للضيف، من عجة البيض واللبن.

قالت ام ايلياس وهي تقدم مسنداً لاجلس عليه. لا تقدر ان تتربع مثلنا وانت في هذه الثياب الفرنجية. وكانت قد مددتني قبل العشاء على فراش السوآلات واستخرجت من جيوب النفس بعض مكنوناتها، فنادتني باسمي الاول وسألتني ثلاثة سوآلات مزعجة.

— هل انت متزوج يا خواجا امين ؟

— لا يا ست ام الياس.

— وهل توفقت في اميركة

— والحمدلله.

— وهل رجعت الى بلادك تفتش عن عروس ؟

ما شئت ان يكون جوابي سلبياً كذلك او مبهماً، ولا شئت ان يكون كاذباً. فسكت، فاردفت سؤالها بكلمة استدراك قائلة: «ما عرفت بعد مَن رجع من اميركة لغير هذه الغاية. كأن اميركة ما فيها بنات. ولكن ابن خالي عمل بالعكس. هجر بلاده وتزوج في اميركة.»

وقفت هنيهة ثم قالت: وما رأيك في الزواج ؟

— للزواج، يا ست ام ايلياس، صورة ظاهرة وصورة خفية. فالخفية لا يعرفها غير الله، والظاهرة مثل الطغراء السلطانية، يعرفها كل الناس ولا احد يفهمها.

— «مشبكة، ملبكة، ولكنها ظريفة. اظن هذا معناك. ولا اظنك تنكر ان الزواج ضروري للشباب الذين مثلك ومثل ابني ايلياس.»

— وما قول ايلياس ؟

— هو خاطب ومتردد.

— في الاثنين معاً ضرر. والخير اما في الخطبة واما في الامتناع.

— الحق معك. كم مرة قلت لايلياس هذا القول. فقال ايلياس مغتاظاً:

وما الفائدة من هذا الحديث. دعي الرجل يأكل.

فقالت الام. الحق معك، شغلناه بالحكي. ما اكلت من العجة ياخواجا امين. يظهر انك تحب المجدرة مثل ابني بولس

بولس ثاني اولادها لا يتجاوز السادسة عشرة من سنه، وهو يتعلم في مدرسة ابتدائية بالبلدة. فقال متنطعاً: واحب غيرها من الأكل. الرجال لا يفضلون طبخة على طبخة.

بطرس ثالث الثلاثة واذكاهم، مال بوجهه الي وفي عينه تألق من الخبث وقال: اساله هل يحب المعمول.

بولس: وحضرتك يا نور عيني لا تحب المعمول.

بطرس: احبه واحبه ولا استحي ولا اكذب.

بولس: من هو الكذاب

بطرس: لا انا ولا ايلياس.

بولس: وحق الصليب ان أعدتها ...

بطرس يمد لسانه متحدياً، وبولس يهم بضربه، فتصيح الام بهما: «عيب عليكم. استحوا. اسكتوا. ذكر المعمول يخجلنا. وقصته، يا خواجا امين، قصة. لنا اقارب في زحله وعدونا بزياره فارسلت بطرس الى بيروت لشراء بعض حاجات البيت ومنها للضيوف علبة معمول. ولكن يوم موعد الزيارة ما جاء احد. كتبوا معتذرين وقالوا انهم سيزورننا الاحد التالي. ومرّ الاحد وما جاء احد منهم. وعلبة المعمول منتظرتهم في الخزانة والاولاد هاجوا وماجوا فتحت الخزانة وأبحتها لهم، فهجموا عليها كلهم هجمة واحدة. وبعد يومين، وحياتك، جاء الضيوف وعلبة المعمول فارغة! الذي قلته لهم اقوله لك الان، ياخواجا امين لا تؤاخذنا. الحلو في بيتنا لا يدوم ما زال الثلاثة موجودين.»

دعت لاولادها بالصحة والهناء وطول العمر ونا في ذلك لها من الخير

والنعمة، وقمت وانا افرك جبيني وأجرّ خطواتي، ففهمت، وهي الفطنة، اني الى النوم اميَلُ فقالت تهوّن علي: «قطع وادي الجماجم يقطع الظهر. ودواء التعب النوم»

هي الحقيقة بعينها، نطقت بها عيني لطفاً منها، كأنها تعلمت ادب الضيافة في بيت امير عربي كريم. وما بيتهم غير مربع كبير مفروش بالحصر وآخر صغير الى جنبه، فرشت لي وحدي فيه، فرشة وثيرة نظيفة، على الارض، وَلكنني نمت تلك الليلة مِلء جفني حتى على الارض اليابسة العارية.

نهضت باكراً في اليوم التالي لاواصل السير الى نبع صنين. وكانت ام ايلياس قد علمت، من سؤالاتها لي، بعض غرضي من هذه الرحلة، فمنعتني من السفر باكراً وقالت ان لاخيها دكاناً على النبع، وان ابنها ايلياس يكاري له. وانه ذاهب في ذلك اليوم اليه.

— «بعد ساعة يمشي فتمشي معه. الاحسن ان يكون معك رفيق يعرف الطريق.»

وكان كذلك. مشينا ساعة الضحى انا وايلياس وراء البغل المحمل زيتاً وحمناً وصابوناً الى دكان خاله عـلى النبع. الطريق من بسكنتا اليه طريق ضرد وعر تكثر فيه العقبات القصيرة بين مدات طويلة من عرض الجبل. وكلها او جلها بين الكروم والحقول المزروعة. وفي المسافة سير ساعتين من السير الهون. والف وخمسمئة قدم من التصعيد. اي ان نبع صنين يعلو على بسكنتا بقدر علو الفريكة عن انطلياس (بسكنتا ١٢٥٠ متراً عن سطح البحر والنبع ١٨٥٠ متراً)

سرنا في هذا الطريق انا وايلياس ورفيق ثالث هو السكوت، شاطره كلانا انسهٌ واطمئنانه. وما تخلف الرفيق الثالث عنا الا مرةً عندما سألني ايلياس عن ابن خال امه في اميركه، وهل هو موفق في اشغاله وفي حياته الزوجية. بما اعلم، وما كان بالشيء الكثير. فعاد السكوت يرافقنا، ويسترعي

نظري انا الى ما يتراكم من الجبال والربى ويبدو ويختفي من الاودية والبطاح غرباً من صنين.

وكنت في ذلك السكون والسكوت اتأمل الاحتكاكات الذهنية والروحية في خصبها وعقمها، في حرارتها وبردها، في تصادفها وتعانقها، في اضطرابها وسكينتها. فما اعجبها في كل حال من احوالها. لقد احسست. عندما رأيت ام ايلياس في الطريق، ومشيت واياها الى بيتها، أن هنالك ذهنية يقظة مضطربة وثابة، ذات اعصاب دقيقة متينة كخيوط الكتان، بل وكأسلاك الكهرباء. وشعرت أن وراء تلك الذهنية روحاً تصبو الى الاتصال بغيرها من الارواح، فيطيب لها الاخذ والاعطاء، واستعراض ممكنات السعادة والشقاء في هذه الحياة الدنيا. هي ذهنيةُ اديبةٍ مفكرةٍ في جسم جبليةٍ فلاحة. هي روحيةُ امرأةٍ كريمةٍ في شخصيةٍ بسيطةٍ وادعة. فلا عجب اذا أنِستُ بها، وعدوت معها الى سوق الفكر والروح، فرحاً مطمئناً، كأني اعرفها منذ ايام الصبا، فأخذت وأعطيت، واسفرت واستسفرت وكان كلانا في الحالين من الفرحين الرابحين.

اما الابن ايلياس فما انعم الله عليه بشيء من شمائل امه. فما لمست طرفاً من ذهنيته المنكمشة الجافة، ولا رأيت بصيصاً من روحيته الصغيرة المتوارية ترافقنا وما التقينا. سرنا ساعتين في انفصال ملموس اذا صح التعبير. كلانا بعيدٌ عن الاخر بعداً شاسعاً. كأن ايلياس في وادي الفريكة وكأني في صرود صنين.

واني استطيع الآن وانا سائر وابن أم ايلياس الى النبع ان انظر من قمة ذلك الزمان الى المستقبل، فارى بعين الغيب في ذلك الطريق مشهداً ينتشر، جزؤاً جزؤاً واجمالاً، كأنه مكوّن قبل وجوده بعشرين سنة.

فمن سنة ١٩٠٦ نثب وثبة الى الامام فنقف عند سنة ١٩٢٧، بين صيفها وخريفها، في سفح جبل صنين خارج بسكنتا، نتأهب للرحيل. هات

وسادة للسيدة... هات سجادة للاستاذ .. هذا البغل حرون لا يوافق..
هذه البغلة للآنسة سلمى. وهذه للسيدة نجلا. وهذه للشقيقة ادال، جهز
السروج كلها بالركب، يا رجل. والاجمة. انك لتركب شموساً واقماراً.
فهل يمكنك ان تتصور ما يحدث اذا هوت الشمس عن ظهر بغلك. الرُكُب
والاجمة – لا تتحرك بلاها

مشت القافلة الى نبع صنين. وهناك فيها شمس الربيع الكاتبة
الاديبة سلمى صائغ، وشمس الصيف المثقفة الاديبة نجلا الكفوري. وهناك
بين الشمسين كواكب نيرة، تتلألأ على جوانبها وامامها ووراءها من حين
الى حين النجمة عائدة ابنة سلمى،التي هي اليوم زوجة الشاعر اللبكي صلاح

وهناك بين الفرسان قمر العلمانية في التعليم جورج كفوري، يخب الى
الى جنبه البغل الحامل قمر الدنيا العلمانية اللبنانية يومئذ، وقمر العلمانية
والادب الريان اليوم خليل تقي الدين. والى الجنب الآخر كوكب هوى
قبل اوانه، بعد ان أثار لاول مرة في الادب العربي فلك الشعر الرمزي —
اديب مظهر رحمه الله. ويجيء وراءهم وهو يحث حماره القهوصي قمر الدينيين
الاديب المسلم المسيحي تقي الدين الصلح، ومعه قمر المطابع العربية في
البلاد اللبنانية والسورية، وناشر اعلامها واسقامها في الافلاك القانونية
والادبية، يوسف ابراهيم صادر. وفي تلك القافلة الشعشاعة، كنت ترى
الدليل الامين، تارة في المقدمة، وطوراً في المؤخرة، يمجد الشموس والاقمار
كما يفعل الآن... ورأس الفضيلة في الادب الامانة...

مشت القافلة التي تراءت سنة ١٩٠٦ ! امامي، وانا اليوم اراها اذا ما
نظرت الى الوراء. انها في الحالين قافلة نُورٍ وهدى مرت ذات يوم في صرود
صنين، وهي لا تزال من الذكريات الطيبة.

وفي هذه الصرود كوخ في صخر اسمه الشخروب، بقي طوال الدهر
نكرة مثل المزارعين والرعاة الذين كانوا يأوون اليه. بقي نكرة الى ان

شع فيه نور الفكر والادب بعد ثلاثين سنة من هذه الرحلة. لست ادري اين كان ميخائيل نعيمة يومئذ يرد موارد العلم، ويثقف ما وُهب من ذكاء، وما اكتسب من ادب. ولكني وانا انظر الى المستقبل بعين ثاقبة صائبة ارى ميخائيل، وقد اتخذ الشخروب، في العقد الثالث من هذا القرن العشرين، منسكاً له، يطبخ فيه طبخات صوفية، ويعمل التوابل والحوامض الادبية، ويوزعها في الكتب والمقالات على الناس لوجه الله تعالى. هنيئاً للنساك الاقدمين اجدادنا المتعبدين المتصوفين هنيئاً لميخائيل، فقد عاد اليهم في القرن العشرين، عن طريق اميركة ثم صنين، واندمج في سلكهم الطاهر

وهنالك في نيويورك اليوم صوت ينادي صنينا ويحن اليه صنين صوت الناي الى الغابة الذي قطع منها. هو صوت احد ابناء صنين الاخلياء، وقد زادته الغربة حباً وشوقاً وتحنانا. وما قضت على البلبل الغريد الذي اختبأ بين اضلعه يوم رحل من بسكنتا في العقد الاخير من القرن السابق فقد ظل ذلك البلبل مختبئاً صامتاً ربع قرن من الزمن. فرأى صاحبه الثلج ذات يوم يتراكم في اسواق نويورك، وسمع زقزقة طير شريد يحوم حول المدخنة على سطح من سطوحها ليصطلي، فهزّه تهزيزاً رافقه الهزج، فسمعتهُ ربة الشعر وساقت اليه القوافي العذبة الملتاعة.

في ذلك اليوم، منذ ربع قرن من زماننا، بين ثلوج نويورك، وفي ظل مدخنة من مداخنها، ولد شاعر صنين، على بعد سبعة الاف ميل من صنين في ذلك اليوم أطل على هذه الفانية رشيد ايوب الشاعر الدرويش، ولا يزال الجسم منه مكبّلًا بالكبول الاميركية، يروح ويجيء في اسواق نيويورك ومكاتبها، كالماشي في نومه، تأكل نعاله وحشة التمدن وتخترق الاضلع منه الى الصميم.

بلسم صنين ابعث به اليك ايها الشاعر الدرويش. طِيبَ بُطمِهِ، وقندولِهِ وزَالِهِ، ابثه الرياح لتحمله الى مأوى جسمك في نويورك، وتضمخ به انفاسك وقوافيك.

مع المكارين

كانت ام ايلياس قد عهدت الى ابنها بأن يوصي بي اخاها بطرس صاحب الدكان على النبع. ففعل ذلك عند وصولنا، فرحب بطرس بي وانزلني على السطح في خيمة من الشيح يغطي ارضها حصير عليه فرشة مطوية. ثم قال: «ستنام عندنا الليلة — حات البركة — وغداً صباحاً تمشي مع المكارين الى زحلة.»

ما كان يومئذ من عمران على النبع غير هذا الدكان وبيت يجاوره لاحد المزارعين. وكان صاحب الدكان يتناقش وصاحب البيت ساعة وصلنا، ويردد الاثنان بلهجة حادة مقرونة بالمسبات ذكر بقرات وراعيها. ففهمت من المناقشة ان الولد الراعي نؤوم، وان البقرات، أثناء نومه، تغتنم الفرصة فتسرح وترعى في حقل لبطرس.

وقد استؤنفت المناقشة في اصيل ذلك النهار، وكادت تفضي المسبات فيها الى معركة دامية لولا توسط المكارين. فرجع صاحب البقرات متدهدهاً — بلغة المقامات — الى بيته، تحت وابل من شتائم بطرس القذعة، وهو يقذف، الفينة بعد الفينة، ليردها عليه مثنى وثلاث ورباع — بلغة الوحي السماوي.

بطرس: «يا كذاب — يا منافق — يا لص.»

صاحب البقرات: «انت الكذاب انت الكذاب الخ. انت اللص، انت اللص الخ.»

إعجب لهذا الانسان وقد خلقه الله على شكله ومثاله. وهو مع ذلك لا يستطيع ان يعيش وجاره بصفاء وهناء حتى في اعالي الجبال، في مهد

السكينة والنور . رفعه خمسة الاف قدم من الهيئة الاجتماعية الكاذبة المضطربة المتطاحنة المتكالبة ، فحمل معه الى رأس الجبل جرائم التكالب والضغينة والاقتتال. كل ذلك من اجل بقرة رعت في مرجة تحبها. وهل رأيت زمانك بقرات تقتتل وتتناحر من اجل مرعاها ؟ ان في الحقل حشيشاً يكفيها جميعاً. والارض بطولها وعرضها تضيق بالانسان. من هو الحيوان يا ترى ؟ وهل يتميز الانسان عن الحيوان بالمشي على الاثنتين ؟

بت تلك الليلة في خيمة الشيخ دون ان ادعو بالخير لبشر. ولقد بلغ التأثر القرف عندما قمت باكراً، في اليوم التالي، فسمعت صاحب البقرة ينادي من سطح بيته صاحب الدكان. ورأيت بطرس يخرج مسرعاً من دكانه، ظناً منه ان هناك حادثاً يستوجب الاهتمام، فيطلق صوته سائلاً: من صاحب الصوت ؟ فيسمعه يصيح: انت المنافق ! انت اللص !

وهذا في صفاء الفجر، قبل بزوغ الشمس، على علو خمسة آلاف قدم من حضيض البشرية ! اوَتقول لي إن في صرود الجبال يحلو التأمل والصلاة، ويعمر القلب بالحب الانساني ؟ . . .

عجلت في لبس ثيابي، وكان المكارون قد شدوا الرحال. فاغتدينا على الاقدام، والطير في وكناتها، كما يقول الشاعر. خرجنا من بين بواسق الحور والدلب، فمررنا بالنبع المنبجس من بين الصخور، فأسندنا في الطريق الصخري الوعر الى ضلع من الجبل هو الافق بعينه، فاشرفنا منه على افق آخر ، ارض هي في شكلها كالارجوحة بين الافقين .

اني في كتابة هذه الرحلة اليوم استعين بتذكراتي في تلك الايام، واعجب وانا اقرؤها لما كان من مغامرة وتلفيق، ولمن كانوا رفقاء الطريق.

قال احدهم يخاطبني: سمعنا في الدكان انك مهندس.

وقال الآخر: وسمعت انا على النبع انك معلم اولاد



وقال الثالث: وقالوا انك قسيس بروتستنت فمن الصادق منهم ؟

قلت: كلهم صادقون فقد مارست هذه المهن كلها.

قال الاول: وما هي مهنة حضرتك اليوم ؟

قلت: مبشر بالانجيل.

فضحك الثاني وقال: اسمع هذه الحكاية. كان احد المبشرين مثل حضرتك ماراً بكنيسة في الجبل ساعة كان الناس في الصلاة، فقال لاحد الواقفين في باب الكنيسة، وهو يضرب بيده على قفاه — كان الانجيل في جيبة بنطالونه من وراء — قال القسيس وهو يضرب بيده على قفاه: «درب السما من هنا — من هنا»

للمكاري لسان تنبت فيه المسباتُ والنكات، زاهرة شائكة. وهو على الاجمال ذكي الفؤاد يقظ الفكر، تعلمه الفلوات، وتؤدبه الشدائد. كان في الماضي يغني وهو يتبختر وراء بغله فتردد صدى صوته الاودية. وكان صبوراً الا على بغله، لا يكلمه بغير الحصى واللعنات. وهو مع ذلك مشرق المحيا. مزاح ضحاك. كأنه يقول: ما ضر الفحش ونحن في الفلاة. شمس الجبل تطهر كل شيء. وهواء الجبل يكنّس كل شيء.

قال البلاذري في فتوح البلدان: نقل معاوية في سنة ٤٩ ه الى السواحل قوماً من زُطّ البصرة. (وهم يدعون ايضاً بالمطربية لان مهنتهم التطريب) ان المكارين على ما اظن من سلالة اولئك الزُطّ.

والى القارىء اقدم الان رفقاء الطريق.

هذا ابو العباءة في سراويل من الخام المصبوغ بالنيل، يشدّه بنطاق من الجلد، وفي النطاق سكين طويل شبه خنجر، معلق بسلسلة صفرا. عباءته قصيرة مخططة، وعمارته لبّادة طويلة بنية، تذكّر بعمارة الدراويش المولويين، وقد لف عليها الكوفية، وأطلق الذؤابة فوق اذنه.

ابو العباءة هذا يكثر في حديثه من ذكر النساء. هو مجان فاسق، خلقه

مزيج من الرمل الذهبي والزبل. هو الذي حكى حكاية المبشر بالانجيل.

وهذا ابو كبران. كبرانه من الصوف المنسوج في خيام البدو، يلبس السراويل المزنّقة، اللاصقة بالكاحل والساق، المنفرجة في قاقوقها، ويحتذي حذاء — مداساً — مثقلاً نعله بالمسامير.

ابو كبران لا يضحك الا مرة في السنة يوم يعترف ويتناول القربان المقدس. هذا الذي قال فيه ابو العباءة وما أثبت القول هو ولا نفاه.

وهاك مدنياً في اعجب القيافات من رأسه الى قدميه. حذاء طويل بشرائط غير مشدودة، فوقه سراويل من الخام المصبوغ، فوقها صدرية زرٌ زرٌ واحد منها، فوقها ساكو افرنجية فضفاضة مرقعة الكوعين، وفوق الجميع على الرأس طربوش كان احمر اللون في قديم الزمان . .

هذا المدني معجب بنفسه، ولا يرثي لنفس سواها في الدنيا .

وهاك بدوياً بعباءة خشنة مخططة، وكوفية بلا عقال مشدودة حول عنقه، وجزمة الى ما تحت الركبة تنزل فيها رجلاه على الرحب والسعة.

هذا البدوي ينظر الى المدني نظرة تسأل وازدراء، ويحسب نفسه فوق الجميع.

قال يخاطبني بعد ان سمع حكاية المبشر بالانجيل : « وانت، يا زين، ما تقول بدرب السما. دلنا عليها وحياة والديك. »

ابو عباءة: حضرته يا زين، قاصد زحله ليدل اهلها . والله اذا وعظت عن المسيح في زحلة يقوم الكواتله عليك و« يرطوك » قتلة مشبعة. وما ربحك من الوعظ ؟ يجب ان يكون اكثر من ربح الحوارنة لان عملك اهم وفيه خطر.

ابو كبران : مهنة الاكليروس ان كانوا من الحوارنة او من القسس البروتستنت اربح المهن واهونها. ولكن الله سبحانه يوزع المهن على الناس. انا والمطران . . . مثلاً قرأنا في كتاب واحد تحت السنديانة. وكنت انا اذكى منه، وكنت اساعده واصلح غلطاته في القراءة. فاين انا اليوم واين

سيادته ؟ سبحان الله

فقال البدوي يغير الحديث : سمعنا انك لاتحب المال، ولا تحمل في رحلاتك ولا باره .

قلت : صدق من اخبرك .

وفي تلك الآونة اخرجت ساعتي من جيبي مستطلعاً الوقت، فرآها ذلك البدوي وهش لها، ثم قال : ويكفي قاطع الطريق ان تكون معك هذه الساعة فقط . ويكفيه ما انت لابس، يا زين، هذا الحذاء — هذه الثياب الفرنجية . ألا تخاف من قطاع الطريق .

قلت : وهل اخاف منهم وانتم الرفقاء ؟

فقال ابو الطربوش يشير الى البدوي : هو منهم . حاميها حراميها .

فصاح البدوي به : يا ملعون الوالدين ! لو كنت كلك من ذهب، والله بالله، لبصقت عليك .

ابو الطربوش : المجنون يحاسب البدوي على ما يقول .

البدوي : تقول اني مجنون ! خسئت يا ملعون الوالدين .

قال هذا وبصق امامه .

فقال ابو الطربوش : البصقة — وصاحبها — تحت رجلي .

قالها وهو يدوس ما استقر على حجر من فم البدوي . فهم بضربه، فحال ابو كبران دون ذلك . وقال ابو العباءة للاثنين : من مثلكم لا يرافق الاوادم . اسكتوا . اعقلوا . والا . . .

سحب السكين من نطاقه ولوح بها .

فسكت البدوي وابو الطربوش، ومشى الواحد منهما بعيداً عن الآخر ثم ساد في القافلة السكون مدة من الزمن، ونحن نقطع تلك الاصقاع الكثيرة الآفاق . ما عرفت طريقاً في الجبال شبيها بهذا الطريق من صنين الى زحله — لا بوعورته، فهو في بعضه سهل موطأ — بل بآفاقه الغريبة المتعددة —

المضنية الرهيبة لمثلي.

مثل لنفسك لوحة من طين فيها منخفضات بضلوع حولها، هي كالجوَر تتلو الواحدة الاخرى. وفي هذه الجور والضلوع حولها طريق تسلكه طائفة من النمل هي قافلتنا. من الضلع الاول تهبط الى الجورة فتجتازها الى الضلع الثاني، ومنه الى الثالث المقابل له، ومنه الى الرابع، فالخامس، فالسادس، وكل جورة لا تتجاوز مسافتها. من الضلع الى الضلع الكيلومتراً الواحد.

هي الآفاق الواطئة الضيقة، تكاد تزهق النفس فيها. هي الآفاق المتعددة تمحو صورة الرجاء من قلب المسافر، اذ يقف بين كل افقين منها، ولا يدري اين تنتهي السلسلة، واين زحلة. كنت كل مرة نجتاز افقاً ونشرف على آخر اظن ان زحلة وراء ذلك الافق. فعددت عشرة منها، وبقيت افكر فيما قرأته للشاعر الايطالي العظيم دَنتِه في روايته الخالدة — الكوماديا البشرية — من الوصف الرائع المروِّع لطبقات الجحيم.

وفي هذه الصورة من حالي سألني ابو عباءة سؤالاً بارداً، وقد اراد بذلك ان يتطرف في الحديث الى النساء. فكان له ما يريد، فحكى الحكاية التي حكاها ولا شك مئة مرة من قبل، وختمها بهذه الكلمة: كيد النسوان مثل كيد الرهبان، واشد يا سيدي، اشد.

فقال البدوي: انتم النصارى لا تحسنون معاملة النساء. العصا لمن عصا. و« حنا » نقول: « العُصيَّة للمُرَيَّة.»

فاندفع ابو طربوش وقال: البدو وحوش.

البدوي: يا ملعون الوالدين، قال لك الرجل: اسكت: وتعود « تحتشي ».

ابو طربوش: « احتشي » واسكت.

البدوي: وتستهزىء بي ؟! والله بالله يهجم، وهو يقسم بالله، عليه.

ابو كبران: يا قرد — رجعنا لأكل ال... اذبحه وخلصنا منه ومنك.

ابو عباءة، وهو يسحب السكين ويلوح بها: اسكتوا يا ولاد الزنى اسكتوا. والا انا اذبحكم كلكم.

وكانت الدرب قد ضاقت، ونحن نجتاز احد الآفاق، فمدنا نمشي صفاً يتقدمنا ابو طربوش، ويتبعه ابو كهران فالبدوي، فابو العباءة وهذا الرفيق ابو السؤال الواحد: واين زحلة؟

سألت سؤالي هذه المرة بصوت عال جريح، فجاء البلسم من ابي طربوش، وهو في منعطف الطريق: هذا السهل — ومتى قلت السهل قلت زحلة.

وشد ما كان فرحي عندما اشرفت على سهل البقاع البهيج الاخضرار، الناعم الانوار، وقد ترقرقت خلال قطع من الغمام. وبعد مدّة ليست بالقصيرة ولا بالطويلة، من الانحدار، وصلنا الى عين حزير، فوقفنا امام دكانها، فنادى ابو كهران صاحبة الدكان باسمها، فخرجت مسيحية مسلّمةً موحبة. ثم جاءتنا بابريق الماء فشرب الاربعة وودعوا وكنت انا من المودعين.

تخلفت عنهم لاني فضلت الاستراحة في عين حزير على ان اصل الى زحلة وبي شيء من الضنك والتعب. وكنت احس بالجوع فتذكرت الزوّادة التي زوّدني بها صاحب الدكان في صنين اخو تلك السامرية في بسكنتا. فاستودعتها المكاري ابا العباءة فوضعها في مخلاة بغله المعلقة في مؤخر الجلال وما ان هممت بطلبها حتى رأيته عائداً بها فأعطانيها قائلاً:

نشّتك مسيحية الزوادة اه

قالها الخبيث وهو يغمز بعينيه.

وكانت مسيحية من الرجراجات المكسرات الخطى. وقد اسرفت في الكحل والمساحيق فصعب التكهن بسنها. الا انها، على كثرة من يفدون عليها من المكارين والمسافرين، سهلة الانقياد للحديث، بارعة في

تصريفه فباغتتني بقولها: انت من اميريكة.

فقلت لبناني كان في اميريكة.

فقالت مثبتة ما استتر من علمها: «هذا معناي وانا كنت في اميريكة — في النا'يرك.» ثم سألتني بالانكليزية اذا كنت اتكلم بها فسرها جداً جوابي، ودعتني للجلوس وهي تقدم لي كرسياً، وتجلس على آخر امامي.

ثم اندفعت تتكلم عن «النا'يرك». وشارع السوريين فيها، وتسألني عن كانت تعرفهم هناك، كل ذلك وهي متبسطة اللسان، مشروحة الصدر. فجاوبتها باللغة التي احبتها، على ما كان من لهجتها الانكليزية السقيمة، ولفظها الفضاح.

قالت: «آي ليك النا'يرك يونو You Kno» ؛

قلت: آي ليك إتْ تو يونو

وكانت هذه الـ «يونو» كلمة السر بيننا. فعرضت علي كأساً من العرق، فرفضت شاكراً. وقلت: اسمحي لي ان افتح زوادتي في دكانك.

فصاحت بملء صوتها: ياعيب الشوم! انت الآن ضيفنا. بعد قليل يعود زوجي من الكروم فتتغدى معنا وتأكل من عنبنا.

حاولت ان اثنيها عن عزمها فما انثنت. بل أصرت بالانكليزية على ان اشاركها الغداء. ودخلت الى غرفة وراء الدكان وعادت، ثم دخلت وعادت، فتكررت منها هذه الاحتجابات والتجليات، وكانت تسألني كل مرة تعود، سؤالاً او تذكرني بما كانت تحبه في «النايرك»

— «آي ليك كوني ايلند يونو.»

وفي عودتها الرابعة او الخامسة من غرفة الاسرار جاءت تحمل طبقاً من نحاس عليه فنجانان وهي تقول: والقهوة، الا تحب القهوة؟ تفضل.

وبين نحن نشرب القهوة عاد زوجها من الكروم يحمل سلّة عنب. فعرفتني اليه قائلة بالانكليزية: «هيْ كمُ فرام نايرْك يونو»

فما كان وقع الخبر في نفس زوجها بالشيء الخطير. كما لو قالت: هو قادم من بيروت مثلاً او من زحلة. فقد اخبرني انه إقام في نويورك ثلاث سنوات حسبها ثلاثين سنة، وانه لا يحب الغربة، وان بلادنا في نظره اجمل بلاد الله.

فقالت مسيحية: لا تصدقه. لو توفقنا ما عدنا. كم مرة قلت لك يا حنا إحك الصحيح دائماً. خذ الفناجين اغسلها وردها الى الخزانة.

فامتثل حنا امرها وراحت هي تحضر الطعام. فرشت المائدة الصغيرة بغطاء من القماش المشمّع، ودخلت الى الغرفة تكمل عملها. وقد كان حنا الخادم الطائع الوديع فجاء يحمل صحناً من البيض المقلي ثم صحناً من مُتَبَّل الباذنجان، ثم اللبنة والخبز والعنب.

فاستأذنت ان اضيف اليها ما كان معي، ففتحت الزوادة فاذا فيها ثلاث بيضات مسلوقة وبصلتان وثلاثة قوالب من الجبن الطري ملفوفة كلها بارغفة من الخبز.

احبت مسيحية الجبن وقالت انها ستطلب من صاحب الدكان بصنين بضعة ارطال منه.

وبعد الغداء تمت القيلولة في الغرفة المجاورة للدكان، وفيها ما عدا ادوات الطبخ، ديوان وسرير. نمت على الديوان، فامرت مسيحية ان انام على السرير وهي تقول: اهلاً وسهلاً بلهجة من السرور صادقة.

وقد الحت عند الوداع ان اقيم عندها ذلك اليوم فشكرتها بالعربية والانكليزية — وسجلت اسمها مع اسم أم ايلياس السكنتاوية في سفر الخالدات من النساء

العروس المزينة

وأستكبر الاخبار قبل لقائها   فلما التقينا صغر الخبرَ الخُبرُ

احببت هذه المدينة، واحببت اهلها، يوم لم اكن اعرف من وطني سوى اسمه — يوم كنت في الولايات المتحدة الاميركية. وعندما عدت الى سورية كانت اولى رغباتي ان ازور زحله، فجئتها ماشياً من الفريكة، ونسيت مشقة السفر ساعة اشرفت عليها من بين الكروم، وقلت: صدقوا والله — « زحله عروس مزينة » ! فان منظر مدينتكم من اي من هذه المشارف حولها لمن ابهج المناظر في لبنان.

وقفت بين الكروم، على تلك الربوة الجميلة، وحييت المدينة التي هي مسقط رأس اعز اصدقائي في المهجر، وحييت فيها بواسق الحور، لسان حال رجالها، وروافه الصفصاف، لسان حال نسائها، ولجين البردوني الجاري في حياة ابنائها. وقفت متأملاً هذه المدينة المختبئة بين الجبال كلؤلؤة بين الصخور، او كزنبقة بين الادغال، واردد قول الشاعر الانكليزي غراي :

كم زهرة وسط الآفاق عابقة   وحسنها غير منظور من البشر

من الخطبة — الترقيع في العمل — التي القيتها في زحله في صيف سنة ١٩٠٨

اراني في كتابة هذه الرحلة آتياً بما لم تستطعه الاوائل، ولن يستطيعه المتأخرون، حاضراً واستقبالا، الا اذا لجأوا الى طريقتي واقتدوا بي. فان جمع الاضداد لا يستحيل، وبعث الاموات غير مستغرب، اذا استعرضنا

73

حقائق التاريخ، وتصرفنا بتنظيمها تصرف الصائغ او الفنان. هاك ولا عجب، الحاضر والماضي والمستقبل في زمان واحد، ومكان واحد (وهل كان للزمان، قبل ان رأت عينُ الانسان الليل والنهار ماضٍ ومستقبل ؟) قف حيثما اقف الآن اذن، بعيداً بعض البعد عن « عَدَّاد » الزمان، ترَ الاعجوبة ، ولا عجب. فهاك السائح سنة ١٩٠٦ ، والخطيب ١٩٠٨، والكاتب سنة ١٩٣٨، وقد اجتمعوا في شخص واحد، وفي وقت واحد، بل وفي ساعة واحدة، هي الساعة التي انا فيها. كيف لا وانا الان رفيق المكارين المشدّين الى زحلة، والخطيب في حفلةٍ سياسيةٍ برحله في اوائل عهد الدستور ، والكاتب المدون الخبرين، الجامع للنقيضين، فيستشهد بما هو اتٍ على ما قد فات، ويقرن من لم يكن قد آنس الوجود بمن كان يجوب الآفاق ليدرك الادب من الحب الاسمى.

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً   سكرنا بها من قبل ان يُخلق الكرم

اي زحلة، ربة الوادي، ومحجة القلوب ، زيديني حباً ، زيدبني نوراً ، زيديني صفاء في التحنان، وصدقاً واخلاصاً في البيان. ان فيك الاحرار والاحبار، وخلاني وريبَ زماني. ان فيك الشعراء والابطال، احبائي وحيرة ايامي (وهل تستغرب الحيرة، والحيفُ الى جنب النبوغ مقيم ؟) ان فيك جمالاً يغبض، وقد فاضت على ضفتي نهره افانين القصوف واسقام الزمان.

اي زحلة، ربة الكرمة والساقي، وحبيبة العود والناي، زيديني علماً ونوراً. ان فيك الشعراء والادباء والخطباء، وان فيك للعقل السدة العلياء. خطبتُ ودك بنت الحان، وتغنت بواديك الركبان، ومجد بردونك امراة الشعر والبيان. وما كل يوم تقال لك الكلمة القاسية الصافية، المجردة من كل شيء غير الصدق والحب. اذن، استحصي لها، واحفظيها.

زرت الوادي في ايام مجده الاول، الصافي كمجد الجبال. فابهجتني محاسنه الطبيعية الجمة — فسحاته المترقرق فيها نور الشمس، خلواته الظليلة

العابقة بطيب الرياحين، صفصافه المتبجح على ضفتي النهر، حوره الناشر فوق الصخور اعلامه، والهواء المصفّى في مضائق صنين ورواسيه، تستنشقه الطيور فيحلو منها التغريد. وها هنا بين هذه المبهجات بضعة مقاه متباعدة متهامسة، فلا يُجرِّدُ الانس والسرور من المسارح المسيَّجة - لا يحتبس المتنزهين نظر فيها، ولا تُصدّ نواعم الاصوات. بل يأمن المرء حتى على افكاره، فيرسلها مطلقة محلّقة، ويسمع حفيف اجنحتها في مخابىء الافنان، ولفائف الوادي.

اي وادي العرائش، عرائش الحب والجمال، والسكون والجلال، واللهو والخيال، اي وادي البردوني، ملعب الصبيان والصبايا، مضرب الالباء والاصفياء، محجة القلوب الورعة، والقلوب المنعمة، والقلوب الطائعة القانعة - عرش ربة القوافي والاوتار - هودج العروس المزينة! كنت للطبيعة يومئذ، وكنت لابنائها المحبين للطبيعة المقيمين في جوارها الطاهر.

جلست يومئذ تحت العرائش، بين العروش السندسية الزاهرة، وحييت اربابها تحية الحب والاجلال، وحييت يومها الذي كان دوماً يوم عيد. وحملت من الذكريات اطيبها واحلاها، فرفعت لها العرائش في الفؤاد، وتعهدتها بيدَي الغبطة والحبور، وبزورات « هي غُرر في جبين السنين.

ثم قضت الايام بغيبة طويلة الامد، تغيرت في اثنائها الاحوال، وعقليةُ النساء والرجال، فصارت تجارات الناس وشؤون الدول موكولة كلها بالطبل والزمر - بالدعايات تمهّد لها وتغري بها، وتنشر اعلام فخرها وكسبها في اربعة اقطار الدنيا. وما كانت زحلة لتتفرّد فتُستثنى. فراح الحُداة يغنون للوادي، وانطلق البشر يبشرون في كل صقع وبلد بمحاسنه. الصُفَّةُ، الصُفَّة! الاصطيافُ الاصطياف!

وجاء الناس من كل حدب وصوب يصطافون، وسارع الى الوادي المتاجرون والمرتزقون، فغدت المسارح مضائق، والمضائق مطابخ ومختليات. فتبدّل طيب الرياحين بروائح الشواء والاراكيل والأبخرة، وقد تخللتها جميعاً

انفاس الناس المجدّين في القُصوف والمتفرجين غصّت ضفتا النهر بالمقاهي، وسمعت الطيور دق الاجران، فهجرت الافنان !.

الصَّفَّة ! صُفَّةُ المتنزهين والمصطافين – زرتها في مساء يوم من ايام الصيف، بعد ان امست اشهر من عليقة موسى فهالني ما رأيت. جموعاً محشودة في اذرع من الارض معدودة، الى موائد ممدودة، تكاد تكون متلاصقة، فيجلس الناس اليها والظهر الى الظهر، والساق الى الساق، رجالا ونساء. وهم على العرق والكُبَّة منكبُّون، يشربون ويأكلون. ويدخنون ويتخدرون.

الا فليعذر القاري.. اني متغيظ لفرط الحب! لولا ذلك لما حركت اليراع بكلمة في هذا المشهد المقزّز – (منظر الناس يأكلون حتى في ذوق واناقة هو غير مستحب) – لو كانت المقاهي غير متصل بعضها ببعض، ولو كانت الموائد فيها غير متلاصقة متلازّه، فلا يرى الناس حولها غير الناس حولهم، ولا يرون من الوادي غير اغصان الاشجار فوق الرؤوس وقد انعكست فيها انوار الكهرباء.

وهواء الوادي المصفى في مضائق صنين ورواسيه – انه لمثقل بأبخرة المطابخ ودخان الاراكيل، والحامض الكربونيك ! واريج الوادي الفائح من ازاهره ورياحينه – لقد تبدل بروائح الشواء والتّنبك والعرق، المختلطة بها انفاس الناس الكربونية. وزقزقة الطيور في الوادي – لقد قتلتها المدقة وهي تدق في اجران الكبة على الدوام ! . وهاكم الخدامين وقد شمروا على زنودهم ورفعوا اطباق المشروب والطعام فوق رؤوسهم، يخطون بين الموائد والجموع المزدحمة، ويصيحون : «الدرب – افتحوا الدرب !»

زحلة عروس مُزينة، ومزينة بمصطافيها. اين ابناؤك النوابغ يتداركون ما ذهب من جمال واديك؟ اين راعيك [1] يندب مهبط الوحي فيك؟ اين

(١) داجي الراعي

شكريك[1] يرفع صوته عليك كما يرفعه على الظالمين. ابن شبلك[2] يعيد اليك بيا نُه الرياحين، ويقنع الطيور فتعود مغردة الى افنان صفصافك وحورك، وابن خليلاك من بني معلوف الاخوان فوزي وشفيق، يضفران اكاليل الشعر لجمالك المتواري بين الصخور القاتمة، والعرائش الخرساء.

اعود الى ذلك الجمال في يوم مجده، فتحزنني الذكرى، فيبادر الفكر اليّ مؤاسياً. الانسان يشوه جمال الطبيعة باعمال تدفعه اليها اطماعه المادية. والانسان يعوض عن فعلات اخيه الانسان باعمال توحيها اليه المطامح الروحية معولٌ يهدم صروح الجمال، التي لا تُرى كاملة بغير عين الروح، ومعول يبني صروحاً للعبقرية خالدة. والهادم والباني أخوان يتنازعان عوامل الحياة ويعملان في الهدم والبناء على الدوام. انما الكفيل بالتعويض الاكبر بل ببقاء كل اثر مجيد من آثار العبقرية انما هو الزمان.

قلت ان صروح الجمال لا ترى كاملة بغير عين الروح، والانسان الهدام لا يهدم غير الظاهر منها. اما جمالها الروحي، فهو ينتقل او يتحول الى مجارف البنائين — الى لوحة المصور، الى قيثارة المنشد، الى صومعة الشاعر، الى براعة الاديب، هي مصادر الوحي المتألقة يرونها في خرائب الاقدمين كما يرونها في خرائب الطبيعة، وقد غزاها الانسان كسباً وَإثراء. هي هي الارث الخالد للفنون الجميلة

لقد ثُلَّ عرش الوادي فورث مجده الشعراء، ولقد فاز بالقسط الاكبر ابن زحلة الخالد فوزي المعلوف، فحمله الى ما وراء البحار. راح مثقلاً بوقر العبقرية، مكبلًا بقيودها، ففك القيود هناك — في البرازيل — واعاد الينا وحي الوادي في كتاب من الشعر خالد هو «بساط الريح»

وانه ليليق بي ان اثبت في هذا المقام ما كتبته اعجاباً واجلالا في هذا

(١) شكري بخاش

(٢) شبلي دموس

الاثر الشعري الفريد في بابه، وفي شكله وحلياته – فقد كتب مقدمته الاديب الاسباني المعجب بالعرب فرنسيسكو فيلاسباسا، وصور صوره الرمزية الملونة المصور الروسي الي الجانوفتش المتشرب روح كتابنا العربي الخالد كتاب – الف ليلة وليلة – ثلاثة .

« على بساط الريح »

مررت باشباح الاحزان، في ظلمات الزمان،
غداة لاحت في الافق الاسنى،
في الجادّة اللازوردية، بين الفرقدين والجوزاء،
ثُريّا جديدة ذات نجمات ثلاث باهرات،
فسمعتهن يخاطبن من لا تراه العين الفانية.
فقالت الاولى: ثلاثة قلوب في عقل واحد يرتلون.
وقالت الثانية: ثلاثة عقول في قلب واحد يسبّحون.
وقالت الثالثة: ثلاثة ارواح على بساط واحد يسبحون.

وقلن كلهن بصوت واحد وقور وديع: هو بساط الريح، بساطنا، بساط الشعر والفن والثقافة، بساط الاثير، مهد الحقيقة والخيال – بساط الالوهية.

وقالت الاولى كبيرتهن ، ذات اللسان العربي، والصوت اللبناني: وهو صنع يدها المحركة لايدينا، وصنع قلبها النابض في قلوبنا.

. . .

وسمعت اصواتاً تتعالى من حشد الاشباح، اشباح الاحزان، وهي تقول: سعدنا يوماً وشقينا دهرا.

فجاء الصوت من وراء الحُجب مجيباً: احببتم وما آمنتم، آمنتم وما احببتم، احببتم وآمنتم وما فاديتم بشيء لكم.

—٢—

مررت في شفق الزمان باولي الاجنحة المتكسرة، بحشدٍ قاتمٍ منهم ومنهن.

وقد وقفوا في الوادي الذي ينير نصفه قمر من اقمار الشمس الكبرى، فسمعت اصواتاً تتصاعد من ناحية الوادي العاتمة وهي تقول:

عصفت الرياح فكسرت منا الاجنحة.

والصوت من ناحية النور يجيب: لا تتهموا الرياح. فقد آمنتم بالاجنحة والدواليب، وما آمنتم بما يحرّك محرّكاتها. آمنتم بالكهرباء، وما آمنتم بمنشئها. آمنتم بالطيارة، وما آمنتم ببساط الريح.

—٣—

وقفت في قلب الوادي، عند ملتقى الظل والنور، فسمعت صوتاً آخر يقول:

حيوا من احبوا، وآمنوا، وابدعوا، وفادوا بانفسهم محبين، مؤمنين، مبدعين.

وحيوا منهم الثلاثة في الثريا الجديدة، العربي والروسي والاسباني، وحيوا فيهم الحقيقة الكبرى طي الخيال.

وحيوا فيهم الخيال الاتم للحقيقة الكبرى.

بل حيوا فيهم الحب ورموزه، والشعر وكنوزه، والثقافة ودليلها الابصر الاعلم.

76

كان فوزي رحمه الله، واخوه شفيق طال بقاؤه، وليدين يلعبان بالكلل ويطيران طيارة الورق يوم زرت زحله الزيارة الاولى، وتزلت ضيفاً على ابيهما صديقي الابر الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف، صاحب المؤلفات التاريخية القيمة. وكان الابن الاصغر شفيق السابق اخاه لا الى النظم على ما اعلم، بل الى طبع شيء من منظومه في ديوان صغير اسماه الاحلام. فاهداني نسخة منه للنقد، فكتبت اليه كتاباً انقل منه ما يلي :

اشهد انك شاعر. ولكنك في « الاحلام » بعيد عن كنه الحياة ومقاصدها الكبرى . لقد كانت هذه اللهجة — لهجة الكآبة والحزن — زياً بين الشعراء في زمن بيرون وميسه. وهي في ابناء الشرق، وخصوصاً فينا نحن السوريين، داء دفين. فما فضل الشاعر وهو يبكي ويئن مثل سائر الناس .

اما من الوجهة الفنية فان في « احلامك » كثيراً من بديع التصور، وجميل الخيال، ورقة التعبير، ونعومة الديباجة. ولكنك مقلد ، يا صديقي. لا اقول انك مقلد لجبران، وهو مثلك في دموعه من المقلدين. إقرأوا اشعيا بدلاً من أن تغمسوا ارواحكم في دموع ارميا. عودا الى شكسبير وغوته — اذا كان لا بد من العود — بدل ان تحرقوا اصابعكم ومآقيكم في مراحل ميسه وبيرون .

ليس الشاعر ، يا صديقي ، زنبقة في جمجمة. ان في هذا التصور غلواً يسقم، وليس فيه شيء من الحقيقة والجمال. ان فيه تحقيراً للجنس الانساني، وانت وانا وجبران منه، والحمد لله. وان في الكون وفي الحياة جمالا اسمى وابهى واعظم واجل من جمال الزنبقة اللطيف المحدود، وانت وانا وجبران، والشمس والقمر والمجرة، لمعات من ذلك الجمال، والحمد لله.

اما الشاعر فهو من الناس، من صميم الناس. وليس من ظن نفسه فوق الناس بابن عم، لا بن ابن عم اصغر الشعراء. ان الشاعر الحقيقي مرآة الجماعات، ومصباح آمالهم في الظلمات، وانه لعون في الملمات وسيف في النكبات. الشاعر الحقيقي يشيد للامم قصوراً من الحب والحكمة والجمال والأمل. كفكفوا دموعكم، سلمكم الله، وارفعوا لهذه الامة التي تتخبط في الظلمات مشعالا فيه نور، فيه أَمل، فيه صحة وعافية.

هذه الكلمة القاسية، لو كُتبت الى ذي ادعاء وغرور، لهاج وماج، وحمل علي في الجرائد حملات من هياجه شعراً ونثرا: او انه كان سكت وامسك عن النظم حياته. اما المعلوف شفيق فقد نشر كتابي في احدى الجرائد، واستمر ينظم ويستسفر مجلّدات الوحي، وهو يبعد المحجات للشاعر فيه، فجاءنا بعد عشر سنوات بالكتاب الذي يجوز ان يُدعى صنو « بساط الريح » وقد تفضل فاهداني نسخة منه فطالعتها، فاذا شاعرها غير شاعر « الاحلام » واذا هو مثل اخيه مبتكر مبدع، لا اثر في مسلكه، ولا في فنه، ولا في روحه لاحد من الشعراء المتقدمين او العصريين. ولا اثر فيه للدموع! وهو القائل في قصيدة رائعة تلاها في الحفلة التي اقامتها العصبة الاندلسية في سان بولو تكريماً له بعد ظهور كتابه:

حجَّبت عن اهل الحياة دموعهم ودرت عليهم بالرحيق المبرّد

واني الان اثبت الكتاب الذي كتبته اليه، والجواب الذي جاءني منه مثالاً لادب باراني الشاعر فيه، وكان هو المجلّي:

صديقي العزيز شفيق معلوف حفظه الله

ان ديوانك « عبقر » لتحفة شعرية فنية مطبعية، تحق المفاخرة به ليس عندكم في البرازيل وعندنا في لبنان فقط، بل في العالم العربي اجمع. واني اشكرك شكراً جماً على اهدائي نسخة منه

فاضعها الى جانب « بساط الريح » مع دواوين أخر في مكتبي، وهي كلها من كنوز العالم الخالدة.

واني اؤكد لك، يا ثاني الثلاثة — رحم الله فوزي وشدد جناحي رياض — ان سروري وفخري بصداقتي لكم، المنبثقة من صداقتي للعلامة المفضال والدكم، لا يؤثران بما اقول في شعركم. فقد اغضبتك مرة، على ما اظن، في فجر نبوغك.

اما وقد ذكرت الوالد فيجب علي ان اقول، قبل ان احصر الكلام فيك، انه فريد زمانه، بل فريد ازمنة التاريخ قديماً وحديثاً. فهل يا ترى جاء في تواريخ المتقدمين والمتأخرين ذكر والد كان له من ابنائه ثلاثة شعراء! لا اظنك تجد نظيراً، عالماً او امياً، لصديقي العزيز والدك ولو فتشت عنه في تواريخ العالم كلها. فهنيئاً له ثم هنيئاً له.

ولكن لهذه النعمة الفريدة ناحية أخرى جديرة بالنظر. ليت شعري ماذا كنت اقول وبماذا كنت اشعر، لو كنت انا أباً لثلاثة شعراء، وكل منهم يروم مشاركتي في الكرسي التي لي، او الموعود بها، في دار الخلود؟ وقد لا يكون من قسمتي في سفر الشهرة والمجد غير سطر واحد يحمل للعالم خبري كله، وهو اني والد الشعراء الثلاثة!

ومع ذلك يجب علي، كأب يحترمه الناس، ان افتخر امام الناس بشعرائي الثلاثة الاعزاء، واتصنع الفرح والابتهاج، ولو ركبوا على منكبي وشرعوا ينظمون الشعر ويرتلون. اما امام الله فاني والله استجير برب عبقر منهم، واقول لوالدتهم — ولكن ما الذي اقول للوالدة التي ارضعتهم حليب العبقرية؟

وما هي هذه العبقرية التي تشقي صاحبها، على الغالب،

وتسحر الناس ؟ لقد حملتْ اخاك فوزي على بساط الريح الى اعلى آفاق الحياة العاطرة الساكنة، الخالدة في تسلسل الحانها واشجانها.
ولقد حملتك انت الى عالم الجن الصخاب المهاب — بشهادتك — الخالد في تسلسل اوهامه واحلامه. ومن الحقائق ما كانت امس من الاوهام ، ومن مفاجئات الوجود ما كانت احلاماً. اوليس الشاعر ادرى الناس بذلك ؟

ولكنك حملت الى « عبقر » عقيدة واهية، وقساوة متناهية، وسخرية آسفة لاهية. وقد كان شيطانك مخيفاً (أتذكر شيطان ابراهيم الموصلي الذي زاره ذات ليلة كما جاء في قصة من قصص الف ليلة وليلة، وعلمه الغناء؟) وكانت عبقرك غير مستحبة فقد جاء التنافر في وصفك لها اذ قلت :

غمائم زرق على متنها   منازل جدرانها تسطع

فافسدت هذا الجمال في البيت الثاني :

تثور في ابراجها ضجة   بها يضيق الافق الاوسع

وقد كانت ساحرتك فظيعة

تضطرب   الارض   متى   اقبلت

قاذفة الييست (عازفة) احسن عزيفها المنكرا

يظهر لي ان علم والدك ، الحافلة به صفحات المقدمة لديوانك، ما أثر بك او بيقينك السلبي في الجن. فانت، على رغبتك في استكشاف امورهم واستطلاع اخبار عبقر ديارهم، لا ترى فيها غير ملعب لعبقريتك، ومصدر وحي لما قررت من اتجاه شعرك.

سامحك الله، ووقاك شر من وصفت، وان كان في وصفك من الابداع ما يعبث بالقلوب وطوراً يروعها. ولقد وددت لو ان

الساحرة من الجنس الذي لا يروع الناس. ووددت لو انها ساحرة جميلة لها فيما تقول شيء من الجدة والجمال فاذا بها شتامة سبابة فظيعة مثل جنايات القصص المفجعة.

والشاعر، يا اخي، كما يتمثل في اكبر العباقرة حتى وفي اكبر الساخرين المتهكمين منهم، لا يتجرد كل التجرد من الرأفة والرجاء، وحسن الظن والأمل.

فهو يجلد الناس باسواط غضبهم، او يخجلهم بقهقهات سخريته، ولكنه لا يهدم الجسر القائم بين حياتهم هذه وبين الحياة الأخرى.

أقول الاخرى لا الآخرة، لاني ممن يعتقدون بحياة أخرى هنالك، فيما وراء عبقرك وفوق ابسطة الريح كلها. بل اني اعتقد بحيوانات أخريات، وان كنا لا ندرك اليوم كنهها واهدافها اننا لا نزال في القشور من اسرار الوجود

فهل يجوز ان تقول: تلاشت الاوهام، واهلها ماتوا.
وما استدراكك، على جماله، بخير من ادعائك:
لكن من يهز منا الرفات
فهو الذي ...

لا تستطيب النجوم — غير تهاليله وليس تبكي الغيوم في غير منديله

هوذا الجمال والروعة في الحزن الابدي. وهوذا الحزن الابدي في الحب الذي قلت انه «لصيق الثرى»

فياأخي الشاعر، فتحت كتاب «عبقر» وانا اتصور فيه الخير الاكبر الاصفى، او اتأمل ان يكون في الاقل حاملا لبني آدم الذين يجتازون في هذا الزمان اشد واظلم العقبات المفجعة، شيئاً من نور العطف والامل، واشياء مؤاسية منعشة من وراء

سجوف الغيب، فكان غير ما تصورت، وغير ما املت

لا تظن، رعاك الله، ان هذه الحال النفسية حالت دون تقديري محاسن شعرك، واستطيابي نتائج عبقريتك. فقد تصفحت الديوان تصفحاً عندما وصل اليّ، فاستوقفني في بعض مقاطعه سهام نارية مغلفة بسحب شفافة، ورائحة كبريتية، يخالطها روائح الادغال العطرة، كما استوقفتني رسومه، وقد اجاد المصور في اكثرها رمزاً وفناً.

ثم طالعت الديوان مطالعة المتلذذ المتأمل، وقد ابهجته آفاق فيه لألاءة، وادعشته هاويات صخورها هاوية، وقعورها شاوية. وهو في الحالين معجب بالهام صاحبه وبخياله، وبما في فكره من بلاغة ووضوح. ولست مبالغاً في قولي ان في ديوانك هذا شيئاً غير يسير من روعة الشعر الابدية، وفيه للخيال والفكر امثلة نادرة من القوة والجسارة، وفيه من السلاسة والانسجام والاقتصاد باللفظ ما لا تجده في كثير من القصائد الطويلة والدواوين الضخام

فاهنئك وادعو لك بالمزيد مما وهبت واحرزت حفظك الله واطال عزيز بقائك

الفريكة في ٦ تشرين الاول ١٩٣٦

صديقك : امين الريحاني

وهاك بعض ما جاء في الجواب :

شئت يا سيدي الاستاذ — من حيث لا تريد — حشري بين عبدة التقريظ وما انا منهم. تقول انك أغضبتني مرة في فجر نبوغي، وتعني نقدك الاحلام منذ عشر سنين. فنفياً لظنك افيدك انني نشرت مقالك المذكور منذ اكثر من عام في مجلة « العصبة »

79

عندنا، وإخالك لا تحمل عملي على غير محمل الاعجاب والتقدير وفي نقدك ما فيه من نظرات خبير ناضج وآراء فيلسوف حكيم.

اما وقد عرفتك الى هذه الناحية من نفسي فقد جاز لي ان أجاذبك الرأي فيما كتبته عن « عبقر » لا حباً مني بالجدل بل طمعاً بالاستزادة من ترشف معين حكمتك، والاستعانة بجليل آرائك.

تقول في مستهل نقدك : انني «حملت الى عبقر عقيدة واهية» ثم في مكان آخر : « انا لا نزال في القشور من اسرار الوجود » فماذا عليَّ اذن ونحن لم نكتشف بعد سر الوجود، اذا كنت في عبقر شاعر جمال لا شاعر عقيدة، فيممتها غير ناشد للناس فلسفة من وراء الغيب بل متغنياً فيها بجمال الحياة وهناء أهل الحياة ؟

بل ماذا عليَّ اذا جلدت شرور الناس بسوط العرافة «الشتامة الفظيعة» او اكبرت بهجات الحياة بلسان الجنة الجميلة الساحرة، ما زلت قد فتحت جفني في عبقر على متناقضات الحياة جميلها وقبيحها، فرسمت في ألواحي ما وقعت عليه باصرتي واحست به نفسي ؟

اما ان اكون حسب قولك « قد هدمت الجسر القائم بين حياة الناس والحياة الاخرى » لاعتقادك « بحياة أخرى بل بحيوانات أخريات » حددت مكانها « وراء عبقر وفوق ابسطة الريح » فذلك معتقد يرتكز على الظن ويتكي على عصا الايمان، والايمان عزاء للناس وأمل، ولكنه في رأيي ضعف منهم وخور، ولو تسامت في البشر الثقافة الباطنية فكانوا ابطالا في المعتقد الذي لا غبار عليه للحدس والظنون، اذن لاشفقوا على العمر القصير يقطعونه على الارض بالاذى والشرور، وجملوا وجوه الحياة

القبيحة، ورفعوا بينهم ألوية العدل والحق والسلام، حتى اذا انتقلوا الى الحياة الاخرى حلموا بالارض في السماء عوضاً عن ان يحلموا بالسماء على الارض

وما انا في شعري سوى قلب مؤمن أطل على الاحياء من جفن ملحد
سلكت سبيلاً قد اكون ضلالته وربة غاوٍ بالغواية يهتدي

« حلموا بالارض في السماء » . وهذا الشاعر رائد الفكر الرائع — السديد ؟ — في الخيال المشرق البعيد، البعيد على الدوام.

يجب ان تكون حياتنا الدنيا احسن ما في الحياة البشرية كلها، ان كان هنا وهناك وهنالك انها لفكرة مروّعة، وان فيها ليتسع مجال البحث. فهل يفضل الانسان نعيماً يتبعه الموت على موت يتبعه نعيم ؟

لا اريد ان تكون الكلمة الاخيرة لي. فالشاعر، وهو ضيفي في هذا الكتاب، احق بها.

اذن : ان نحلم بالارض في السماء خير من ان نحلم بالسماء على الارض.

واذن : اعود الى الرحلة، فاختم هذا الفصل بالكلمة التي عنونته بها — رحلة عروس مزيّنة — وازيد : ومزينة بنوابغها.

القصر المنيف

ودعت زحلة ومضيفي فيها العلامة المفضال ابا الشعراء الثلاثة الاستاذ عيسى المعلوف، وحملت عصا الترحال، متوكلاً على الله، وراجياً ان يجعل المرحلة الاخيرة خير المراحل، او يختمها بمثل ما تقدمها، في الاقل، من خير ونعمة.

ولّيت وجهي شطر الغرب الجنوبي، بعد خروجي من زحلة، وسرت في طريق معبدة للعربات، في سهل البقاع، بين الحقول المزروعة، والكروم التي تكسو الربى، تلك الكروم الوديعة الجاثية على الارض، وقد اختبأ العنب تحت اخضرارها البهيج.

وهذي من الكروم ابهجها اخضراراً، واجملها منظراً، واكثرها رعايةً، واغناها ثماراً. كل جفنة منها تنطق بالشكر لليد العاملة فيها، الحارثةِ المشذّبة المثابرة، المستمدةِ حذقها من العلم الفني، واخلاصها من الخُبر والحب، واختصاصها في الادارة والنظام.

كروم هي بهجة البقاع وفخره، في وسطها بيوت تقارنها ذوقاً واتقاناً — لا فخامة ولا ابهة تشوهها. بيوت واطئة السطوح وادعة، ظاهرها يحدّث بداخلها، ويحملك على الاعجاب والاحترام. وبين تلك البيوت كنيسة مثلها وادعة وبناية أُخرى ذات قبة لا تشبه قباب الكنائس.

اننا في الكسارة، ايها القارىء العزيز، كسارة الآباء اليسوعيين، وقد برَزَتْ فيها حقيقةٌ من حقائق الحياة الدنيا، حقيقةٌ تدعو للاعجاب، وتثير الشجن والاكتئاب.

— أتقنِ العمل الفني، وأحكمْ عرى التضامن والنظام، وثابرْ واجتهدْ،

تكسب الدنيا — والآخرة . ؟ ! كن ما تشاء في باطن حالك ، مؤمناً او ملحداً، عفيفاً او فاسقاً، حنوناً رؤوفاً او عاتياً، وكن طائعاً مجتهداً غيوراً صبوراً تظفرْ بالنعمة، خيرك الاكبر. وما سوى ذلك باطل كله وقبض الريح، اعلم ذلك، ايها الاب المحترم، وادأبْ عاملاً، لا لخيرك، ولا لخير الناس، ولا لخير الوطن، بل للخير الاكبر الذي يشمل الوطن والناس جميعاً، الخير الاكبر الذي يبدأ برهبنتك، وينتهي، بعد كنيستك — برَهبَنتِك.

قال النبي داود يا بنَي، أَعطني قلبك. كأني باليسوعي الاكبر يقول لاخيه : يا أَخي، أعطني ارادتك. وكأني بكل اب يسوعي يقول للعامل او الخادم او التلميذ في ذمته : يا بُنَي، أعطني الارادة منك واليد والعقل، وَخلِّ القلب، يخدمك في الزلفى اليه تعالى. أُسلُكِ المسلك الذي يؤدِّي الى الغرض المنشود، وان كان المسلك مظلماً، وان كان كثير الاعوجاج.

العملَ العمل. الطاعةَ الطاعة. النظامَ النظام — وسبحان العالم بذات الصدور. دَعِ المؤذن يؤذن بالفلاح، ودونك بالثار. دَعِ المصلح ينشد الحرية، ودونك بالسلطة التي تسيطر عليها. دَعِ المتفلسف يتفلسف بالحق والعدل والمساواة، وحسبك القوة والسلامة والطمأنينة التي تقوم مقامها. يا أَخي، أَعطني الارادة منك واليد والعقل، أَعطِك الخبز والقناعة، وأعطك الحكمة الموزونة في ميزان السوق. وكل ما سوى ذلك باطل وقبض الريح

وهاك المثل الاعلى في الكساره — كروماً هي بهجة للناظرين، وكنيسة هي الستر اليقين، ومرصداً لا يشين، وخمراً فاخراً يباع للمؤمنين ولغير المؤمنين، فقل السلام على اليسوعيين.

على ان هناك ما يدهش حقاً ويغيظ. اليسوعيون يعطوننا المثل الاعلى في العمل، والجيران من اهل البلاد يرون بعيونهم ويسمعون بآذانهم، ولا يتعلمون، ولا يقتدون. فما زلت تمر بالكروم البهيجة العامرة فقل انها للآباء المحترمين. وعندما تدرك حدود ارضهم تستقبل كروم الاهالي الناطقة

بكسل اصحابها، وبالجهل منهم والاهمال. ان الفرق بين الكرمين، كرم اليسوعيين وكرم الوطني كالفرق بين البقرة السمينة واختها العجفاء.

وصلت الى تَعْلُبايا، فعرجت على بيت لشريك احد الاغنياء. وقد كانت الوالدة تصلي من اجل هذا الغني صلاة خاصة، ما اظنها تجديه نفعاً يوم القيامة فقد كان مرابياً، يبز سائر المرابين اللبنانيين بنعومة صوته، ولطف ابتسامه، ودقة اساليبه. وقد كان يسوعياً في ادارة شؤونه. أعطني يا بني، ارادتك ويدك وعقلك، وخلّ قلبك لك ولربك. هو السيد المطاع، وهو السيد الوديع الحكيم. كان يعمل عمله باسماً مغرياً على الدوام، يمد يده الى كيسك فيوهمك انه يضع فيه، بينما يأخذ منه المال، قد يكون اقتبس هذا الرجل بعض علمه باخلاق الناس من جيرانه الاباء المحترمين. وقد تكون تلك السجايا سجايا فطرية. ولكنه وشركاءه جاوروا اليسوعيين، وما اكتسبوا شيئاً مما ظهر في ارضهم من مظاهر العلم الفني، او من مظاهر الاجتهاد والاتقان في العمل.

اكلت لقمة في بيت الشريك وواصلت السير الى شتوره، التي كانت يومئذ بكاملها ملك امرأة لبنانية زَنَمْرَدَه اسمها شُق مثل عملها من الحديد. ولقد جارت الاباء اليسوعيين في مضماري الزراعة والتجارة. وكان شأنها في النجاح شأنهم — او كاد يكون. مما لا ريب فيه ان خمر شتورة كان مشهوراً كخمر الكساره، وكانت الزَّنمَرديّه واليسوعية فرسي رهان.

وفي ذلك الزمان ما كان في ساحة شتوره — طريق بيروت دمشق — غير خان واحد وفندق ومقهى. يتثاءب الناس فيها، وتتثاءب هي في ظلال الصفصاف. وما كانت لتحلم بن سيجيء شتوره في المستقبل ويشرف اسم الفنادق فيها، فيرفعها الى منزلة النُزُل العصرية. فهاكم اليوم ايلياس المسابكي نسيب القديسين، ومُطعم الجياع والمساكين ومُؤوي المعوَّسين، ومقيم المآدب للفرنسيين، مجاناً لوجه الله في اكثر الاحايين.

وعلى ذكر المآدب نحيي اميرها وخطيبها ونحن مارّون بارضه ومقره نحيي روحه المبخرة المعسلة. فقد كان يخدن الامراء والحكام، وكل صاحبِ لقبٍ ومقام، وخطيبَ المحافل الرسمية، في سورية ولبنان. هو المبخّر الاكبر، والمهلل الاشهر، حيثما حل امير او سعيد او صاحب دولة خطير، هو سليم ايوب ثابت، تغمده الله برحمته.

هذا قصره في زبدل، وهذا المفرق في الطريق، جنوباً منه، يمتد بين بساتين التوت الغضة، وهو مزّين الجنبين بالحور والصفصاف فيظلّلك ويرافقك الى عين البركة في الجوار الشريف.

ان الاسم ليستوي ومسمّاه. فهناك نبع ضحضاح، وشادروان يَليق بالملاح والاقداح، وظلال للصفصاف وارفة، وسكينة ضمختها الرياحين بطيب شذاها تتهامس فيها الاغصان كلما مر النسيم، وتصفق طرباً لكل زورة من رياح الشرق والجنوب، فتغرّدُ لها العنادل والحساسين. انك لتسمع في عين البركة همسة من همس الجنة، فتنسيك ما انت مقيدٌ به من زمانٍ ومكان، فاذا كنت وحدك فسرحاً للاحلام، واذا كنت والحبيب فهنيئاً للحسون والعندليب.

استأنفت السير الى المريجات، مسقط رأس الفوارس الثلاثة اميل وفيليب وفيليكس، وُلدُ المحامي حبيب فارس رحمه الله، وزوجته الافرنسية الجنس السُّويدنبُورغية المذهب — اقلية الاقليات المذهبية في هذه البلاد.

ما كنت اعرف احداً منهم في تلك الايام، فمررت بمهد الذكاء، والادب ربّة الغريب. وعوضت بعد ذلك عما كان من جهلي بما لا يزال كائناً من صداقة مقرونة بالحب والاعجاب. وَليَعذُر الاخوان فيليب واميل اذا انا اختصصت فيليكس بما يستحقه من وزّال الذكر وقندوله. وهو اللبناني المحب لنباتات الجبل العطرية، الزاهرة والشائكة. ورب شائكةٍ زاهرة ازكى شذى من زاهرة ناعمة.

82

فيليكس فارس الاخ الحبيب، والزميل الكئيب، المشرب بنانه تصوّفَ أمه، الناشر اعلام الفكر الحر والانسانية الحرة في البلاد، خطابةً وكتابةً نثراً وشعراً، الضارب في اللانهاية خيام خياله، المسيّر في هذه الفانية قوافل بيانه، وقد بذل بسخاء عجيب مما وُهِب واكتَسَب في سبيل الاجانب المسيطرين — الترك والفرنسيين — وندم الندامة الكبرى بعد ذلك.

فيليكس فارس الملوِّح من اغواره للجوزاء، الناظر من عليائه، بعين الرأفة والحنان، الى المستنقعات البشرية.

فيليكس الخطيب المفوّه، فيليكس الشاعر الملوّع، فيليكس الاديب المُروّع — فيليكس الضحية الكبرى، ضحية الادب وضحية السياسة!

فلو انه حصر قواه ومواهبه في الادب لكان اليوم من اكبر ادباء العرب. ولو انه تجرد للسياسة لكان اليوم السياسي الكبير فكراً وعملاً، ونزاهة وقدراً. ولكن للدهر في نوابغه بهجاتٍ وغصات، وَهتَفَاتٍ وَأنّات.

صعدت من المريجات في الجبل الشبيه بجبل الحياة الذي صعد فيليكس فيه، فكنت مكتئباً مثله مما تعالى امامي وانعطف وتوارى حولي من الأسناد القاحلة والربى الماحلة. هو الجبل العامر في شطره الشرقي المشرف على سهل البقاع، العامر بالقرى والبساتين في شطره الغربي المشرف على البحر المتوسط. الا ان الشطر الشرقي لا يخلو من اصقاعٍ تلطفها الكروم، ووعورٍ مخضرةٍ بعض الاخضرار يسرح فيها قطعان من المعزى، تنقط صخورها الدكناء وتزركشها، فتبدو كصورة صورها بريشة الجهر احد المصورين. هي الصرود في أعجف حالها، وخصوصاً حول ضهر البيدر، القنة العليا في الجبل، (١٥٠٠ متر) القريبة من مستوى النبع في سفح صنين.

ومن ضهر البيدر ننزل في انحدار خفيف، والتفاف يحجب حيناً الوادي الممتدة فيه سكة الحديد، وحيناً يشرف عليه، فنصل الى المديرج، ومنها الى الحجة القصوى، مصيف اعيان بيروت، صوفر العامرة، صوفر الشامخة

الشائقة، صوفر ذات القصور المنيفة، ونقطة دائرة الاصطياف والقمار في لبنان .

عندما خرجت من البيت بالفريكة كنت مقيماً في ذهني محجتين لهذه الرحلة، هما زحلة وصوفر . الاولى لشوق نشأ عن حبي لابناء زحلة وبناتها في نويورك، والثاني لفضول هو ان اتفرج على اعيان بيروت في لهوهم، وعلى « الكازينو » مفخرتهم الكبرى، فأرى للمرة الاولى – العلم بالشيء ولا الجهل به – دولاب ال « رولِت » .

وما كان يومئذ في لبنان غير « كازينو » صوفر، ولا كان في بلدات الاصطياف اكبر وافخم من النزل نزلها . فالفضول اذن مغفور .

ها اناذا في القصر المنيف، والحمدلله . العفو، ايها القارىء العزيز، لقد استعجلت النعمة . فاني لا ازال في الروضة الزاهرة، القائم في وسطها القصر، جالساً على احد المجالس المنتثرة بين اشجارها السامقة، جالساً استريح وأُهيّء النفس للنعمة الكبرى . ولكني، وانا في تلك الحال، استشففت ما حولي ومَن، فاذا بالعيون، عيون السيدات والسادة، الجالسين الى الموائد المدورة بين الاشجار يشربون القهوة او الشاي، اذا بتلك العيون تسدد الي سهام التساؤل والتعجب . واذا بصواحبها واصحابها يتهامسون ويتهاتفون ! ماذا ؟ قيافتي ؟ شكلي ؟ لا انكر اني كنت فذاً شاذاً في الاثنين . ولكن المتمدنات والمتمدنين، والمهذبات والمهذبين، لا يستغربون مستغرباً في الحياة . او انهم يغضون الطرف شأن الكرام .

دخلت النزل فراراً من نظراتهم الحادة . ومشيت في ناحية من الدار غصت بالناس، وهم يدخلون باباً هناك ويخرجون منه . فتبعت رهطاً من الداخلين، فاذا انا في البهو الكبير، الحافل بالموائد الزرقاء، الجالس اليها اللاعبون واللاعبات بال « بوكر » والدياكا، وقد سادهم السكون والوقار، وشيء بين الاثنين لا ادري ما اسميه . هل هو العياء ؟ هل هو القرف ؟ هل

هو اليأس المتشبث بالامل ؟ هل هو التحجر الروحي ؟ ام هل هو مزيج من جميعها مخدِّر للاعصاب وللاذهان ؟

خلت اولئك الناس في معبد يصلون. وخلتهم في قهوة يتعاطون الحشيش. وخلتهم في مؤامرات سياسية. وتصورت النساء وايديهن في جيوب الرجال، والرجال وايديهم في اكياس النساء، وروح الحظ بجناحيه، الاسود والابيض، يرفرف عليهم جميعاً. دعهم يلعبون، ويقرفون، وييأسون ويدفنون موتاهم.

هي ذي الـ « رُولِتْ » بمائدتها الطويلة الخضراء المدبجة بالارقام وبالمربعات الخضراء والحمراء، المزدانة بتلك الدائرة العجيبة في وسطها وبدولابها الاعجب. وهوذا القيّم الموقر واقفاً وراءها وكرة العاج البيضاء الصغيرة بيده، والى جنبه الة بعصا طويلة يجرف بها المال ويدفعه. والناس امام المائدة يضعون اموالهم على الارقام او على احد المربعات الخضراء والحمراء. اللعب، اللعب!

وعندما تنتهي عملية المشارطة يقول القيم بصوت السيد الوقور، وبالافرنسية: Rien né va plus ثم يدير ذلك الدولاب، ويطلق في جورة دائرته كرة العاج، فيدور الجميع دورة واحدة سريعة تكاد لا تتميز من سرعتها، وتخف بعد هنيهة رويداً رويداً، فتظهر الكرة وهي تدور وتتنقل في ثقب في الدائرة المجوفة الى آخر، من رقم الى رقم ولون الى لون، وعيون اللاعبين شاخصة اليها محدقة بها، والقلوب منهم خائفة واجفة فترسو الكرة الى ان يهدأ الدولاب في الثقب الذي فيه نعيم لاناس وجحيم لآخرين. فيوزع القيم المال على الرابحين، ويجرف اليه ما تبقى على المائدة. اللعب، اللعب!

لا اكتمك اني في مشاهدتي الاولى لهذا الاختراع العجيب أخذت به، سحرت به. وحسبت نفسي سعيداً بان ادركت مأرباً هو ان ارى

ال « روك » طالما رغبته وعللته بالآمال. وبين انا في هذه الغبطة حدجني احد اللاعبين، الخاسرين، على ما اظن، بنظرة منكرة، وارسل القيم من طرف جفنه برقية الى الحاجب، فجاء الحاجب، وهو جبار عمليق في بزة عربية — سراويل من الجوخ و كبوان مقصب ومنطقه من حرير الشبقلي — جاء هذا الحاجب بين انا في قلب الغبطة والغبطة في قلبي، فوضع على كتفي يداً ضخمة ثقيلة وقال : تفرجت ؟ قلت اتفرج. قال : تفضل قلت : لفرجة أخرى ؟ فاعاد الكلمة : تفضل ، وهو يتقدمني . فاستوقفته سائلاً : هلا يعرف غير هذه الكلمة ؟

فاعادها دون ان يغير لهجته الناعمة، وعاد يلقي يده على كتفي، وهو يفتح الباب. فقلت بشيء من الغيظ. وما المعنى ؟ أتطردني ؟

فاضاف هذه المرة الى كامته الفذة قائلاً : ممنوع الدخول لغير المقيمين في « الاوتيل »

كنت اعلم ان الكازينو مفتوحة لكل الناس المقيمين وغير المقيمين ولكني لم اقل له : انت كذاب. هو عمليق وما انا بجبار . فقلت وانا أفكر في قيافتي وشكلي . اني اقصد « الاوتيل » للاقامة.

فقال : تفضل ادلك على المكتب تسجل فيه الاسم الكريم.

فقلت : انك تحسن النطق كما تحسن الطرد.

ثم جازفت بالسلامة فغيرت اللهجة قائلاً : ولكنك ستندم على فعلك. ستندم. اين المكتب ؟ اين المدير ؟

وكان المدير انعم صوتاً، واعذب منطقاً من الحاجب .

— « الاوتيل ملان، موسيو »

— ولا سرير فارغ في غرفة صغيرة

— « ولا سرير واحد موسيو . »

— انام على الديوان في الدار

— «غير ممكن، موسيو. غير ممكن.»

فهمت كل ما وراء هذا اللطف المنكر. الضيوف — يجب ان تحافظ على راحة الضيوف — وخصوصاً على عيونهم.

مشيت عائداً الى الباب، فمررت بمرآة على الحائط، فوقفت لحظة امامها، وقلت في نفسي: انك حقاً شيء مفزع.

ولكني عقدت النية على ان انزل في النزل العظيم تلك الليلة، والّا اكن مدحوراً.

خرجت الى الجنينة فاتجه الامل اتجاهاً جديداً. القطار من بيروت يصل الى صوفر ساعة الغروب مقلّاً المصطافين الذين يذهبون كل يوم الى اشغالهم ويعودون. فلا بد ان يكون بينهم من يعرفني فيعينني على «المتمدنين» وينقذني من عار الخيبة.

جلست على احد المجالس في الجنينة انتظر، وما كان موعد وصول القطار بعيداً.

طُردت من النزل، نعم، وقد وصل الخبر الى جريدة ببيروت في اليوم التالي، فنشرته بشيء من المبالغة، فتناقلته بعدئذ الجرائد في الوطن والمهجر، وجسمته ليليق بالمطالعة فقالت اني ضربت الحاجب بعصاي فشججت رأسه!

كنت في تلك الايام نحيلًا استعذب قول المتنبي — لولا مخاطبتي اياك لم ترني. وما كنت احسب نفسي مثل جلياط، قوتي بشعري. وقد قلت لك ان الحاجب عمليق جبار، ونسيت ان اقول ان شاربيه كانا طويلان مفتولان مقعنسسان عظيمان. يضرب صاحبهما بالسيف اعتزازاً بهما، ودفاعاً عن عظمتهما فهل يعقل ان اكون جازفت بالسلامة بغير تلك الكلمة: ستندم على فعلتك هذه انما هذه هي الحقيقة بكاملها.

وبعد هذا التصحيح في الرواية اعود الى القصة ارويها بما تقدم من التدقيق والتحقيق، فلا تُعَد من خزعبلات التاريخ.

جلست في الجنينة انتظر الفرج من عالم الغيب . وما همتني عيون الناس، وقد ازدادت عدداً وشغفاً، لما ذاع في الحال من خبري داخل النزل. واظنني نمت او تناومت، فلا ترى عيني تلك العيون. بل اغمضت جفني وانا اروح القلب بشيء من التفلسف واعتصم بالصبر. في تلك الساعة، وانا في هذه الحال، شعرت بيد تهزني هزّة لطيفة، فانفتحت عيناي على صورة الفرج والحبور. كان القطار قد وصل من بيروت، وكانت اليد يد صديقي العزيز الأبر جرجي ديمتري سرسق، جابر عثرات الكرام في زمانه — « هذا انت يا امين ! متى جيت ؟ ولماذا انت هنا ؟ قم ندخل « الاوتل » .

قصصت عليه قصتي فضحك، وهو يرمقني بنظرة لمست شعري وشامت قدمي. ثم بدا في وجهه التغيظ، فأخذ بيدي ودخلنا النزل وهناك في مكتب المدير صب صديقي جام غضبه.

— أتعرف من أهنت ؟ هذا فلان — هذا — هذا — (الخ) اين مرعي. تعال يا مرعي استغفر الافندي. (يجيء الحاجب فيستغفر جرجي بك ويستغفرني).

ثم الى المدير : أعطه احسن غرفة عندكم.

فينادي المدير احد الخدم ويأمره ان يدلني على الغرفة. وبعد قليل يجيئني الخادم وبيده من صديقي مشط وفرشاة. ثم يجيء، باشارة منه، مسّاح الاحذية.

وبعد ان نفضت عني غبار الطريق، وغسلت، وسرحت بالمشط شعري، وبعد ان عادت اللمة الى حذائي، نزلت الى الدار حيث كان جرجي بك ينتظرني للعشاء.

دخلنا ردهة الطعام الطويلة، وكان اكثر الضيوف قد جلسوا الى الموائد المتعددة فيها فمشينا جنباً الى جنب الى المائدة الصغيرة المختصة بصديقي، وانا معجب بجرأته الادبية التي احتضنتني، على ما كان من قيافتي وأمري،

واقتحمتْ بي تقاليد الاعيان وترهات كبريائهم . فاعاد الي شيئاً من بهجة الحياة، فنظرت الى الضيوف لارى اين تلك العيون التي غزتني في الجنينة، فحملتني على الفرار منها، اين هي ؟ هي الان مقصورة مغضوضة . هي الان عيون كرام الناس — كرام الناس بالقوة . إعجب لهذه الهيئة الاجتماعية، التي تُذِلّ وَتُذَلّ، بقدر ما فيها من جهل و كبريا،، وبقدر ما فيها من تمسك وخنوع . . . جرجي ديتري سرسق صديق الرجل، اسكتي . . . هو من اصدقاء جرجي ديتري، « مُن شير » غض النظر . . .

وقد أُقيمت في النزل تلك الليلة حفلة راقصة، فوقفت وصديقي في البهو الكبير نشاهد الراقصين، واكثرهم في الثياب الرسمية، والراقصات في شتى الازياء الباريسية، والفساطين كلها مقورة الصدر « دِ كُلتِه » . وقد كان يُحسَب هذا الزي في تلك الايام ضرباً من الخلاعة . فقلت اصديقي، في سذاجة مصطنعة، لا اطيق مثل هذا المشهد بدون اجتماع . فهل يُباح في هذا النزل ؟

ما جازت سذاجتي عليه، فجاراني بها قائلًا : أيتهن تريد ؟

فأشرت الى دعشوقة شقراء، في ثوب بنفسجي اللون، فناداها باسمها، فاقبلت تتغنغ بالافرنسية، فقدمني اليها قائلًا : هذا فلان الكاتب الشاعر .

فقهقهت وهي تقول : Vous vous moquez de moi وراحت مُدبرة، فكفَّرت واسترضت .

قال صديقي ضاحكاً : اتريد غيرها . فقلت اشكرك اكتفيت .

وفي صباح اليوم التالي ناديت الخادم وسألته اذا كان في النزل ماء حارٌ للاستحمام .

فقال : حاضر، سيدي . ساشعل النار في ألأزان » وبعد ربع ساعة تشرف الحمام .

انتظرت ربع ساعة، وربعين آخرين بعد ذلك، ثم رحت « اشرِّف »

الحمام، ففتحت الباب، فرُددت مدحوراً. ردني الدخان الذي انتشر من الغرفة كما لو كانت فوهة بركانٍ مستعر، واستمر في ذلك فملأ الدار، فهزع الخدم وهم يصيحون : النار ! النار !

النار ! سمعها الضيوف، فخرجوا من غرفهم، رجالاً ونساء والبعض منهم في ثياب النوم، وقد استولى الخوف والذعر عليهم جميعاً، فتزاحموا على الدرج وتقافزوا الى الطابق الاسفل.

ماذا جرى ؟ اضرم الخادم النار في موقد خزان الماء، ومضى في اعماله الاخرى. وكان قسطل الخزان مكسوراً، فامتلأت الغرفة، حُشيت حشواً، بالدخان.

ولقد ادرك ذلك احد الخدم فوقف في الباب يهز برأسه، فدفعت به الى داخل الغرفة صائحاً : هز يديك افتح الشباك.

وبعد قليل جاءني يقول: راح الدخان. طار كله من الشباك. تفضل شرف.

فشرفت المكان ثانية فاذا بالماء الحار في الخزان قد برد !

سألت الخادم: ولماذا لا تصلحون القسطل ؟

فاجاب، وهو يهز رأسه: لو كان القسطل وحده كانت المسألة هينة.

قلت: وهلا يستحم الضيوف ؟

قال: مرة في الزمان يطلب ضيف مثل حضرتك الحمام. واليوم نصلح القسطل، وغداً ان شاء الله يكون لك ما تريد.

قلت: اشكرك ، اكتفيت.

نعم ، اكتفيت بما في النزل الشريف، والقصر المنيف، من طيبات الحياة.

وقد كان في النية ان اكمل الرحلة ماشياً الى الفريكة فأمرَّ بجانا في طريقي الى صليما، ومنها الى بعبدات، فبكفيا، فبيت شباب.

86

ولكن صديقي جرجي ديمتري سرسق، رضي الله عنه، ابى علي ذلك.
وقال بشيء من التأنيب: أما اكتفيت بستة ايام من المشي ؟
فقلت: اكتفيت، ان شئت انت.
وقد رافقته، اذعاناً لمشيئته، في القطار الى بيروت.

الرحلة الثالثة

بلاد جبيل

•

محتويات الرحلة

الشريك (١)

يقول العالمون بتاريخ الأُسر اللبنانية، وفي طليعتهم صديقي الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف (وهل في الطليعة او في المؤخرة غيره ؟) ان اكثر اللبنانيين في وسط لبنان وفي طرفه الجنوبي انتزحوا قديماً من الشمال، وخصوصاً من جبيل. وما سألت لبنانياً او بيروتياً جبلي المحتد: من اين اجدادك ؟ الا واجابني: اصلاً من جبيل. وان انت سألت احد المتضلعين بالعلوم الفينيقية، والتاريخ الفينيقي، او المغرمين بالفينيقيات (اي بالاشياء الفينيقية المعقولة والمنقولة، وغير المعقولة والمنقولة) ان سألت هذا الفاضل: من اين نحن ؟ قال لك فوراً: كلنا من جبيل !

تباركت جبيل، وتباركت ثمرة — ثمرات — بطنها. انها على ما يظهر مهد الجنس اللبناني. وقد يكتشف غداً الاثريون فيما ينقبون، تحت الارض البكر، على الشواطئ المجيدة، وبين الصخور الخالدة، ما يمكنهم من الاثبات ان جبيل هي مهد الجنس الانساني، ومنها تفرعت، وانتشرت شرقاً وغرباً، مدنياتُ العالم كلها. اني ادعو لهم بالتوفيق، واعلل النفس بالنبأ العظيم.

---

(١) الشريك في اصطلاح اللبنانيين هو الموكَّل بالملك، القائم به مناصفة او مرابعة او يثلث ربعه.



حسبي اليوم ما هو ينبوع الحبور لاخواني المعاصرين. فاني مثلهم في التاريخ الحديث — اني من جبيل كيف لا وقد انتزح اجدادي منذ مائتي سنة، من قلب تلك البلاد — من بَجّة (نحن، دام فضلك، بجانيون) — وتوطنوا بيت شباب ومزارعها، القائم بعضها على كتف الوادي الذي اصبح يُدعى بوادي الفريكة. وقد كان جدي لابي، رحمها الله يحن دوماً الى تلك البلاد، ويكثر من الرحلات اليها، فيقبّل ترابها بعد مشقات السفر، ويعود الى اهله باحمال من خيرها — من تبغها المشهور وتينها المجفف — وبقطيع من مواشيها.

كان جدي اذن تاجراً، وكانت التجارة في تلك الايام تقوم على الاغلب بالمقايضة. فماذا كان يحمل الى بلاد جبيل غير المال. لست متيقناً انه كان يحمل مالاً. فهل كان يحمل سيفاً ويروح غازياً بلاد اجداده، فيعود منها غانماً ظافراً، ام هل كان يسوق اليها قطيعاً من الغنم، ومعه حمل من الحرير، ويعود الى اهله بقطيع من البقر، وباحمال من التبغ والتين ؟

ما خطر لي في صباي ان احقق هذه المسألة. ولكني اعلم ان تجارة جدي كانت مثل سائر التجارات، مصدراً للكسب، ومعرضة للخسارة وكان الكسب وكان الدَين، وكان على ما يظهر العجز لدى بعض الجُبيليين. فاضاف جدي الارض الى مكاسبه، وعاد كأجداده ملّاكاً في جبيل.

وقد ورث والدي بعض تلك الاملاك، فَبُلِيَ بها. ما استطاع ان يبيعها بما يدنو من اصل الدين، ولا ان يستثمرها بواسطة شركاء لا يتفننون في الاستثمار، ولا ان ينقلها الى وادي الفريكة. بقيت له — وعليه — الى آخر ايامه، فكُتب لي — وعلي — الاهتمام بها مثله والاغتمام!

وقد رحلت مرة، مثل جدي ووالدي، الى بلاد جبيل، استقصي خبر ذلك العقار. وصلت الى نهر ابراهيم في عربة أثرية، عليها جلال العتق والقدم، يجرها حصانان من ضوامر الخيل الاصيلة، هزيلان جائعان حزينان.

وهناك وقفنا. كان ذلك في العهد السعيد، السابق لعهد البنزين والحديد. ولم يكن في تلك الناحية من الجبل طريق حتى للعربات. وما كان بجوار النهر لا خيل، ولا بغال، فاستأجرت ما وجدت — حماراً ابن أتان، وبما ان صاحبه لم يكن يعرف الطريق استأجرت كذلك دليلًا.

ورحنا نصعّد في وادي نهر ابراهيم، وادي ادونيس، في موكبٍ فينيقيٍ قروي، يتوسطه السيد راكب الحمار، ويتقدمه الدليل، ويحمي المؤخرة الحمّار، وبيده قضيب من الصفصاف.

وكان الحمّار شغفاً بصوته، فاطلقه بالمواليا، فازعج الدليل، فأسكتَه. ثم خطر للدليل ان يقوم مقامه في إطرابي وتطريبي، فكان صوته انكر من صوت الحمّار، فأسكتُّه، ورحنا نصعّد في ذلك الجبل ساكتين واجمين، حتى وصلنا الى المكان الذي يشرف على البطحاء المدفون فيها كنز العائلة.

اني لا ازال اذكر ذلك المكان واذكر اسمه. هو بير الهَيْتي في الطريق الى قُرطُبه. واني اذكر كذلك ان فيه ديراً للرهابين، وان رئيس الدير، عندما شاهد الموكب — سيداً على حمارٍ ومعه رجلان يمشيان امامه ووراءه — ظنه موكب القائمقام او ابنِ عمه، ودعانا للاستراحة.

وما كنت في قبول الدعوة من المخبورين. فقد شاهدت في الدير كاهناً عرفته في نيويورك — كان يرعى الخِراف المارونية هناك، بل كان يُخرِفه — فتشاءمت به، وما أطلت الاقامة. ولا الرئيس، بعد ان عرفني، ألَحَّ في الدعوة لفنجانٍ من القهوة . فاكتفينا بالماء من ابريقه، وودعناه شاكرين.

نزلنا في العقبة من بير الهَيْتي ماشين كلنا، نسوق الحمار امامنا، حتى بلغنا البطحاء. فأعدت تنظيم الموكب، اكراماً لاهل القرية، وخصوصاً « للشريك » الذي كان يفاخرهم بِ« معلّمينه ». اي نعم. استأنفت الركوب، وأمشيت الدليل امامي، والحمّار ورائي، وسرنا بهذه الأُبَّهة الى قرية الحُصون، المحصَّن فيها الكنز العظيم.

وهناك نزلنا على « الشريك » فرحب بنا ترحيب مكمودٍ لا مسعود. ولكن « الشريكة » امرأته ذبحت لنا الذبيحة – دجاجةً فينيقيةَ العمر، وجعلتها بيت القصيد للمأدبةِ فُتحت بزيتونٍ من ارضنا« وخُتمت بجبنٍ من ضرع بقرتنا.

ثم جاء اهل القرية، يتقدمهم الكاهن، مسلمين مرحبين – ومتفرجين. فحدثونا – والحديث ذو شجون، كما يقول الكاتب ابن زيزفون – بل صوَّحونا بالسؤالات كما يقول صاحب المقامات: سألونا عن اهلهم في اميركة، وعن الشرانق في جهاتنا، وعن اسعار القمح والشعير وعن الصابون، والزيت والزيتون، وعن البقر وسوقها والمعزى ومرعاها، وعن وعن، فأحرجوا حتى الدجاجة في بطن « الفيلسوف الفصيح » فجلجلت وكادت تصيح.

وكأنهم سمعوا او احسوا او تصوروا ذلك فما انصرفوا. وقرأت الشريكة النبيهة في عينَي الامنية القصوى، ففرشتْ لي على السطح، تحت خيمة من الشيح كان لا يزال طريّاً طيبَ الاريج – فرشت فراشين، اكرمها الله، الواحد فوق الآخر، وما تمكنتْ، بما في قلبها من اللطف والحب، من ازالة ما في حشوهما مما لست اعرفه. ومَن غير الساحر يستطيع ان يعمل من الفراشين الخشنين فراشاً ناعماً وثيراً ؟ بيد اني كنت شاكراً للشيح طيبَه، ورحت استنشقه كمن يتمنى سكرةً منه، فينام اذ ذاك على الحجارة.

ولكن النجوم أفسدت على الشيح عمله. فقد كانت الليلة صافية الاديم، وكانت الكواكب كلها في اصفى وابهج احوالها. فبت ارعى النجوم، كما يقول الشاعر، واصحح ما تعلمته من علم الفلك في ليالي لبنان الصافية.

وكنت وانا اقيس المسافات، بين الثريا والميزان، مثلاً، او بين الدبين الاكبر والاصغر، بالقياس النظري، اقول في نفسي. من الممكن اجتياز هذه المسافة على حمار بساعةٍ واحدةٍ او ساعتين. ثم استنشق نشقات كبيرة

من طيب الشيح، وانا اقول : ابي اسلمك روحي. فما كان سبحانه وتعالى عمد يداً اليها.

وماذا بعد ذلك يعين غير الاحلام ونظم الاشعار ؟ اظنني نظمت بيتين من الشعر باللغة الانكليزية، لارسلها الى صديق لي بنويورك، انبئه فيها برحلتي هذه العجيبة، اي رحلتي على حمار ابن اتان، من الثُريا الى الميزان !

وكنت بعد كل شطحه من شطحات الخيال، وكل نشقة من نشقات القصمين والوزال، اعود الى حلمي الذهبي، فاقول لنفسي اليقظة الارقة المتضجرة — اقول لها مطمئناً : غداً يدفع الشريك ما تأخر من حسابه — قسمتنا من ريع الارض مدة عشر سنوات — فأعود الى الفريكة. كما كان يعود اجدادي من رحلاتهم، غانماً ظافراً.

وجاء الصباح البسّام، مبدّد الاحلام، فافضى الشريك الي باخباره التي بدأت وانتهت بالويل والبلاء. وكانت بلاياه، يا معلمي، من الزمان، ومن الحكومة، ومن المرابين، ومن الجيران المعتدين، والبلبلة الكبرى، يا معلمي ...

فهمت بالاستقراء والاستنتاج، قبل ان فاه ببيت القصيد، ان الكنز قد ذاب، ولاجداء في السؤال عن قسمة او حساب. ولكن المخيلة خذلتني، فما ماشتني الى اقصى حدود النكبة.

فبعد ان شربنا القهوة، واكلنا العنب والتين، وجاءت الشريكة بارجيلة استعارتها من بيت كاهن القرية، كشف الشريك الستار عن كل ما به. فعلمت أن البيت مرهون، والملك غارق بالديون، والدهر، يا معلمي، ملعون ابن ملعون.

فهلّا تشبهت انا بوالدي الكريم، وبجدي الاكرم، رحمهما الله، فرفعت يد الداثن عن البيت، وانقذت الملك من براثن المرابين ؟ !

وقد اقسم الشريك بالله وبمريم العذراء وبجميع القديسين انه يعيد اليّ

90

المال بعد سنتين، ويعيد الارض الى سابق خيرها وخصبها، فتجيئنا اذ ذاك قسمتنا في كل موسم — وحياة الله، يامعلمي، وحق جميع القديسين !

• • •

ركبت حماري وسقته مسرعاً صوب العقبة، فعدا الدليل والحمّار ورائي، فصحت بهما: المواليا، المواليا ! فرفعا عقيرتيهما معاً بالغناء، فاستعذبته والله في تلك الساعة، وشاركت به .

«فعفور» الخوري

ما ذهبت جبيل من خاطري، بالرغم من الغزوة الاولى المخفقة، ولا عرا ذكرها شيء من الاهمال او الفتور. فقد زرت ذات يوم المدينة المشهورة، على الشاطىء القديم، ونزلت ضيفاً على المدير في القلعة (كان لي في تلك الايام، اصدقاء في دور الاحكام) وسمرنا على ذكر الاجداد الصناديد، الذين سخروا الامواج والحيتان لاغراضهم البعيدة، فحلمت تلك الليلة اني امير الاسطول، المحاصر بلاد الغول، بامر عَزَّبَعَل الملك.

وبعد ايام جنحت الى الجبل في التسيار، وانا لا ازال انشد البلاد التي تدر لبناً وعسلاً، البلاد التي كان يحدث عنها جدي ووالدي، بلاد الاجداد الجدد، بالنسبة التاريخية، فوصلت الى عمشيت، واقمت في ظلال الفضل والكروم فيها، فعلمت أن آباء من احبّهم قلبي كانوا يعرفون ويحبون الجد والعم والوالد، ويضيفون اكراماً لهم، كل من جاء من وادي نهر الكلب صنو وادي نهر ابراهيم.

ولكن عمشيت باب بلاد جبيل، وما انا ممن يرضون بالوقوف في الابواب. فاين بَجّة، واين معاد، واين الثلث الآخر من البلاد [1]

مرت الايام والليالي، وتخللتها الاسفار في المغارب والمشارق، وانا في اشد ازدحام الافكار والعواطف، اقول للنفس من حين الى حين: وبلاد جبيل، يا بنت الحلال، متى نشد اليها الرحال؟

شددنا ذات يوم الرحال على الطريقة الحديثة، فراحت السيارة تعدو

---

(١) يقول اهل جبيل بجة ومعاد ثلثا البلاد

بالدقائق الاميال، وتطوي الشاطىء طيها للجبال، طيًّا يرقص الثمانين، ويجمد الدم في رقاب «البعارين». عليهم يا ابنة الشيطان، وَدَعي الفارض يسوق الاظعان.

ومررنا كالسهم في جبيل، ودخلنا عمشيت وخرجنا منها كالقنبلة، وقد أطلقت من مدفع جبار، ورحنا نصعّد — والحمد لله — في البلاد المنشودة المحبوبة، تصعيداً رهواً، بين الربى والبطاح، المزدانة بالشيح والقندول، الخالية من الانس والجن، فبلغنا الوادي القائمة فوق حبالين، فاذا في الطريق التي تمنطق تلك القرية. ثلاثة من الغيد في زيٍ اوروبي، من الرأس الى القدم، يُزلن الوحشة من ذلك الوادي، ويدخلن السرور على القلوب. فهلا يليق ان نمر بهن إلّا كما مَرَّ سائق الاظعان بذات الشيح؟

اوقفنا السيارة وحييناهن، فرددن التحية باحسن منها، وبشّن وهشّن لنا، ودعوننا الى بيوتهن. فكن في الكرم والمعروف بنات الجبل المبارك، لا غبار عليهن، فما غيّر الزي الاوروبي ما فطرن عليه من بساطة الروح ودماثة الاخلاق. لا وربي الفينيقي وربك المسيحي، فلا القرمز على الشفاه افسد المنطق منهن، ولا العصي بالايدي، يعتصين عليها، كذَّبت ما في القلوب.

ودّعنا الطيور التي كانت ترقزق على اغصان التين، ترحيباً بنا، وبالغيد الساحرات قلوبنا، واجتزنا حبالين التي تكاد تكون مهجورة لولا من شاهدنا — ولا هجران مع حسان — فاستمررنا في التصعيد الى القرية المجاورة لها، فعرجنا على شامات، وزرنا بيتها الاعلى، وفيه كاهن واسقف وبنات لبنانيات، ما عرفن من المدنية غير حسناتها. تباركت احشاؤك ايتها اللبنانية الجبيلية.

وما انا بالغريب في بيوت الكهان، وان كنت غريب الايمان. فقد

كان جد جدي لابي اسقفاً، [1] وكان على ما يقال من العلماء الصالحين، بل من الاذكياء اللامعين. حدثني احد شيوخ العائلة عن احد شيوخ آل خازن قال : شاء شيخ خازني ان يختبر علم المطران باسيل عبد الاحد [2]، جدي، فخاطبه ذات يوم قائلاً : لكل ما خلق الله منفعة يا سيدنا، الا هذه الصخور. فما الفائدة منها ؟ ولماذا خلقها الله ؟ فاجابه المطران باسيل فوراً : هذه الصخور، يا ابني، هي عظام الارض.

وفي البيت الاعلى بشامات كاهن صارع الصخور فصرعها، وبرهن عملاً على ما قاله الاسقف جدي. فقد كسا « عظام الارض » ثوباً من « اللحم » — من التراب الذي جلبه اليها — ثم غرس الاغراس والعرائش، فازدهرت وأثمرت، وفرشت الارض، عطفاً وحناناً، بظلالها.

وللكاهن الجبار بشامات أثر آخر في مغالبة الصخور، أثر فريد عجيب، هو ظاهراً حائط ضخم مستدير، قائم على صدر الجبل، من وسطه الى اعلاه، وهو يستوقف نظرك، ويوقظ فيك الحيرة والاعجاب وانت في الطريق صاعد الى البيت. فما هذه الاكمة يا ترى، وما وراءها ؟ ما رأيت أتوناً بهذه الضخامة. وليس في هذا الجبل الماء الذي يستوجب السد. فهل هو حصن فينيقي، ام أثر روماني، ام صليبي ؟ ما تمالكنا بعد وصولنا ان سألنا، فقيل لنا : هذا قُهقور (قمقور) الخوري.

ثم مشينا والكاهن اليه، فاذا نحن على سطح مقبرة، في شكل هلال هو من الطرف الى الطرف نحو خمسة عشر متراً، ومثلُ ذلك علو الحائط الذي رأيناه من الطريق. قلت انه مقبرة، والكاهن يقول انه قُهقور. فهل انا اعلم منه بما هو بنات افكاره، ومن جليل آثاره ؟ اقول، نعم. هو مقبرة

(١) ما كان محظورا في تلك الايام ان يسام الكاهن المتزوج اسقفاً

(٢) عبد الاحد اسم العائلة والريحاني نسبة الى الريحان — الآس — الذي كان يكثر في جوار بيتنا القديم.

لان الكاهن المحترم الجبار دفن فيه كل ما كان حول بيته من الحجارة ! فبدل ان ينقل العمال تلك الحجارة من ارضه، ويرمون بها في منحدر الجبل فتنتهي الى الطريق فتسدها، قد بنى ذلك الحائط الشاهق سداً منيعاً، وملأ بالحجارة الحفرة التي تكوّنت وراءه.

هي ذي المقبرة وفيها « عظام الارض » ! ومن بنات افكار هذا الكاهن في العمران انه بنى في اثناء الردم مربعات صغيرة، متراً بمتر، هي الآن — او بالاحرى عندما رأيناها — حُفر في السطح، عمق الواحدة ينيف على المتر. وهذه الحفر ستُملأ تراباً، وستزرع فيها الاشجار المظللة.

وسيجلس الكاهن اذ ذاك تحت تلك الاشجار، فوق « عظام الارض»، هو وآله وصحبه، الى مائدة صفت عليها الجفان الصغيرة، وفي وسطها زجاجة العرق ! هذا ما قاله لنا، حياه الله.

ومن يقول بعد هذا ان اجدادنا كانوا جبابرة وانّنا نحن اقزام ؟

قد لا تجد في جبل لبنان كله صنواً لهذا القهقور. ولكنك، اذا ما جنحت عن طريق « التمدن »، وتغلغلت في القرى، تجد لصاحبه الكاهن، بين الفلاحين، اخواناً في العزم والهمة والنشاط.

هذا الكاهن هو والد المطران بولس عقل.

وفي المطران بولس، حياه الله، ووفقنا الى الصواب واياه، شيء من صخور لبنان، واشياء من ثماره. فهل يسمح بالاستعارة ؟ العفو، العفو. لِتَدعِ « القعقور » في مجد وحدته.

اما اني شعرت في ذلك البيت اني في بيتي فَلِأسباب ذكرت بعضها. وازيد هاهنا ان اهله لبنانيون جبيليون، وانا لبناني جبيلي، اما الأثواب، سوداء كانت او ارجوانية، فهي لا تخفي ما في القلوب.

ولو لم يكن غير « القعقور » لكفى به صلة للحب والاعجاب. ولكن هناك غير « القعقور » وغير المطران بولس. هناك الكريمات المهذبات الواقفات

في تهذيبهن بين الحرية والتقليد. فالعقل حر، والنفس مقيدة بتقليد لبناني هو حصن الاخلاق والسلوك.

حدثتنا احداهن عن جبران معجبةً ناقدة. وقالت انها تقرأ كذلك الريحاني، وترتأي رأيه في امور كثيرة، وطنية واجتماعية.

— ودينية ؟!

سبحانك اللهم. فان انت شيدت القهاقير بين العقول، ورفعت الجدران عند حدود العقائد، في ثغور الشك واليقين، فما أقمتَ، جل جلالك، حداً او حاجزاً بين القلوب الصافية.

عدنا من حبالين وشامات، حاملين اعذب الذكريات، وآسفين ان النهار قصر دون رغبتنا بالاستمرار في السير، متغلغلين في قلب البلاد، مستنشقين نفح النفوس الطيبة، والقلوب الزكية.

وكنت افكر، ونحن عائدون مسرعون نطوي الجبل والشاطىء طياً ادهش الغسق، وأغاظ الليل البطيء الخطوات، كنت افكر في اولئك اللبنانيات المهذَّبات، اللواتي لا يزلن بعيدات عن برق المدنية الخُلَّب، اولئك المتواريات في القرى القصية، وافكر كذلك في شبان المدن الراغبين بالزواج — الشبانِ العاقلين وان قلوا في هذه الايام — كنت افكر فيهم والله وفي اولئك الكريمات، واقول لنفسي ما اعيد قوله الآن : — فتشوا في الجبال تجدوا، وأمعنوا في التفتيش تجدوا، وتسعدوا.

93

الرحلة الرابعة

ارز جاج

محتويات الرحلة

6/4

الى جاج

مرت الايام، وما نسيت اني بدأت برحلة لبنانية صغيرة، وما اكملتها. ولا ذهب من البال ان الوادي الذي دخلته، وتذوقت محاسنه الطبيعية والبشرية، ينتهي الى جاج، وان جاج هي الباب الى جبل هناك يكتنز من الارز كنوزاً مجهولة. نعم، مجهولة، الا ممن يقيمون بذلك الجوار. وقد لا يكون بينهم من زار ذلك الارز غير الصياد والمعاز، والفلاح الذي لا يزال لصيق الارض وعشيقها.

وكيف الوصول الى جاج، كنت اعرف منها الاسم لا غير. واني اذكره (كما اذكر غيره من اسماء المزارع الجبيلية) منذ الصبى، يوم كنت في نويورك. أيدهشك ان ذكر جبيل وانا وُلِد في نويورك، ومن قاطع المتن؟ رحم الله والدي، الذي كان تاجراً هناك. وقد كنت كاتباً في مخزنه، قبل ان صرت كاتباً في مخزن الحياة. وكان فريق ممن يتعاطون التجارة معه من مهاجري بلاد جبيل، فتعلمت صغيراً ان الفظ اسماء قراهم. حاقل، لحفد، مشمش، بجة، معاد، حبالين — اسماء رسخت في الذهن، ودخلت القلب، واستحبت الاقامة. اني اذكرها على الدوام، واشعر في زيارتي لتلك القرى بلذة الحبيب العائد الى قديم حبه.

أضف الى ذلك صفحة من كتاب الحياة الحديث. فان هناك، في تلك

95

الاودية والبطاح من الادباء والمحامين والاطباء من هم مقيمون على دين اجدادهم، اعني في محبة الارض والتمسك بذوائبها. فلا يطيب لهم غير الصخور التي ولدوا في ظلالها، والوعور التي لعبوا فيها، وتعلموا الانجد و « طوبى للرجل » تحت سندياناتها وزواتينها. فهم يقيمون اليوم هناك في قصور شيدوها، ولا يبالون انها على مسافة ساعة او ساعتين من طريق العربات.

ان لي بين هؤلاء اصدقاء احباء. منهم كاهن ماروني عربي، يعلّم البيان في مدرسة اسقفية لاهوتية، ويعمل تركيةً غير ذلك. فهو العالم، وهو الزارع. كيف لا، وفي تربة القديس اوغسطينوس، بين رياحين القديس توما الاكويني الذابلة، يغرس ارز لبنان، وآس سورية، ونخيل العراق، وسَلَم نجد وعراره.

ومنهم استاذ آخر يعلم البيان الاعلى في مدرستين، الواحدة وطنية والاخرى انسانية، فيزرع بذور الحقيقة الكبرى في بستان الحقيقة الصغيرة، ويروي ازاهر الحقيقة الصغيرة بالمياه المجلوبة من ينابيع الحقيقة الكبرى. حيا الله ابا محمد مارون عبود المتنسك صيفاً بعين كفاع. وقد قيل لي ان له خَوَرْنةً هناك.

سألت عن عين كفاع في رحلتي الاولى والثانية، وكان في النية اكتشافها، ومفاجأة الصديق فيها. ولكنها في ثنية مخبيّة، وعن الطريق قصيّة. فغبطت ابا محمد وحسبته في الحكمة كبيري واستاذي. كيف لا وقد اختار لنسكه ذلك المكان، بين الاضلع الجبيلية من لبنان. فاين الفريكة في العزلة من عين كفاع ? ان ابا محمد هناك لفي حصن حصين. هو قريب من بجّة، وبعيد عنها. وهو بعيد جداً — اترك اﻟ « جدّ بعيد » للادباء المجددين — هو بعيد جداً عن الطريق السلطانية. وانا بالفريكة تحت الطريق، عرضةً لكل هابط وكل متشرد. هنيئاً لك يامارون،

والسلام عليك.

ولو كان لي ان ارسل اليك برقية سلكية او لا سلكية لتوافينا الى جاج، وتحج معنا ارزه، لفعلت. ولكانت الحجة افضل قوبةً بك اليه تعالى، ولكنت انت من الحجاج المكرمين. كيف لا وزوجة مضيفنا من السيدات المهذبات اللواتي يؤثرن في مطالعتهن الادب الحر الراقي نثراً وشعراً، والمضيف من الاطباء الافاضل، الذين تغربوا في ايام الحرب وتجربوا، وعرفوا من الحياة فرنجها وتركها وعربها، فذاقوا ما كان كامناً او مجهولاً من مرها وحلوها. فالاثنان في العروبة صنوان، وفي حب الوطن من لبنان ثم من عدنان.

ولا عجب ان نرى لعدنان في جبيل الأثر الطيب والذكر الجميل. فان الفينيقي والعربي من اصل واحد هو السامية، ومن بلاد واحدة هي بلاد العرب[1]. وان في اللألؤ غرساً عربياً قديماً، راسخ الجذور، وارف الظل. وقد نثرت الرياح من روحه في هذه الاودية والبطاح، وبين تلك الصخور العالية المنيعة.

هي العروبة في لبنان. وقد عطرت سيدتي الطريق بذكرها، والتغني بها. هو لبنان في العروبة، وقد أنسانا الدكتور وحشة الاودية، وعري الربى، فيما وراءه لزّجال لبنان رشيد نخله.

قلت «عري الربى» وما بالغت. فان جبيل، بعد ان تجتاز حبالين، لقاحلة موحشة، وخصوصاً في آخر الصيف. وكأني بهذه الارض القديمة ملّت العمران، فكمد قلب البطاح والشعبان، واسودّ وجهها. ولا غرو وينابيع القرى ضئيلة، والارض غير ذات فيوض.

بيد ان الهواء، ونحن نصعد من شامات الى حاقل، يشفع بما تنبو العين عنه. والمشاهد، ونحن نعلو، تتنوع وتتسع. فهاك بجّه على ربوتها وراء

---

(١) راجع كتابي «ملوك العرب» الجزء الثاني صفحة ١٨٩

شامات، ودونها، في الأفق على رأس الجبل، ظلالٌ سحماء في سُحبٍ شفافة، هي معاد.

ان لسلسلة لبنان شكلًا جيولوجياً في مصابّ انهاره يكاد يكون مطردا. فقد حفرت هذه المصاب، واكثرها غربية، طرقاً الى البحر هي الاودية. وهذه الاودية تضيق وتنفرج، وفقاً لانحدارها القائم او المنبسط، وبحسب قوة السيول. فالاودية هي من السلسلة ادوات وصلها، والى جوانب الاودية وعلى اكتافها، في بطاحها، وبين اضلعها، وعلى رؤوسها، نشأت القرى والمزارع، وبُنيت الدكات، لحفظ التربة، وغرس الاشجار.

ولكل وادٍ من هذه الاودية مدخل على الساحل هو في الغالب الى جانب النهر، وطريق — للدواب قديماً، وللعربات والسيارات اليوم — تنتهي الى اقصى قرية فيه واعلاها. فمن انطلياس مثلًا تصعد الى بسكنتا، ومن جونيه الى فاريا، ومن نهر ابراهيم الى العاقورة، ومن جبيل الى جاج.

اما الوادي ونهره فلا يسايران الطريق دائماً، وقد يختفيان في معظمها، كوادي جاج مثلًا ونهره الناضب في الصيف. فبعد ان تعبر الجسر الذي يُدعى باسمه محرّفاً، اي جسر الدجاج، قرب جبيل، يتوارى عن الابصار، اذ تصعد الى عمشيت، فلا تراه الا بعد التصعيد من حبالين، ثم بين حاقل ولحفد حيث تدنو من الالف متر في العلو عن سطح البحر. فلا عجب اذا كانت لحفد مصيفاً لبعض العائلات من جبيل وعمشيت.

وهناك العين الى جانب الطريق تجري في ميزاب من الحجر، وهناك القهوة تحت الخيمة قبالها، لتثبت ان لحفد هي مصيف هذه الناحية من جبيل. وحسب المصطاف، بعد الهواء الطيب والماء الزلال. هذه الخيمة المسقوفة بالشيح، وحسبه فيها الارجيلة والنرد. بيد ان هناك غيرهما من اسباب الغبطة، كالعرق مثلًا. ثم جرن الكبة على الدوام. ثم المتصيد في اعالي هذه الجبال، الحافلة بالحجال. وماذا بعد ذلك يبتغي المصطاف العاقل ؟ الرقص

والغناء وملكة الجمال ؟

اذا صبر القارىء على شجون الطريق — والحديث — واستمر في مرافقتنا، تمتع ان شاء الله بكل ما تشتاقه نفسه من محاسن الاصطياف او مغرياته، وان المحاسن في هذه البقعة من الجبل لصافية في بساطتها. وانها لطاهرة — بقدر الامكان. هي فينيقية في معظمها، وقد لطفها الزمان. وقل هي عربية عليها مسحة من الزهو الفينيقي. حسبنا هذه الكلمة في محاسن ما سنشاهد، ايها الرفيق الصبور، ولك الرأي بعد ذلك والحكمُ.

اما وقد ذكرنا الطريق فلا بد قبل ان نصل الى آخره من كلمة فيه. هو لايزال من التراب والحصى، ولا يعرف شيئاً من نعيم الزفت الذي تستمتع به طرق السواحل. وهو من الساحل الى لحفد طريق عربات، لا طريق سيارات، وخصوصاً في اكواعه الكثيرة الضيقة. ولا اذكر انه يهدر الثناء على مديرية النافعة، الا في بضع اماكن منه جديدة، او بالحري جديدة الترميم. وفيما تبقى منه هو يوبخ المديرية المحترمة، ويرميها احياناً بالحجارة — تتطاير الحجارة من تحت الدواليب !

اما من لحفد الى جاج فالطريق لا يعنى المديرية المذكورة ولا يهمها. ما هو بطريقها . لا حفرة لها فيه ولا حجر. ولا هي تبالي بما يقوله فيها اهل جاج. فقد ألِفتْ في العاصمة كل قول، وهي في الصبر من سلالة ايوب الصديق.

حدثني الدكتور قال : كتبنا المعاريض، وألّفنا الوفود — قطعنا الحبر والورق والاحذية طالبين مستعطفين — وما كانت الحكومة لتسمع او تجيب. على انّ الطريق من لحفد الى جاج ؟ لا تتجاوز الخمسة كيلو مترات. ذهب الامل، وفرغ الصبر. فاستفزت الغيرة شباننا ورجالنا، فشمروا للعمل. شقوا الطريق، وعمروه وعبدوه، دون ان يكلفوا بشيء من المساعدة احداً من غير جاج.

ويقول شبان جاج : لولا همة الدكتور وغيرته ما تم العمل

الضيافة اللبنانية

لا يزال في بلاد جبيل رجال – ونسوة هن اخوات الرجال في الملمات، وفي المسرات. ولا تزال الضيافة اللبنانية المتصفة بالكرم والمعروف، المزدانة باللطف والبساطة، من العادات المرعية هناك، كما هي في الاماكن اللبنانية الاخرى، البعيدة عن لألأة الاصطياف وضوضائه.

وفي جاج المضيافة. بيت وارف الظل، رحب الذرا، كسنديانة الكنيسة هناك. ولسنديانة الكنيسة، بارك الله فيها وفيك، شهرة جبيلية بعيدة الآفاق وظلال ترحب بمؤتمرات الاهالي السياسية، كما ترحب بمدرسة الاولاد الابجدية.

نزلنا في البيت الذي يشرف على السنديانة، ويتصل في اوشاجه بما وراء الافق الجبلي شرقاً بشمال، اي بتنورين. قد لا تدرك ما هناك من هذا الوصف الجغرافي. فاعلم ان بين تنورين وجاج الجبال والصخور، وؤكور الحجال والنسور، وغابات ارز تحضنها الدهور. وبالرغم من ذلك قد غزاها الدكتور، وغنم احدى بناتها، فصار يونس المغوار، نسيباً لفرحات الجبار، وعُقد بين البلدين معاهدة ولاء وحسن جوار.

وكانت بنت فرحات شقيقة الدكتور يوسف وبنت يونس، شقيقة الدرويش اسعد وزوجة الدكتور، كوكبي تلك الليلة، ومحوري الحياة فيها. فاضرمتا نيران الضيافة، واشعلتا انوار المسرة والانس.

وجاء شباب القرية بما وُهبوا واكتسبوا من علم، وفن، ومعرفة، فكان بينهم القوال والرقاص والنافخ بالقصب. وجاءت البنات ذوات الجمال القروي الوديع، تساعدن ربة البيت، فكانت احداهن تقدم الشراب،

والاخرى القهوة، وتجيء الثالثة بالماء من العين الى المطبخ والرابعة تهيئ الاراجيل، وكلهن يعملن فَرِحات جَذِلاَت، كأنهن في عرس اخ لهن. هي المروءة يتغذى القروي والقروية صغيرين بلبنها.

وكنا كأننا في عرس. وعندما جلسنا الى المائدة شاء رب البيت ان يكون العشاء مصحوباً بشيء من الموسيقى والغناء، كما لو كنا في لوكندة باريسية، فأرسلت شقيقته صوتها الشجي ببيتٍ من « العتابا »، ونفخ القصاب بقصبه مرافقاً لها. وكان احد الشبان يباريها، فيبدأ حيثما تقف، دون ان يبعد عن النغم والمعنى.

اني ممن يعجبون بهذا العربي البدوي، الذي تصفو فيه عواطف الحب وتشتد لواعجه. واني ممن يطربهم صوت القصب، ذلك الصوت العريض الاجش، الذي تتمثل فيه خشونة البادية، ونغمها الوحيد، نغم الوحشة والقسوة والامل. اما الرقصة البدوية الشهيرة التي تدعى « الدبكة » فهي من الفن العالي بمكان. ان في خطواتها همسَ المرأة، ونهرةَ الرجل. وانّ فيها الحركاتِ الهادئةَ المترددة، تقطعها وتصلها الحركاتُ الآمرةُ المهدِّدة.

يا حلوه بحياة قدك

والحلوة تميل بقدها، وتغنج برجلها، فيضرب الشاب الارضَ برجله ويكمل البيت :

بدنا بوسه من خدك

وعُقدت السلسلة تلك الليلة من الشباب والبنات، وكانت على رأسها ربة البيت وهي تلوّح بالمنديل. فنفخ القصاب بقصبه، وصفق احد اخوانه بيديه هاتفاً : « زققه » يا شباب ! فلعب الطرب في النفوس، وخفّت الايدي والرؤوس. فكنا كلنا مسوقين بالنَغم الوحيدَ، والنَظم الفريد — نغم القصب العميق، ونظم الارجل الرشيق. وكان القصاب وهو في وسط السلسلة المستديرة التي تكاد تصير حلقةً، يحنو رأسه حيناً وحيناً يرفعه،

98

فيذوب هياما، ويزيد بنار « الدبكة » اضراما.

يا حلوه بجياة قدك

بدنا بوسة من خدك

حيهلا – حيهلا !

وبعد « الدبكة » أخليت الساحة لاحدى البنات اللواتي يحسن الرقص وحيدات، فغير النافخ بالقصب نغمه، فوقفت صاحبة القد الاهيف، والوجه المليح، وقد غضت من طرفها، ومالت الى الكتف برأسها، ثم بسطت يديها، وطفقت تقدم الرجل اليمنى، وتجر رأس اليسرى وراءها، فتمد الخطوات وتدورها كانها تكتب برجليها احرف الحب. ثم تثني منها الزند، وتهز الكتف هزةً لطيفة، فيغار العنق مما انثنى الى جنبيه، فيعطف ويميل، ويرسل الى الصدر، في هزات امامية، رسائل غرامية، فيهيج الطرب في حامتيه الرابضتين، فينتفضان ويتذبذبان، والمليحة واقفة هنيهةً مفروشة الذراعين، ولا أثر في وجهها من الادراك او الاشارة لما في تلك المزهزات من المغريات.

هنيهةً في ذلك الاوج من سذاجة فنها، ثم تدرج واليد على خصرها، والأخرى أمامها، فتثني منها العطفين، وتعيد الكتابة برجليها لرسالة الحب، مسرعة حيناً، وحيناً متمهلة، ثم تقف فجأةً، وتنحني للسلام، كتلميذة مدرسة مثلت دورها.

وما عاب رقصها هذا غير المفاجأة في الختام. فلو انها عندما تتمهل في خطواتها تستمر متمهلة، وهي تبعد من وسط الساحة، فتتوارى كالطيف، لكملت فنها بالذوبان، عكس الراقصة الاوروبية التي تختمه بالعنف والهياج. وعندي ان الحالة الاولى هي اقرب الى الحقيقة، واشد وقعاً في النفوس المهذبة.

لنستمر فيما يسر ويطرب، فلا نستوقفك للشرح والانتقاد. ما

اقتصر برنامج تلك الليلة على ما تقدم وصفه من رقص وغناء. فما ان الساحة خالية، وكان كوكبا البيت، شقيقة الدكتور وزوجته، قد تواريا، فسكن الدار، وساد السكوت. هي الفترة المألوفة بين الفصل والفصل في الرواية. ولكننا في بيت لبناني، لا في ملهى من الملاهي. فبتنا لذلك حائرين، ومتوقعين شيئاً جديدا.

وكان ذلك الشيء الجديد، ودوت الدار، لدى ظهوره، بالتصفيق والقهقهة. هوذا «الكركوز»! شيء متحرك في كيس اسود، مشدود الوسط، يميل ببطأ يمنةً ويسرة، ويداه وهما في الكيس، ممدودتان متحركتان. شيء فظيعٌ مضحكٌ معاً، كالمفزعة التي تُنصَب في الكروم. وطفق هذا الشيء يرقص، ويهز رأسه الضخم، الذي هو نصف جسمه، ويحرك يديه القصيرتين، ويدور على محوره كاللعبة الصينية.

قلت لجاري: ما احذق هذا الولد. وكنت قد ظننت انهم ركبوا في رأسه قفصاً ليكبروه، فيجعلوه كنصف جسمه. فقال الجار مصححاً خطأي: هو شاب يجيد الرقص. وقد وُضع على رأسه طبق، وألبس هذا الفستان الفضفاض، المربوط فوق رأسه، المغطي حتى قدميه. اما اليدان فهما عصا شُدت تحت الفستان في الوسط، وتدلت الاردان من طرفيها البارزين، فتهتز كما ترى كلها انثنى.

انه حقاً الكركوز غريب، بل اختراع في المسخرات عجيب. ما رأيت قبلًا مثله. ولكنه، كما قيل لي، شيء معروف شائع في ليالي الطرب اللبنانية. انما ذلك لا ينقص من قيمته المسرحية. هو آية في السخرية والفظاعة، ولا اظنك تجد له مثيلًا في غير آلهة اليابان، ولعب الصينيين.

مثل «الكركوز» دوره وانصرف. ثم جاء دور هذا الكاتب المظلوم المرهق بالادب والسياسة حتى في نزاهته. فقد هبط علينا ادباء القرية في، اثناء الدور الكركوزي. جاءوا يسلمون ويتعرفون بالاديب الكبير الخ،

ويتحدثون اليه. جاءوا يرهقونه بالسؤالات، والمناقشات، الادبية والاجتماعية والسياسية والدينية. فهذا طالب حقوق، وذاك طالب طب، والثالث طالب لاهوت في ثوبه الاسود، والرابع خريج احدى الكليات، ومراسل احدى الجرائد الكبرى في العاصمة. وكلهم من محبي الادب والشعر، ومن اساطين السياسة، وفيهم المحب، والمؤمن، والمعجب، والمناقش، والمتفرج. فهات ما عندك يا « فيلسوف ».

ما لبثت ليلة الطرب، ان تحولت الى ليلة كرب. فكنت اجيب على السؤالات بايجاز الكهان الاقدمين، واسلّم في المناقشات لاتخلص منها، وانا اعلل النفس بعودة القصاب الى القصب، وربة البيت الى « المواليا ». هيهات، هيهات. فقد ختم الكركوز الليلة بالضحك، وختمها الادباء بالجدل.

« والخير والشر ممزوجان ما افترقا
فكل شهد عليه الصاب مذرور »

طريق المعزى وطريق الجن

الى الارز – ارز جاج – ارز الرب

نهضنا صباح اليوم التالي باكراً، ومضيفنا الدكتور فرحات واهله يعدون العدة للرحيل. وكان في الجماعة من جاج من يجهلون مثلنا ما وراء تلك الآفاق السحاء الشاهقة، فشدوا الرحلة الاولى الحقاق قائلين، تنشيطاً لانفسهم وتشجيعاً لنا: هي ساعة الماشي، واقل منها للراكب.

– وهذا حمارك يا استاذ. لا تؤاخذنا. ليس مثل الحمير لطريق «الجُرْد»

فقلت في نفسي: أليس من العار ان اسخر الحمار لساعة في الجبل؟ وهب انها ساعتان أيركب الأتُن مَن علا النجدية من الخيل، والعمانية من من الابل؟

فاخرت ساكتاً وكابرت. الا اني محب المشي، راغب دائماً به، وخصوصاً في اعالي الجبال، حيث يجف الهواء، ويصفو الجو، وتخف حرارة الشمس. فاعتزمت المشي، واخترت من ادباء الليلة البارحة رفيقاً، فشاء ان يرافقني شقيق الدكتور فرحات. وهو مثل ابيه واخيه من العمالقة. وكان الاثنان في انتظاري صباح ذاك اليوم، وفي كتف احدهما بندقية الصيد.

تركنا القوم يتأهبون، والمكارين يحمّلون الزاد والماء، ومشينا من جاج ساعة الضحى – كان ينبغي ان نكون في تلك الساعة بالارز. ولكن الحملة ليست حملتي. فما انا غير واحد من الضيوف، وفيهم السيدات اللواتي لا يخرجن من الخدور قبل ان يورّدن الخدود، ويقرمزن الشفاه – طاحت بي الجملة، فاخرجتني عن المعنى المقصود، وهو انه كان ينبغي ان نسبق الشمس في التسيار ولا ندعها تسبقنا. ولكنها في اعالي الجبال – نحن الان

على الف واربعمائة متر فوق سطح البحر – وفي اواخر ايلول، قلما تجوز. هذا ما قلته وتحققته في الساعة الاولى من التصعيد.

وكنا لا نزال في عقبات، صخورها وادعة، وحجارتها تحت الاقدام ثابتة – عقبات مجاملات، تلين جوانبها للعفص والزعرور، ولا تخلو من دغل، طيب الاريج. وهي تشرف في المنعطفات على البطاح البنّية التربة – غير المزروعة – والصفراء – بعد الحصاد – وتخلو بك في فيئات تحلو بها الاستراحة.

وكان الرفيقان الاديبان قد بدأا بمساجلة شعرية لينسيانى، كما قالا، مشقات الطريق. وكلاهما كثير الرواية، سريع الخاطر. فعجبت لثباتهما في الميدان. فقال السمراني: «وما شغل الاديب في هذه القرى الجبلية القصية غير قراءة الشعر وحفظه». اما المساجلة فقد كانت من النوع الذي يروي الاول فيها بيتاً، فيجيء الثاني ببيت، يبدأ بحرف القافية المتقدمة. فبُدىء ببيت للمتنبي من احدى قصائده اللامية، فكان الجواب فوراً:

لا تشترِ العبد إلا والعصا معَهُ
إن العبيد لَأنجاس مناكيدُ

ومما ادهشني قولهما انهما يستمران في المساجلة بضع ساعات، دون غالب فيها ومغلوب، ويستأنفانها احياناً في اليوم التالي. ومع ان هذا النوع من المساجله هو اهونها، فان في بعض القوافي ما يُعجز وصلها اكبر الرواة. ومن مُلَحها ان تكون الابيات لشاعر واحد، ومن معجزاتها ان تكون من القصيدة الواحدة. كأن يقول الاول:

سائق الاظعان يطوي البيد طي الخ

فيجيب الثاني من نفس الديوان:

يا قبلتي في صلاتي اذا وقفت اصلي.

او يقول :

عدوك مذموم بكل لسان
ولو كان من اعدائك القمران

فيجيب الثاني من نفس القصيدة :

نفى وقعَ اطراف الرماح برمحه
ولم يخشَ وقع النجم والدبران

وبينا نحن مصعدون، والمساجلة في ازدهار، رأى الاديب الصياد سرباً من الحجال، او سمع حفيف اجنحتها، فنسي الشعر والشعراء، وراح واثباً من صخر الى صخر، ثم مشى مسرعاً مترفقاً، فجاز الشعب، وتوارى عن البصر. وما سمعنا بعد ذلك طلق بندقية، ولا رأينا اثراً له او للحجال.

مشينا انا والرفيق فرحات في بسطة من السكوت، وكنا قد سلكنا مقربةً تعلو الطريق، فشاهدنا في المنعطف الاسفل رفاقنا المتخلفين، وكلهم رجال ونساء، ما عدا المكارين والخدم، فهم راكبون الاحمرة. العفو، قارئي. فقد سرى الي شيء من نهمة الادباء المجددين في اختيار الغريب من الجمع. هي فعلة واحدة لا ثانية لها. فالعفو، ايها الراكبون الحمير.

وهذا الدكتور فرحات ينادينا، واخته الشفيقة تستوقفنا، وزوجته الكريمة تلوّح لنا بالمنديل — قفوا — قفوا ! وبرزت القافلة بكاملها، صفاً واحداً في الطريق الضيق، فوقفنا ننتظر السادس او السابع منها، وهو حمار الدكتور. فترجل عندما دنا منا، ودعاني للركوب. فشكرت واعتذرت. وترجلت زوجته، فتشكرت واستغفرت. — اني ناذر نذراً يا سيدتي، وكان من الواجب علي ان امشي الى الارز حافياً.

فضحكت وهي تقول : نذر مقبول ان شاء الله.

ثم سألنا عن اخينا الصياد، فقال احد الخدم : هو هناك. — اين ؟ فرفع رأسه ثم مد يده مشيراً الى صخر شاهق بعيد، فوق الصخور المطللة

الشِعاب، ودونها. هناك، تحت تلك الغيمة البيضاء، على رأس الصخر القائم كالعضادة في هيكل الطبيعة، انتصب الرفيق، وأهوى ببندقيته. ثم صاح ينادينا، واستمر الصوت مجلجلاً، فتضاعف الصدى. فهتف فرحات قائلاً: هو يروي الشعر والله. سمعت البيت. وسمعت القافية. هي بائية. لبيك يا سمراني، لبيك!

« بيض صنائعنا، سود وقائعنا، خضرٌ مرابعنا، حمرٌ مواضينا »

واين المرابع الخضر الان، يا فرحات؟ كنا قد بلغنا قمّة الجبل الثاني، وسلكنا الوعر عِرضاً الى سفح الجبل القائم امامنا، وما فيه أثر لِأخضرٍ صانه الظل، او لاخضرٍ عَصْفَرَته الشمس. جبلٌ اشهبُ تتخلله خطوطٌ وبقعٌ سحماء، هي ظلال الاضلع والشقوق في الصخور. وبين تلك الصخور سيول جافة، او منحدرات فُرشت بالحجارة. فقال الرفيق العمليق، وهو يدل على الطريق التي تلف حول ذلك الجبل: الاحسن ان « نقودم » (اي نسلك « القادومية » اي المَقْرَبه)

وكنا قد أعرضنا عن طريق الدواب، ثم عن طريق المِعْزى، وها نحن نعوض عن الطريقين، فنتوقّل حيث لا أثَر حتى لذوات الاظلاف — نسلك طريق الجن! ويا له من طريق! يا له من منحدر يكاد يكون عمودياً. وحجارته انواع واشكال، كلسية وصوانية، خشنة وملساء، مسنونة ومدورة. فتزل حيناً بالقدم، وحيناً تقرصها، فاشعر انها خرقت النعل. وكانت الشمس قد تسنَّمت السماء، فاشتدت حرارتها، فسال العرق منا، وجفت اللهاة.

وهذه صخرة ضخمة تعترضنا. — هات يدك، يا استاذ.

فقلت للرفيق العمليق: ساجلس قليلاً في ظلها، ثم اساورها.

وفكرت اذ جلست في ما خبرت من المسالك الوعرة في الجبال والصحاري، مشياً وركوباً، وفي مشقات الاسفار كلها، فكانت هذه

اشدها واخبثها. مشينا فيها على المحددات – على الظُبى – وكنا فيها متوقلين. وكنا في التوقل مستعينين بالايدي.

اذا الكُماة تنحوا ان ينالهم   حدُّ الظُبات وصلناها بايدينا.

ثم فكّرت فيا قلت منذ نصف ساعة، فكرت في النذر، فتمثلت نفسي اصعد حافياً في طريق الجن، والقديسان انطونيوس وفرنسيس آخذان بيدَي.

وبينا نحن في هذه المحنة سألني الرفيق رأيي في الادب الجديد والادباء المجددين. لله ما تفعل البطولة! فلو كان لي ان اجيبه في تلك الفينة لقلت: الاديب المجدد يقول في مثل هذه الحال: انبهرت (اي انقطع نفسي وتتابع من الاعياء) ومن جديد الادب ان تستعمل الاشتقاقَ الآخر الغريبَ من بَهَر، فتقول: أُبهِرت. (اي احترقتُ من حرِّ بَهْرةِ النهار)

ولكني، بدل ذلك، سألت الرفيق الاديب: اين الارز، يا اخي؟ هل هو وراء هذه القنة؟

فلاح لي انه لا يدري. فقد زار الارز مرة في صباه، وهذه بعد عشرين سنة المرة الثانية.

بيد انه طمأنني. فعندما بلغنا القنة قال هاتفاً مستبشرا، وهو يدل على الجبل المقابل: هناك بوابة الحجر. حدقِ النظر ترَ بعض القافلة يجتازونها. فان وراءها الارز.

حمدنا الله. ونزلنا الى الشِعب فأجتزناه، وعدنا الى التصعيد. فبلغنا البوابة، وهي مضيق بين الصخور، ودخلناها، وخرجنا منها، وأطللنا على جبلٍ آخر اشهب شامخٍ هائلٍ فظيع!

– واين الارز، يا اخي؟

– هو ولا ريب وراء هذا الجبل.

وكانت الطرق كلها، طريق الدواب وطريق المعزى – وطريق الجن –

قد امست واحدة، سيلًا من الحجارة! فلا سبيل الى الاختيار، ولا فائدة فيه.

توكلنا على الله. فحمنا تلك الوعور، وصعدنا بين تلك الصخور، والنفس ينقطع، والركاب ترتعش. اقول: الركاب، لان رفيقي اعترف بما عراه مثلي من العياء والوهن. وما رأينا، ونحن نتوقل الجبل الخامس او السادس، رأس غصن من الارز. لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

وها هنا ايضاً سألني الرفيق العزيز سؤالاً آخر، لا اذكر اني سمعت منه غير: ما قولك يا استاذ... ولكني اذكر اني قطعت عليه الكلام قائلًا: ارجوك ان ترجيء السؤالات الى ان نبلغ المحجة.

وهذه القنة السادسة بلغناها. وهذا هو الوادي السابع اشرفنا عليه. وهاك — والحمد ثم الحمد لله — الارز!

وما كان بيننا وبينه ظاهراً غير مسافة قصيرة لا تتجاوز المائتين من الامتار، فمشينا نصفها فاذا نحن على شفا هوة سحيقة هائلة!

اذا كنت طالعت، ايها القارىء الاديب، ملحمةً من الملاحم المشهورة، الالياذة مثلًا لهوميروس، او الإنياذة لفرجيل، فانك تذكر، ولا شك، المشقات والاخطار التي يخلقها الشاعر ويرسم بها السُّبُلَ الى غرضه الاعلى. وهذا الطريق الذي اجتزناه سالمين، هو ملحمة الطبيعة الى غرضها الاعلى — الى الارز.

ولكننا حتى الآن لم نصل اليه. هو امامنا، والمهواة بيننا وبينه تحيط به كالهالة، غرباً بجنوب. هي منطقة حَرَمِهِ هي حَدَبَةُ سيفِهِ، هي خندق حصنِهِ.

وعلينا ان ندور بها اليه. وما ذلك بالامر الهين. لا شيء هين في صرود الجبال. درنا بالهالة. وهي لا تختلف في مسلكها، صعوداً وهبوطاً، عما خبرنا وقاسينا من المسالك الخشنة.

ولكننا في اثناء الدوران، ونحن نعتصي بين الصخور، مررنا بصهريج

من الصهاريج الصخرية الطبيعية، عمقه نحو خمسة وعشرين متراً الخازنة فيه السماء ثلجها من شتاء الى شتاء.

هوذا الثلج الخالد في الجوار المقدس.

هي ذي الصفاوة الابدية في ظلال الاوز.

رفعت حجراً من حجارة الطريق الى فمي، فقبلته ثلاثاً ورعاً حامداً، آملاً، قبل ان دخلت الظلال القدسية.

واستغفرت الارز لامتهاني حرمة عزلته — هذه العزلة الفريدة، في اعالي الجبال، فوق وكر النسور، وراء حُجب الآفاق.

استغفرت الارز لاني جئت اشق ستار كعبته، جئت استكشف مكنون سره.

• • •

إيه، ربة الاشجار، وسيدة الجبل الجبار،

انت الرافعة اعلامك الخضراء، بين هذه الصخور الدكناء،

بنت الجديدين، واخت القمرين، حدثيني.

حدثيني وعلميني، وارفعيني الى علياء ايمانك.

فقد جئتك مستعلماً، مسترفعاً، مستمداً من ينبوعك العالي القوة، والحكمة.

• • •

حدثيني عن رياح الشمال.

— تجيئني مولولةً نائحة، فاوقفها لتستريح، فتستحيل انفاساً عطرية.

حدثيني عن الغيث اذا همى.

هو يرقص على الصخور حولي، فتقهقه هازئة، ويضرب على اوتار قيثارتي، فتُسمِعه اغانيَ البلابلِ والامواج.

حدثيني عن العواصف.

— هي تصعد هائجة من الاودية، وتهبط مجلجلة من الآفاق، فتدق حولي طبولها، فافتح لها قلبي، فتدخل ثائرة. ثم تتحول اصواتها، بين ذراعي، الى اصوات البوق والمزمار والناي، ثم تسكن وتنام، تحت اجنحة السلام.

حدثيني عن الثلوج.

— هي حصني في الشتاء، ودرعي في الربيع، فتفت من ساعد العاصفة، وتلطف حرارة الحب الجمال. وهي في الصيف أمُّ جذوري، ترضعهن تحت التراب، وبين اصول الصخور، فيبتهج قلبي، ويرتفع رأسي ثناء وحمدا.

حدثيني عن السيول.

— تعبث في بيتي وتعيث، فتعرّي مني الجذور، فأنثر فوقها ريشي في الصيف والخريف. وقد تعاونني الايام، فتحمل الي التراب على جناح الرياح، فألبس جذوري ثوباً جديداً.

حدثيني عن الصخور.

— هي المحدثة قبلي وبعدي. منها ترابي، واليها مصيري. وهي في حياتي قرة عيني، وزينة نفسي. بل هي هيكلي الخالد، العامر اليوم بي، السائلُ غداً عني.

حدثيني عن السُحُب.

— هي حجابي وجلبابي، وهي بخور محرابي، والفصول.

— والفصول الشتاء سميري، والربيع سفيري، والصيف قيّمي النَدي، والخريف كاهن معبدي.

حدثيني عن الجديدين.

النهار جليسي، والليل ضجيعي، وللاثنين يد في قِدمي واجلي.

وعن القمرين.

— الشمس مديرة اسبابي، والقمر الحاجب في بابي. الشمس تطعم اخضراري، والقمر يحفظ اسراري.

والنجوم.

— هي ايدي الله الوردية الفضية الذهبية البنفسجية. هي هي ايدي الله تعطي ولا تسأل، تنثر ولا تستعيد.

هي ايدي الله التي تحمل الي كل ما فيه جمال وابتهاج وسكينة وهدى.

ايدي الله — النجوم — ربات الشعر، ربات الفنون، ربات الخيال الصفي والغبطة الشجية.

النجوم هن الحسان اللواتي ينشدن في ظلال منسكي. وهن العذارى اللواتي يرقصن في معبدي.

النجوم هن الوفيات الصفيات. البعيدات القريبات، اللواتي يزن وجومي، ويلأن من كلومي، ويعلمنني الابتسام، ونسج الاحلام.

• • •

أرز جبالي، ارز اجدادي،
ان لياليك ليالي، وان نجومك نجومي.

ارز الرب

المسافة بين جاج والارز مسافات. فهي قصيرة للماشي، اذا كان من الفلاحين او الرعاة الاشداء، فيجتازها بساعة واحدة. وهي طويلة على الراكب الذي يدور بالطريق، فلا يقطعها باقل من ساعة ونصف ساعة. وهي طويلة جداً لمن يكابر مثلي، فيأبى ان يركب حماراً، ويعجب انه توّقل خمسة الجبال بساعتين لا غير — ويفاخر بذلك.

بلغنا المحجة، ايها القارىء الكريم، ونحن ننهج إعياء وعطشا. وكان الرفاق قد وصلوا قبلنا، وارسلوا من يستطيعون النزول الى اقرب صهريج من صهاريج الثلج، فجاءوهم بحمل منه. اما الحملة — اي الماء والزاد — فقد كانت تخلفت في الطريق، فشاهدنا الرفاق وبيد كل منهم قطعة من الثلج يمتصها ليفثأ حر العطش.

والرفيقات — السيدات الطروبات الخفيفات الروح والرجل — شاهدناهن، وربك، في قلب احدى الارزات الكبرى، جالسات بين الفروع الضخمة، وبايديهن قطع من الثلج يمتصصنها، فتحمَرُّ من الشفاه. ما اغرب من الخيال غير الحقيقة. فهاكم حور الجنان، يلعبن بين الاغصان، ويأكلن اقراصاً من العسل واللبن. وما اللبن والعسل في مثل هذه الحال بالذ من الثلج!

جلسنا على حجارة تحت تلك الارزة، ورفعنا الى الحور الوجوه، وفتحنا الافواه لنلتقط الثلج من ايديهن، فاثلجن منا الصدور حقيقةً لا مجازاً، وضحكنا كالصبيان، وما بالينا بما كان، فنسينا عرق السفر، وقد نفخت فيه ريح باردة، فارتعشنا، ورحنا ننشد الشمس.

ثم جلنا في الغابة، القائمة على منحدر شكله مستطيل، وفيها اربعون ارزة ونيف، خمس منها ضخمة قديمة، دائرة احداها نحو ستة امتار، وعلوها نحو ثلاثين متراً

ان لهذه الارزات الكبيرة شكلاً في النمو غريباً، ما رأيت مثله في ارز بشراي. فالجذع، بعد ارتفاع متر او مترين من الارض، يتسع في نموه، فيتكون فوق الجذع الاول جذع ثان، دائرته تزيد الدائرة الاولى مترين او ثلاثة امتار. فيبدو اسفل الشجرة كالمائدة المستديرة بقاعدتها، وتنشأ من المائدة الفروع الضخمة التي تعلو نحو خمسة وعشرين متراً.

عددت في احدى هذه الارزات اثنى عشر فرعاً، وكلها كبيرة قوية طويلة، فيصح ان نقول ان اثنتي عشرة ارزة نمت من الجذع الواحد، او بالحري من المائدة الواحدة، وتتراوح دائراتها بين المتر الواحد والمترين.

اما الأخرى من اشجار هذه الغابة، فان منها بضع ارزات مزدوجة ومثلثة الجذوع. وما تبقى هو من ذات الجذع الواحد الطويل القويم، ويتراوح طولها بين الخمسة عشر والخمسة والعشرين متراً. اما الدائرة فلا تتجاوز في الكبيرة منها المترين.

لست من العالمين المدققين في عمر الاشجار. ولكني اظن ان الارزات الخمس الكبرى زرعت في هذه الغابة، منذ مائتين او ثلاثمائة سنة، وان عمر الامهات يتراوح بين الخمسمائة والستمائة سنة. ففي ذلك الزمان كانت البذور تقع في تربة قليلة الظلال قليلة الجذور، ترعاها الشمس بحرارتها، ولا تمحقها حيث تنبت اقدام الناس، كما هي الحالة اليوم في ارز بشراي. فانك ترى تحت اكثر الاشجار مئات من النُبَيتات الخضراء الارزية، في شكل ٧، اي ذات فرعين، ولا تعيش واحدة منها لكثافة الظل وامتلاء التربة بالجذور، التي تستنفد كل غذاء فيها [1].

---

(١) وقد قال المهندس الزراعي اسعد يونس، بعد قراءة ما تقدم ذكره، ومن الاسباب، بل اهمها، الجفاف في الصيف.

ومما يُرجح صدق ظني ان الارزات الكبرى زرعت في هذه الغابة هو وجود ارزات فريدة، متوسطة الحجم، متبعثرة في هذا الجوار، بين صخوره، وفي منحدراته الحصوية. ومن تلك الارزات الوحيدات في عزلتها ومجدها، ما هو من الشكل الواسع الهرمي، اي الواسع الاغصان الافقية.

عددنا تلك الوحيدات، التي هي فوق الغابة ودونها، شرقاً بشمال، فاذا هي سبع عشرة ارزة. وكل واحدة منها آية في جمال نموها المستوي، وفي محيطها الصخري، وفي ذلك الرونق الفني الذي تظهره الاضداد. هي اهرام خضراء، بين جلاميد دكناء، وفي انحدارات جرداء بيضاء. وعندما يصعد الضباب، وترق حواشيه، تبدو تلك الوحيدات الجميلات فيه كالحسناء في حجابها، ترفعه وتسدله غنجاً ودلالاً، او كالراقصة في سرابيلها الشفافة، التي تظهر محاسن جسمها وتخفيها. ثم ينجلي الضباب، فيبدو الاخضرار ندياً، صقيلاً جديداً، كأنه خرج في تلك الساعة من مصبغة الله تعالى.

قلت ان في الغابة اربعين شجرة ونيفاً، وفي جوارها الظاهر للعيان سبع عشرة شجرة مشتتة. وقد اخبرني الناطور، واثبت قوله العارفون من ابناء جاج، ان في تلك الصرود، بين الافق الكبير الذي يخفي تنورين عن الابصار، وبين الآفاق الصغيرة التي دونه — في الشعاب وعلى اكتاف الاودية — سبع غابات اخرى، وان مجموع ما في اعالي جبال جاج هو يربو على اربعمائة شجرة.

هذا ارز جاج الذي يعلو عن سطح البحر نحو الفي متر. ولا يبعد اكثر من سبع ساعات مشياً من جبيل، ميناء فينيقية القديم. ولا ريب ان هذه سبع الغابات الصغيرة كانت غابةً واحدة كبرى في قديم الزمان. بل ان جبال جاج كانت مكسوة بالارز، الذي كان يدعى أرز الرب.

ولماذا دُعي ارز لبنان بارز الرب؟ وهل كان يدعى كذلك في عهد الفينيقيين؟ الجواب على السؤال الاول معروف، وغير مشكوك فيه، لدى

نصارى الجبل. والجواب على الثاني مجهول لديهم ولدي. فاذا كان هناك من يستطيع الجواب عليه، فهو ذلك العالم بتاريخ الفينيقيين، صديقي الابر شارل قرم. اني احيلك اذن اليه، واسلفك الآن بالقليل من علمي.

فقد فتحت دائرة المعارف، وقرأت ما جاء فيها عن الارز، فاذا فيه ان في جبال حمالايا، الحافلة باديرة البوذيين، ارزاً شبيهاً بارز لبنان، يُدعى أرز الرب! فهل يُدعى بهذا الاسم هناك لانه في جوار الاديرة والمعابد، اولانه اكثر الاشجار مناعةً، واجملها شكلًا، واطولها عمرا ؟ وهل جاءنا هذا النوع من الارز، وهذا الاسم اسمه، في قديم الزمان — الزمان السابق للعهد الفينيقي — من تلك الجبال، جبال حملايا؟ اني استرعي لهذه المسألة نظر انتباه صديقي القرم.

واعود الى ما يهمني الآن من الموضوع. فاذا سلمت بان ارز لبنان سُمِّيَ بارز الرب لان سليمان بن داود استجلب منه الى القدس لبناء الهيكل، هيكل الرب، فينبغي ان اسلم ايضاً بان الميناء الذي شُحن الارز منه هو ميناء جبيل. ولا يعقل ان يكون الملك حيرام جلب الارز براً الى صور، ومنها شحنه بحراً الى فلسطين.

اقول هذا. ثم اعيد ما قلت ان ارز جاج هو على مسافة سبع ساعات من جبيل. اما ارز بشراي فهو على مسافة خمس عشرة ساعة وزيادة. فمن أية الغابتين قُطع الارز الذي حملته المراكب الفينيقية الجُبيلية الى ميناء فلسطين لبناء هيكل الرب ؟

أَيُعقل أن يكون التاجر الفينيقي قد فضَّل الأبعدَ على الاقرب، وما بالى بالنفقات؟ أَيُعقل أن يكون قد فادى بقسم من ارباحه اكراماً لوادي قاديشه؟

اني اعتقد ان تجار الاخشاب الفينيقيين الجُبَيليين فضلوا الغابات القريبة على البعيدة، لان نقل الاشجار المقطوعة منها هو اقل نفقةً واسهل. هذا هو المعقول الذي يدحض المنقول وينفيه.

ان ارز الرب اذن هو هنا بجوار جاج، في جبال تنورين.

الصخور

والصخور ؟

هل وقفت مرة بين الصخور، في اعالي الجبال، تتأمل تكوينها واشكالها، ومعاني جمالها وجلالها ؟

وهل نظرت خلال الهياكل الطبيعية المتهدمة الى ما وراء العُمُد والجدران — الى روح الكيان، ويد الزمان ؟

هل في شموخها غير العز، وفي روعتها غير الصولة، وفي هولها غير الاخطار، وفي رسوخها غير القوة، وفي تخاريبها غير الضعف، وفي صفوفها غير الفوضى، وفي منعوجاتها غير الجهل والحيرة.

• • •

الصخور الشاهقة المحلِّقة، الصخور الرابضة والواثبة والهاوية، الصخور المانعة الواجمة المنذرة، الصخور المكسَّرة المشققة المشتَّتة، الصخور المتكاتفة والمتخاذلة — هل وقفت مرة تتأملها، وتحاول الدخول الى قلبها، الى السر المكنون فيها.

ان في قلبها النواة التي كانت تموع تحت الامواج، في قعور البحار.

ان في قلبها جرثومة الحياة الازلية الابدية.

ان في قلبها الذرَّةَ السرية، التي تحيا بالتحطيم، فتغدو غذاء وشذىً في الاشجار والازهار.

ان في قلبها سجنَ الانانية، وصمتَ الاحزان

ان في قلبها الرمزَ الخالد لسوط الزمان.

ان في قلبها رسالةَ التصعيد، حتى في الجلاميد.

من قعور البحار الى اعالي الجبال — من ظلمات المُوحِلَة المُجرِثَمة المُطَحلَبَة، الى اوج النور والتبلور والصفاء—هذه مرحلةالصخور، بل ملحمتها.

وهل في شموخها غير العز والمجد؟ ان فيه ضرائحَ التضحيات، واحاجيَ الموت والحياة.

وهل في روعتها غير الصولة والجلال؟ إنَّ فيها الصبر القاتم، والعزم الواجم، والصمت الدائم.

. وهل في هولها غير الاخطار؟ ان فيه نبأَ البراكين والسعير، وقصة الزلازل والاعاصير.

وهل في رسوخها غير القوة؟ان فيه بيان الاقدار، وسلاسل الليل والنهار.

وهل في تخاريبها غير الدليل على الضعف والوَهن؟ إنَّ فيها الدليل على عطفٍ لا يزال في قلبها حياً، وعلى حنان لا يزال نديًّا. ان في تخاريبها بيتاً للعُصفُور، ومأوىً للحلزون. وان فيها نايات للرياح.

وهل في صفوفها غير الفوضى؟ ان فيها تتمثل اوليات الحياة في التحرير والتقييد، وسُنَنَ الحياة في التنوع والتوحيد.

وهل في منعرجها وتقطُّعها غيرُ الجهل والحيرة؟ ان فيها علماً وهدياً ووحياً لارباب الفنون.

• • •

هي الصخور، الناطحات السُحُب، القاطعات الطرق على النسور.

هي الصخور الحاضنات البطاح، الحارسات مضائق الرياح.

هي الصخور المزينة الصرود، الرافعة للعزلة البنود.

هي الصخور الجاثة الواجمة، الساخرة بالبروق والرعود.

هي الصخور الحافظة للارز الابواب، الضاربة حول الارز الاطناب، الحاملة عرش الارز على المناكب والرقاب.

الجبلات تحت الارز

جاسنا في طرف الغابة الاعلى، تحت الارزة الكبرى، ننتظر الرفاق الآخرين، القادمين من وراء الجبل الجنوبي – من اللالو. فقد كنا على عهد وايام، عُقد في بيروت، وعلى يقين، لما كان من التأكيد، انهم سيصلون قبلنا.

وكانت الحملة قد وصلت، فسارع الخدم الينا بالماء من عين جاج، وقد برّدوه بثلج الارز.

بيد اننا، بعد الارتواء والاستراحة، شعرنا بالجوع، ووهن الصبر في بعضنا، فتهامسوا متضجرين، وما كل من رافقنا كان بالارز وبالصخور مفتونا، فأشفقنا على يومنا من التضجر، وبتنا نرقب المضيق بين الصخور، في الافق الاعلى — المضيق الذي يجوزه القادم من تنورين او من اللالو — علنا نرى خيالا هناك يبعث الامل والنشاط في النفوس.

وبينا نحن كذلك اذا بضيوف آخرين يلقون في الارز عصا التصعيد. فكان الدكتور فرحات قد دعا بعض اصدقائه واصدقائي من آل لحود المصيّفين باهدن، فوصلوا دون ان نراهم. ولكننا سمعنا اصوات التأهيل والترحيب، فرحنا نشارك بها، وكنا بين شاهدنا فرحين مبتهجين. كيف لا، وبينهم ثلاث من الغيد ينسين الرجال، وخصوصاً في وعور الجبال، العطش والجوع.

ثلاث من الحسان يلبسن اثواباً بسيطة ولكنها انيقة، وينتعلن النعال، ويحملن العصي، ولا يبدو على وجوههن أثر من التعب او من حرارة الشمس. فورد الخدود وياسمينها ناضر غير ندي، وقرمز الشفاه ثابت في

مكانه، والاصوات منهن صافية كذلك رنانة، كانهن خرجن في ذلك الحين من خدورهن.

فكانت الدهشة الاولى، وكان السؤال بعد السلام: جئتن راكبات ؟

فأجابت احداهن: نحن من هذا الجبل، فلا يعصي الجبل على ارجلنا.

فقلت في نفسي: أوَفي هذا الجبل مثل هذا القنص ؟ ثم سألت متأكداً: جئتن ماشيات ؟!

— نعم ماشيات.

— من جاج ؟

— بل من لحفد.

وكانت الدهشة الثانية مقرونة بالفخر والاعجاب. فمن لا يفخر ويعجب بالفتاة اللبنانية المهذَّبة المنعَّمة، التي تستطيع ان تخشوشن كالرجال، بل تباري الرجال وتفوق بعضهم عزماً ونشاطا.

سَرَتْ في الجماعة، بعد وصول الضيوف الجدد، نسماتُ انس منعشة، فغاض الضجر، وفاضت الاحاديث.

وكانت الدهشة الثالثة ان احدى الحسان [1] « بنات هذا الجبل » من الاديبات اللواتي يحببن العرب، ويعجبن بالاداب العربية، وبكل شيء عربي. وكلهن، مثل زوجة الدكتور فرحات وشقيقته، يحسن الفرنسية، ولا يتكلمن بغير العربية، وهن من قلب لبنان، يا قارئي العزيز، يحببنه حب مؤلف « الجبل الملهم » له، ويغرن عليه غيرة ناظم النشيد اللبناني، ويفاخرون به مفاخرة كاتب هذه السطور فهن اللبنانيات، العربيات، الكريمات، اللواتي نفاخرُ بهن، وتطأطيء الرؤوس لهن.

(1) هي الاديبة فيولومن لحود - قد ترددت في ذكر اسمها، ثم قيل لي لابأس بذلك. وما ذكر الكاتب لها، وقد اجلّها الله تعالى، فشرفها بالجمالين، جمال الوجه وجمال العقل. انه لكريم، وانه لحفيظ.

سأل احد الادباء — والحديث حتى تحت الارز ذو شجون — ما هو الجمال ؟

فتناول الموضوع بعض من حضر ، وأبديت الآراء. ثم قالت احدى الحسان : الجمال ذوق، والاذواق تختلف.

فقالت الأُخرى وهي اجمل منها : الجمال الحقيقي هو الكامن فيا ظهر من الجمال.

فصفقنا لها بالايدي، وهتف الاديب قائلًا : مرحى، مرحى ! ثم همس في اذني : لولا الخوف من التحاسد بينهن لانتخبناها ملكة الجمال.

كنت ابعد الناس في تلك الساعة عن ملكات الجمال الاصطيافية، وقل الصيفية، وما كنت في تأملي الجمال اللبناني تحت الارز، مسترسلًا الى العاطفة اكثر مني الى العقل. بيد ان للمكان فعله في الرؤوس كما في النفوس. فان اقلّ النساء جمالاً هي جميلة تحت الارز. هذي هي حقيقة لا تُنكر. وهناك حقيقة أُخرى : ليس اجمل من المرأة الجميلة غير المرأة الجميلة تحت الارز.

هذا ما كنت اقوله في نفسي عندما بَهتني ذاك الاديب بفكرة انتخاب ملكة الجمال الاصطيافية.

ثم خرجنا من الظلال، ومشينا بين الصخور، في بَهرة النهار، وانا لا ازال اتأمل الجمال النسائي، وافرش زاويةً في القلب للبناني منه، فغيرت رأيي في الجميلة تحت الارز، وقلت ليس اجمل من الجميلة غير الجميلة بين الصخور. واني على صواب في القولين.

ان الجميلة تحت الارز تعارض بمحاسنها شيئاً جليلًا في محاسن المخلوقات، ولا تضيرها المعارضة، بل تزيد برونق تلك المحاسن البشرية. وان الجميلة بين الصخور لَألطف وابهى وانعم ما خلق الله، امام اشد مخلوقاته قسوة ووجوماً وهولا. انها في المحيط الاول شطحة للخالق في الابداع، وانها في المحيط الثاني آية من آياته تعالى.

وهناك فارق آخر. ان بعض محاسن الجميلة المنعّمة، كنور العين، وبريق الابتسام، تزداد حسناً في الظلال. اما الوجه اجمالاً، ببشرته وأسِرّته، وبانواره وظلاله، فهو اجمل بين الصخور، في نور الشمس، من تحت الاشجار الظليلة.

وبعد هذا التفلسف اقول ان اجمل ما يفعل الرجل في تلك الاعالي، بين تلك الصخور، هو ان يقبّل الوجه الجميل، اعجاباً واجلالا، ولو كان وجه امرأته. وان ذكرى هذه القبلة لَتنطبع في القلبَين، قلب المرأة وقلب الرجل، مع ذكريات المكان، فترسخ وسوخ تلك الصخور، وتظل خضراء مثل الارز. فهل فعل ذلك احد منا نحن الرجال؟ وهل كان «الفيلسوف» في تلك الساعة الفريدة، قدوةً يُقتَدَى به؟

لله ما تفعل التَّجِلةُ والشهرة. فقد كنت «فيلسوفاً» محترماً (وقاك الله الفلسفة والاحترام، ايها القارىء العزيز، وجعل ذكرياتك كلها جميلة) اقول: كنت ساعتئذٍ «فيلسوفاً» محترماً، وما كانت، واأسفاه! القبلة.

عفوكِ، ايتها القارئة الحسناء. اقبل يدك، وأضع زهرةً من العُصْفُر — زهرة الجبل الاولى بعد الصيف — على ضريح السُّوَيعة التي فقدناها ....

اعود الى قصة النهار. بينا نحن جالسون على الصخور، سمعنا طلقة رصاص، فبادرنا الى ناحية الصوت، فاذا بالصيادين يتبارون بالرمي ويفاخرون. واذا بشاب يحمل سيكارة بيده، واقفٍ على خمسة امتار منهم، والاصوات فوضى من مُسْتَعِرِ الكلام. دنونا من اصحابها مستفهمين، ففهمنا ان احدهم يدَّعي، والثاني يتبجَّح، انه بطلقةٍ واحدةٍ من رصاص مسدسه، يشطر السيكارة التي بيد الشاب شطرين. والشاب واقف هناك غير هيّاب، وقد تمثلت فيه شجاعة البُله. فاوقفنا هذه البطولة في غرتها، وقلنا للقوم سائلين: وهل ينقص شيء من مهارة الرامي يا ترى اذا كانت السيكارة بيد الصخر، لا بيد الشاب؟ ضعوها على الصخر، وهاتوا برهانكم ان كنتم صادقين.

سمع الابطال لنا، فاوقفت السيكارة على الصخر. ثم أطلق عليها البطل الاول مسدسه، فراحت الرصاصة في الهواء صاردة، واطلق الثاني رصاصة، فأصابت الصخر وما تقلقلت السيكاره. سبحان الله، والحمد لله. هنأنا الرامين بمهارتهم، وهنأنا الشجاع الابله بسلامة يده!

وها أن البنادق تدوي بين الصخور. فقد مل الرجال الانتظار، على ما يظهر، وراحوا يتلهون بالرمي. ثم سمعناهم يهجزون، ورأيناهم، والبنادق بايديهم مرفوعة، ماشين في الطريق المؤدية الى الجبل الاعلى. فقد ابصروا في المضيق الرفقاء القادمين من اللالو، وراحوا يلاقونهم هازجين.

« يا بيكنا طُل وشوف
لمع البيارق والسيوف.
يا بيكنا طال المدى
وسلاحنا اكلهُ الصدا »

وأُطلقت البنادق والمسدسات، فرفُع الستار عن مشهد العيد، ورفعت النساء اصواتهن بالتغاريد.

وكان الضباب قد غير وجه الجو، فتكاثف فوق الجبال، وبدأ في تلك الساعة يذوب، فامطرتنا السماء رذاذاً، كان له نغم شجي بين اغصان الارز، ومنظر شيق وهو يتساقط في الغابة كخيوط من الفضة.

اذ ذاك جاءني نبي الجماعة، الذي كان يتنبأ منذ الليلة البارحة بان سيكون اليوم ماطراً، جاءني، وفي طرف عينه النكتة، وفي طرف فمه لفظة الظفر. فقلت له قبل ان يتلفظ بها: ما شاء ربك ان يكون المشهد ناقصاً. فقد مثّله لنا في الصيف، وها هو، سبحانه وتعالى، يرينا من جماله الشتاء.

فهز النبي رأسه وهو يقول: جعنا، والله، جعنا.

وكان وقت الانتظار يقصر سريعاً. فهاكم جماعة اللالو يظهرون بين

الصخور، ثم يختفون. وهم جميعاً ماشون ا حياهم الله وحياهن. وكان دوي البنادق، واصوات المازجين، تزداد روعة في البعد والخفاء، فتسمع من البيت صدى « السيوف » ، وجلجلة « المدى » و « الصدا » . فتفعل في النفوس ما لا يفعله القرب والنظر.

ومن تظن كان في الطليعة ؟ مَن السابق ؟ غادة والله من الغيد. غادة شقراء هيفاء من المنعمات. وصلت وهي تتنفس تنفساً متصلاً رهواً هادئاً. كأنها قادمة من الكنيسة او اليها.

رحبنا بها، وهتفنا بحياتها، واكبرنا عزمها، ثم اجلسناها على ديوان الشرف — عباءة مفروشة فوق الحجارة — تحت الارزة الكبرى.

وتواصلت بعد ذلك الاهازيج، وأطلق الرصاص، والاغاريد. فأطل من بين الصخور الدنية فريق من « الفرسان » يحملون على اكتافهم سيد اللألوء، وابن هذه الجبال البار، اسعد يونس.

فرحبنا نحن به، وهتفنا بحياته، واكبرنا عزمه. ثم اجلسناه الى جنب الشقراء الهيفاء، على ديوان الشرف، تحت الارزة الكبرى .

ثم وصلت متوسطة الجيش، وفي مقدمتها ولد صغير، وجبار في الخمير، هو ابن اسعد يونس، وغادة أخرى من المنعمات، هي شقيقة الشقراء. فرحبنا بها، وهتفنا بحياتها الخ .

ثم تجددت طلقات البنادق، وعلت اصوات المازجين، وبانت المؤخرة، وقد حمل « الفرسان » على الاكتاف، بل رفعوا فوق رؤوسهم، من تقدمها، وهو روح « الجبل الملهم » وشاعر الشمس، وصديق كل موهوب ومظلوم، شارل قرم.

فرحبنا به ثلاثاً، وهتفنا بحياته ثلاثاً، واجلسناه على الحجر الاخشن بين الشقيقتين.

وكنا في ذلك من الظالمين. فقد كان ينبغي ان تلبسه العباءة، وننادي

الطبيب. غير ان صوته نفى ما بوجهه من امتقاع. فقد خرج من اللالوه محموماً، فاشتدت الحمّى في الطريق، وكانت حرارته، بعد اربع ساعات من المشي والتصعيد في اوعر الجبال، تدنو من درجة التسع والثلاثين. فثابر مع ذلك وجلد، فادهش رفقاءه وادهشنا. بل كان هو البرهان على ان القوى المعنوية والروحية تقوم مقام القوى الجسدية، وتبلغ ما تبلغه، اللهم اذا كان المرء مسروراً مبتهجاً بعمله.

وقد قال لنا شارل قرم: المشاهد التي كانت تنكشف امامي، المشهد بعد المشهد، وتتنوع في عظمتها وجلالها، انستني والله الحمّى. واني أؤكد لكم ان الابتهاج يشد الركاب.

فما اشفقنا عليه بعد هذا البيان والجبروت.

وكانت قد سكتت البنادق، وسكتت الهازجون، فنفخ القصّاب بقصبه، وبادر الرجال والنساء الى الساحة يعقدون الحلقة، حلقة «الدبكة»

«يا غُزَيِّلةِ العل القنا
اشربي لَقَلْبك : هنـا
يا دلك وان مت انا
بعدي من تصاحبا»

واشتد صوت المزمار، وصفق بالايدي الكبار والصغار، وكان اسعد يونس في رأس الحلقة، يطأ الثرى حيناً كالغزال، وحيناً كالرئبال، وصوته الجهوري البدوي يبعث الحماس في الصدور، ويدوي في الارز، وبين الصخور. حياً هلا، حياً هلا!

ثم مُد السماط، على بلاطة كبيرة، صُفّت حولها الحجارة، فجلس فريق عليها، وجلس الآخرون في حلقات اخرى، فجاءت بنات القرية والخدم باللحوم المشوية والنيئة، وبالمحاشي والكباب. وكانت شقيقة الدكتور فرحات تدور بالضيوف، وبيدها الكؤوس، والى جنبها شاب يحمل العرق،

111

أدرها، ايها الساقي،
وقل : اهلًا بعشاقي.

اما زوجة الدكتور فقد كنا نراها في كل مكان، مديرة وخادمة معاً، فتغذي الحلقات وتؤنسها بما تحمله بيدها وبقلبها.

ليعذرني القارىء اذا انا تغنيت بهؤلاء اللبنانيات وبمثيلاتهن، أخواتي في هذا الجيل — أخواتنا اللواتي بقين لنا وللجيل بما هو الارث اللبناني، اي الكرم واللطف والمروءة والوداعة.

جلست الى السماط بين اثنتين منهن، وقبالة الشقيقتين الباسمتين على الدوام. قيل لي انهما من مصر. فما ادهشني جمال الخَلق والخُلق فيهما، كما ادهشني منهما ذلك العزم والنشاط. فقد قحمتا مشقات الطريق، وذلّلتا عقبات الجبال، كالرجال.

من مصر هما ؟ لا، يا سيدي. ان والدهما لبناني، وامهما لبنانية كسروانية. ولكن الوالدين هجرا لبنان قديماً، وقصرا، بل تفرنجا. غفر الله ما تقدم من تفرنجهما وما تأخر. فان البذرة، بذرتهما، ما فقدت، برغم التفرنج، شيئاً من الفطرة اللبنانية الطيبة، او من النشاط اللبناني. حيا الله الشقيقتين اللبنانيتين. وبما انهما حجتا ارز جاج مشياً، قد غفرنا لهما الثغثغة بالفرنسية.

عادت الشمس تشق الغيوم شقاً رقيقاً، وتشرق إشراقاً ناعماً، في البعيد من المشهد المنبسط امامنا، شرقاً بشمال. فرأيناها تضيء البحر عند رأس الشقعة، وتشع فوق جبال الكوره. ثم لاحت طرابلس من خلال حجابها الشفاف، وظهرت، بعد قليل، ارواد.

استمرت الشمس تسرّح السُحُب باناملها الذهبية، ففتحت نافذةً لنورها فوق البترون، وباباً فوق دوما، وشرعت تنسج من ذهبها، ومن فضة السحُب في جوّنا العالي، فتُلبِس الارز والصخور السرابيل المَوشِيَّة.

ودَّعنا هذا المشهد الرائع الساحر، وعدنا جميعاً في اقرب الطرق، اي في المقربات التي لا طريق ولا مسلك فيها. وكان يأخذ بعضنا بايدي البعض، ونحن نعبر المنحدرات التي لا تصلح حتى للتدحرج والزحلقة.

ومع ذلك كنا نسمع صوت القصب على الدوام، ونسمع الهازجين يهزجون. وكلما وصلنا الى منبسطٍ بين الصخور، او الى سفحٍ من الجبل ممدود، كان يعقد الراقصون والراقصات الحلقة. « الدبكة » حتى النهاية!

وهذه ارزة من الارزات الوحيدات، ترافقنا في الدوران، تشيعنا لطفاً وكرماً، ثم تودعنا، فتحجبها عنا شوامخ الجلاميد.

وهذه الشمس تغيب، والقصب يودّعها بنغَم الفراق والعتاب.

ونحن لا نزال في منتصف الطريق، فنثب حيناً فوق الصخور، ونتسلل حيناً تحتها، في غسقٍ يعدو فنباريه، لنصل الى الطريقِ السالك الامين.

وهناك، انارت لنا السماء بعض النجوم — فرافقتنا الى جاج.

الرحلة الخامسة

الى اللاءلوء [1]

محتويات الرحلة

---

(١) المعروف باللقلوق

الى القارىء

لا تزال في البلاد التي نزح منها الاجداد، في جبيل. وانه ليجدر بنا، قبل ان تتحرك القافلة، قافلة السيارات، ان نعرّف الى القارىء رفقاء الطريق، وهم في هذه الرحلة، كتب الله لنا فيها السلامة، كثيرون.

اقول « كثيرون »، ولا اقول « كُثُرٌ » جرياً على اسلوب المتنطسين، لاني اكره هذا التجدد اللفظي، بل هذا البعث اللغوي في الادب الحديث، واكره كذلك الالفاظ الثلاثية الساكنة العين اذا جاءت في آخر الجملة او عند الوقف منها فلا استعمل غير ما ليس مَفرٌّ منه. الساكنة العين، الساكنة القلب، الساكنة الروح — المائتة! انها مع ذلك تتجاسر على الفم فتأمره بالوقف، ثم بالجري، عابثة متحكمة. اما اذا جاءت في آخر الجملة — وما اكثر الكتاب الذين لا يحسنون انتخاب الكلمة التي يحسن الوقف عندها — فلا مناص اذ ذاك، ولا مفرّ من الوقفتين، وفيهما ما هو اخبث من الموت. فيهما تلقط الاسنان اللسان، اذا لم يكن سريع الحركة خفيفها، كما يلقط الفخ الفرنجي الجراذين.

اما في « كثيرون » فلا خوف عليك من العين الساكنة، من القلب الساكن، من الوقفة التي هي اخبث من الموت. انك في « كثيرون » لفي بحبوحة من الحركة، بل من الحياة.

عسى ان يتقبل منا ارباب اللغة النُطُس — العفو، المتنطسون — هذه الفذلكة اللغوية، كما يتقبل الله الفاتحة من المؤمنين الاتقياء. وعسى ان يكون لنا من لدنه تعالى ما يكون للاتقياء المؤمنين، فَتُذَلَّل امامنا العقاب الصعاب، ولا نلقى في الجبال غير الاحباب.

116

وها نحن في الموعد المعين للاجتماع، على نهر ابراهيم، انما في غير المكان المعروف المكشوف، الذي كنا نرى فيه، الى جنبي الطريق عند الجسر، مقهى ونسوةً وخيمةً واسرّة في نظرةٍ واحدة. اما النسوة فلا يزلن هناك، يقفن على الابواب، وفي خدودهن الجلنار الرطيب، وعلى ثغورهن ابتسام الحبيب، وتحت اهدابهن المثقلة بالإثمدِ تأهيل وترحيب. تباركت يا جبيل بناتك الفينيقيات، وتبارك ربهن القديم الذي لا يزال يرعاهن، ويضرم من نار هيكله في احشائهن.

وقفنا بين تلك المقاهي، ثم عدنا ادراجنا. ما ضللنا الطريق، ولكن مغاني النهر ارتقت وتراجعت، فجاء من يدعونا الى الايوان، في البستان، وراء الجادة العامة، وبعزلٍ عن العوام – الانعام – من بني آدم.

نعم لقد تمدن النهر، فصار يهمس ولا يصيح، ويقول في الضيافة القول الصريح الفصيح. كيف لا وقد غدا الدكان على الطريق، مُقهى عند المضيق، على الضفة الجوانية، وراء ستار من العرائش والقصب الفارسي، في بحبوحة من ظلال الدلب والصفصاف.

اننا في الطريق اليها نمر بجسر الحجر القديم، الذي لا يزال عامراً للمكارين والمزارعين. والى جنب الطريق بين البحر والجسر ارض عالية مغروسة بالموز والليمون غرساً جديداً ينبئ بزراعة جديدة في هذه الاراضي القديمة. فلا تكاد تسأل وكيف تسقى هذه البساتين والنهر منخفض عنها حتى تصل الى من يجيب على سؤالك. هوذا بيت الطاقة المائية، وفيه الادوات والمضخات تسيّر بماء النهر فترفعها اربعين قدماً الى ما فوق مستوى تلك البساتين فتحمل اليها الحياة، وتبعث فيها اسباب الثروة والعمران.

وهناك على ضفة النهر الأخرى مطحنة ومعمل ثلج على الماء، ورجال ونساء يشتغلون فيهما، ودواب محملة تذهب وتجيء، وغنم وبقر ترعى بين

اشجار التوت، واسراب من الطيور الدواجن تنعم بنفاءٍ – بخبرات – الطاحون .

اما المقهى فهو وراء بيت الطاقة وقبالة معمل الثلج . هو التمدن الحديث بادواته الاقتصادية والزراعية والصناعية. وان في المقهى مظهراً آخر من مظاهر الرقي، ان فيها خدّاماً يحسنون الخدمة، ولا يشار كونك في الحديث وان فيها صفاً من بواسق الدلب فخماً جليلاً، يبسط ظلاله على صف من الموائد القائم الى جنبها، في خطٍ ذي أهِلّة طويل، درابزون من الباطون، يفصل بينها وبين النهر .

وقلما تثقل او تجف تلك الظلال، ظلال الدلب والصفصاف، لما يغشيها على الدوام من النسيم وهو قلما يجيء صفر اليدين. فان جاء من البحر يحمل اليها شيئاً من ريحه الرطبة المالحة، وان جاء من الجبال يمر بالبساتين، فيتزود من طيب اريجها لينشره في تلك الظلال. فهناك على هامش المقهى بستان من الزهور، دونه بستان من البقول، دونه بستان من الموز والليمون، يختفي اقصاه في شِعب الوادي .

ولا عَلَمَ للحور الفينيقيات، ولا اثر لهن في هذه الجنان . اما اذا ابصرت ورد الخدود في احدى نوافذ البيت، بيت صاحب المقهى الشبيه في اطنافه الرحبة بدارٍ صينية، فلا اظن انك تؤثره على ورد البستان القريب منك . ذلك لان جوَّ المكان يرفع بك الى مستوى الغبطة الروحية، ويدخل على القلب سروراً مصفًّى بصفاة السكينة والاطمئنان، فتكتفي من الورد بمنظره، ومن الصفصاف بظله، ومن النسم بطيبه، ومن النهر بزهو امواجه .

وقد تقف على شفا الضفة وراء الدرابزون تنظر الى تلك الامواج، كما يقف المسافر على ظهر الباخرة ينظر الى البحر، فتسترسل الى احلامك، فيحدث اثناء ذلك الحدث العجيب، تتم المعجزة. فبين انت تحدق بالمياه الجاريه ينعكس المشهد، فتظن نفسك على ظهر مركب يجري في النهر

115

جرياً معاكساً لجري امواجه التي تبدو ساكنة . هي خدعة بصر تصورُ اليك انك صاعدٌ من النهر الى الجبل !

واذا كان لا يروقك مثل هذا اللهو في النزهات، وكنت تؤثر الحقيقة على الخيال حتى في جنان نهر ابراهيم، فان في الأوزّ وهو يخوض عباب النهر ما يستوقف منك البصر والبصيرة. هاكه في حِماه بالقرب من الطاحون. وهاك إوزّة تتهادى الى المياه، فتخوض الرقراق ماشيةً، فيغمرها بعد قليل حتى جناحيها، فتنشرهما وهي تركب ظهر الموجة، فتجري بها تجاه البحر. ثم تعود تلك الإوزّة صعوداً في النهر، وهي تسبح بزهوٍ آمنةً مطمئنة. مع انها تغالب الماء الجاري عليها. ولكنها لا تهن ولا تختصر العودة. بل تستمر سابحةً الى المكان الذي نزلت منه، فتعود الى لهوها ومرعاها، الى حماها، تحت صفصافات المطحنة.

ليس ما ذكرت من أمر الإوزّة بأهم ما استرعى نظرك اليه فانك اذا صبرت في مراقبتها ربع ساعة فقط تعجب لفطنة فيها . فهي تخوض عباب النهر بضع مرات متوالية، فتركب امواجه نزولاً، وتغالبها وهي تسبح صعوداً. وبما ان العودة عليها، والسباحة عكس مجرى النهر، فهي تدرك مقدار ما تستطيع منها، فلا تمعن في الركوب نزولاً، بل تقف عند حدٍ فلا تتجاوزه، وقلما يتغير. ومن هناك تعود سابحة الى حِماها تحت صفصافات المطحنة. انها لبطة فطنة حكيمة، وقلما تجد بين البط البشري من يدرك حكمتها ويعمل بها، فكم من الناس لا يحسبون للعودة حساباً في ركوبهم مطايا الاطماع واللذات.

العفو ايها القارىء. فقد لا يروقك مثل هذه الابحاث ولا يضيب الاطناب في وصف البطّ هوى في نفسك، فها نحن على ضفة النهر، الناعسة في تلك البقعة امواجُه، الرافلة في غلائل النسيم العاطر. جلسنا الى الموائد في ظلال الدلب، فجاء الخدم بـ«طاولات» اللعب، ثم بالاراكيل والقهوة، وبعد

ذلك بالعرق والمازا، ثم بالغداء ورأس محاسنه سمك النهر المشهور. فأكلنا السمكة تلو السمكة حتى رأسها.

والعفو ثانية ايها القارىء العزيز. فقد نسيت ما وعدتك به، وهو ان اعرف اليك الرفقاء. ما فات الوقت. وما تحركت القافلة. فاننا في انتظار من لا يسرع في عمل من اعماله، الا اذا كان الخير في ذلك العمل لغيره، لا لنفسه.

ها هو يطلع علينا كشمس تموز – شمس الشهر والآله القديم معاً – مبسوط الذراعين، مورّد الوجنتين، مسلّماً باللسان وبالقلب والعين. ها هو يدرج بين رفيقين، رجل وامرأة، من الشعوب القاطنة فيما وراء البحرين، البحر الابيض وبحر الظلمات.

هو شارل قرم الذي نهض من فراشه ذات يوم مثل اللورد بيرون، والشهرة امامه تحمل اليه القهوة والسيكارة على طبق من الفضة، وبينهما اكليل من الشوك؟ من الغار؟ هو اكليل ولا نكران، رفعه شارل بين يديه، ونظر بعطف اليه، نظرةً واحدةً لا غير. ثم وقف امام المرآة، بعد خروجه من الحمام، وضحك ضحكةً «رابليّة» [1]

فقالت الشهرة: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً.

وراحت تتأثر شارل قرم لتثأر منه. ففر شارل هارباً، وهام على وجهه في الاودية – والشعراء في كل واد يهيمون. وهاكه الآن في وادي اجدادنا الفينيقيين، وادي آدونيس وافروديت، يستعيذ بهما من الطاغوت.

وهاك احد غلمان الشهرة، حورية الطاغوت، جاء من اميريكة ليبحث عن حقيقة هذا الشاعر اللبناني الفينيقي الفرنسي، ويسأله، اذا ظفر به،

---

(١) نسبة الى فرانسوا رابله (١٤٨٣ – ١٥٥٣) الكاتب الفرنسي المشهور بتهكمه ومجونه

اقول اذا ظفر به لانه قد يكون من اساطير بلاد الاساطير. فاذا تيقن انه حقيقة شعرية بشرية تُلمَسُ وتُرى فعليه ان يسأله لماذا ضحك تلك الضحكة «الرابلية» صباح اليوم العظيم ساعة خرج من الحمام.

أَلِمثِل هذا تكون الاكاليل؟ او بمثل هذا تعامل الربة الحمراء حورية الطاغوت؟ انها وطاغوتها يرسلان اليك، حتى من اميركة، من يحسن الكلام، ومعه الكأس التي شربها قبلك المقربون، وودوا لو كانوا نسياً منسياً.

وخمول ذكرى في الانام.

وهذا ابو كلام جاء ينشره.

— «وانت ايضاً شاعر؟ واين تعلمت؟ وما اسم ديوانك الاول — وكم ديواناً نظمت؟ وما اسم امك؟ وهل انت متزوج؟ وهل زوجتك شاعرة مثلك — زوجتي كاتبة — وهل القراء في هذه البلاد يقبلون على الشعر؟ وما هي المآكل التي تفضلها على سواها — والمشروب — والالعاب والالوان — و.» .

جاء هذا الرجل من لدن الطاغوت، من البلاد التي هي دون الاطلس وراء الاوقيانوس. جاء يجمع شتات العلوم ليكتب مقالا او كتاباً، شأن اخوانه الاميركيين الذين يسيحون في الارض مستكشفين عجائبها وغرائبها، فيدخلون المدينة مع الشمس ويخرجون منها مع الشمس بعد ان يكونوا قابلوا كل من هو ذو شأن فيها، وتحدثوا اليه ثم يكتبون كتاباً عليها ولا كتاب عجائب المخلوقات والحيوانات.

وجاء الرجل الاديب تصحبه زوجته الاديبة. فتاة ذات عين جامدة، وفم رقيق كورق الورد جاء يحمل الى شارل قوم تلك الكأس... جاء يقتله. فاصطحبه شارل بالسيارة، واصطحب حرمه المصون، الى الوادي المشهور وادي آدونيس.

من ذا الذي يقول ان شارل قرم لا يحسن السياسة وانه من الطاهرين؟ حمل شارل ذلك الاديب الينا لينجو منه. فنجا هو، ولولا من كان معنا من ابطال الحديث وفي مقدمتهم سليل الحثيين رفيقنا العزيز ابراهيم حتي، لما نجونا نحن، لا والله.

فالسلام على ابراهيم من اقام في نويورك وعرف كيف تؤكل سمكة الثرثرة حتى رأسها. فلقد انبرى ابراهيم لذلك الاديب واجلسه على كرسي التحقيق بعد ان كان هو المحقق، وصوب عليه مدفعاً رشاشاً من السؤآلات. عليه وعلى زوجته الاديبة. جاوب ايها الرجل. جاوبي ايتها المرأة. إنَّ من يكلمك الآن يجزُّ رقاب النساء وهو يضحك الضحكة التي تضحك العرجاء والمسْحاء والعوراء. ومن رفقائنا الاديب العالي الجبين الناصع اليقين، ذو المال والبنين، توفيق حسن الشرتوني، فلو لم يكن توفيق اديباً مبتَّكا، او متأدبا مشمولا، لكان نائباً من نواب الامة او مستنطقا في الحكومة. فهو في سؤآلاته يبدأ دوماً بالالف، ولا ينتهي بالياء. لانه يعود من الياء لينتهي بالألف.

جاء توفيق ينجد ابراهيم على الاميركي. وكان عمه ترجمانه — عمه الاسكندر الضحاك، وهو يحسن الانكليزية كما يحسن تصريف الامور المالية. ويحسن كذلك المصارحة والمطارحة، في الاحاديث الحامضة والمالحة.

وكان بين الرفقاء سيدات وأوانس لبنانيات يزيّنَّ المجالس، بالعيون النواعس، والعيون النجل فكسفن الاميركية ذات العين الجامدة، وسألنها اذا كانت تحسن الفرنسية. فقالت: والاسف لا. وسكتت.

وسكت كذلك زوجها الصنديد، بعد ان وقف، والحق يقال، وقفة صامدة — تذكر ولا تعاد — امام المدافع الرشاشة التي اطلقها عليه الملازم ابراهيم، والمعاونان توفيق واسكندر.

الانتداب اللبناني على البحر

خرجنا من المقهى سالمين جميعاً. وركبنا السيارات التي طوت من طريق البحر بضعة عشر كيلومتراً حتى ضواحي جبيل فجنحت هناك الى طريق لولبية، حديثة العهد، حسنة التعبيد، فمررنا بالبلاط القرية الوحيدة بين الساحل وطرزاي. وفي البلاط كنيسة قديمة لفت اليها نظرنا شارل قرم.

وعندما شارل قرم يلفت نظرك الى أثر قديم في لبنان فقل انه فينيقي، اوان فيه شيئاً فينيقياً، حجراً من معبد، اوصخراً من مدفن وهذه الكنيسة بنيت على ما يظهر من خرائب قديمة. هي ولا ريب سابقة للعهد الروماني اليوناني. نعم، هي فينيقية.

وهذا الطريق يزداد عمراناً كلما ارتقينا فيه. هو احسن ما رأينا من الطرق التي لم تظفر بعد بنعيم الزفت. وهو من الساحل الى طرازي اثنان وعشرون كيلومتراً، يشرف على وادٍ الى اليمين، منبسط الارجاء كثير الاخضرار والحراثه. وفي منحدراته المقابلة لنا قرى عديدة منها القرية المدفونة فيها « العوده » [1] ، قرية الحصون: رأيتها تنعم بسهل لطيف الانحدار، لا كما بدت لنا يوم نزلنا اليها من بير الهيتي، كأنها في قعر وادٍ سحيق. وفي ذلك البرهان والدليل على ان حقيقة الاشياء لا تظهر بكاملها اذا نظر اليها من موقف واحد، او وجهة واحدة. فالحصون من بير الهيتي مدفونة في الوادي، والحصون من طريق طرزاي قائمة على صدر الوادي متبجبحةً به.

في طرزاي التي تعلو عن البحر تسعمائة وخمسين متراً، نبع غزير وخيمة ودكان، وشبه نزل اسرته البيضاء بادية للعيان يحمّصها نور الشمس. وهي

(١) راجع الرحلة الاولى

كلها اي الخيمة والنزل والدكان تشرف على الوادي الذي تركب طرزاي على منكبيه وتهز رجليها. وانك لترى بين الرجلين بيوتاً للفلاحين واراضي مزروعة. قيل لنا ان اكثرها للرهابين .

جلسنا في الخيمة نستريح ونسرح النظر في ذلك الوادي المنبسط تحتنا شرقاً بغرب، المدفونة فيه، هناك، تحت ذلك الجبل، « العودة » اي كنز الاجداد. نظرت اليه النظرة الاخيرة، نظرة الوداع

واجتمعنا في الخيمة بأحد ابناء الحكومة اللبنانية الدّباسية، احد ابنائها الابرار، الحاملين في صدورهم ذكرى اليمة، وعلى صدورهم في عروة الزر العليا شريطة جوقة الشرف.

تستمر الطريق الممتازة بتعبيدها من طرزاي الى قرطبة ولها فرع يصعد الى اهمج واللألوء. هو الطريق الذي سلكناه وهو كثير الاكواع، شديد الانحدار، خشن وعر، عكس ما تقدمه في التعبيد والاعتناء

وبعد نحو مائتي متر من التصعيد وصلنا الى اهمج قاعدة صرود بلاد جبيل من ايام فخر الدين الى ايام الامير بشير الى الغاء المديريات الى عهد المتصرفين، التي تعلو الفاً وثلاثمائة متر عن البحر. وهذه آثارها القديمة ونواويسها الفينيقية وهذه كنيستها، وهذه سندياناتها المرمة تظلل ساحتها وهناك كتابات لاتينية والطريق التي شقها احد قادة الرومان والتي تربط بيبلوس (جبيل) بمدينة الشمس (بعلبك). وهناك بيت صديقنا وصديق الخيل العربية العالم بخصائلها واصيلاتها، الناشر علمه في كتاب بين الناس، خدمة للؤلؤة البادية، الفرس التي انجبت ذلك النسل الشريف المنتشرة سليلته في العالم شرقاً وغرباً.

وانك حيث تكون في العالم، في توكيو او في لندن، في سان فرنسيسكو او في لننغراد حين تقول الخيل الاصيلة تقول العرب. ونحن في لبنان لا نعرف من يعرف عن الخيل العربية اكثر من نجيب بك الخوري

118

الاهمجي، القاطن هذه البلدة، القانع بقسمته في الحياة بظلال سندياناتها وذكرى بطولة ابنائها.

وهاكم عمال «النافعة» يعملون في تصليح الطريق. وهاكم في الجبال مظهر الهول والجلال نشاهده بُعَيد الخروج من اهمج. فقد قل الاخضرار، وكثرت الصخور، ودكت قمم الجبال بعضها في بعض. اما الوادي الى عيننا فهو آخذ بالتقلص، يضيق ثم يضيق فيغدو فوق اهمج ظليلاً قاتماً سحيقاً.

لقد ذكرتني هذه المشاهد الرائعة بجبال اليمن وخصوصاً عندما بدا على قمة من القمم بيت فلاح – كوخ من حجارة لونها كلون الصخر الذي قدت منه. وكذلك في اليمن فانهم يبنون بروجهم وحصونهم على قمم الجبال من حجارتها، بالوانها الواحدة، فيختلط بعضها ببعض، ولا تظهر للعدو الصائل. فالانسان هنا بلبنان، وهناك باليمن، يتخذ من لون محيطه لوناً يختفي هو فيه عن الابصار، شأن الطيور دفاعاً عن النفس

وهؤلاء العمال والمكارون ما برحوا يلبسون العباءة القصيرة الاكمام المقصبة الظهر. هي العباءة الاميرية في القرن الماضي، هي العباءة اليانية القديمة التي لا تزال تلبس هناك. لك ان تقول ان الجبال جبال حيث كانت، وان الجبليين اخوان في كل مكان، ان لم يكن الامر كذلك، فهو شبه ذلك.

واني لذلك اسأل سؤآلا. ان هؤلاء اللبنانيين يذكرونني في غير واحدة من احوالهم، وفي الكثير من سحناتهم واشكالهم، باهل اليمن. فالجمجمة الطويلة. وعظم الخد العالي، والانف الطويل والوجه المخروط، والفم المستفيض كلها من عرب حِميَر. فما الصلة يا ترى بين اللبنانيين وبين اولئك العرب ؟ هل اللبناني جد حمير، ام هل حمير جد اللبناني ؟

اني اجنح الى الاعتقاد بان الهجرة القديمة السابقة للتاريخ، كانت من

الشمال الى الجنوب، وخصوصاً بعد العهد الجليدي الأخير الذي عم البلاد الشمالية كلها حتى البحر المتوسط، اي منذ خمسين الف سنة. فنزح من نجا من السكان الى البلاد الجنوبية، فهل من حرج علي في اعتقادي ان الهجرة القديمة السابقة لتاريخنا المعروف حتى الآن، كانت من الشمال الى الجنوب، ومن لبنان في هذه البقعة المباركة، الى خولان وهمدان في اليمن!

وما يدريك ان الاذواء هم من سلالة شعب قطن قديماً هذه الجبال التي دعيت بعدئذ بلبنان. فهرب من بحر الجليد، هرب جنوباً، وما وقف، وما اطمأن، الا عندما وصل الى جبال مثل جباله، وما يدريك ان الزيود اليوم، وهم يزينون رؤوسهم باغصان من الحبق (الريحان) والموارنة الذين يزرعون الحبق (الريحان) في مصاطب بيوتهم الجبلية هم ابناء عم، هم جميعاً من سلالة جبلية واحدة.

وما يدريك ان زيد بن زين العابدين هو منحدر من آدونس زين الآلهة. أفلا يحق للبنانيين بعد هذا ان يدّعوا ملكية اليمن، وان يبسطوا حمايتهم على تلك البلاد السعيدة. فما قول غبطة البطريرك عريضة بانتداب لبناني في صنعا؟!

دير البطرك

وصلنا الى رأس الوادي الذي كان يزداد ضيقاً، ويقل عمقاً كلما امعنا في التصعيد. وفي هذه المظاهر الجيولوجية، في الجبال العالية خصوصاً لانها مجردة مما يخفيها او يخفي بعض نواحي غورها، ما يستوقف الانظار ويسترعي الابصار.

فقد وصلنا، بعد الاشراف على الوادي، الى مدخله، الى رأسه، الى مضيقه، الى اضعف مواطن ضعفه، حيث اخترقته قديماً مياه الاعاصير ورياحها. وعندما نقول قديماً نعود في علم طبقات الارض الى ملايين من السنين تتراوح بين العشرين والاربعين مليون سنة.

في هذا الممر، هذا المضيق، انسابت المياه، ارسلت السهول انهارها الطامية فشرعت تحفر في الوادي غرباً، فتزداد قوة كلما ازدادت انحدارا — ويزداد الوادي عمقاً واتساعاً. ثم جاء الانسان الفلاح، بعد الانسان الصياد، فبنى الدكات وحبس وراءها التراب، وزرع في التراب الحنطة والشعير. ونحن ابناء ذلك الانسان الفلاح نعبّد اليوم الطرق، ونسير في السيارات، لندرك الاعالي التي لانت جوانبها لسواعده، ولبت احشاءها الصوت منه والمحراث.

دخلنا المضيق، والطريق فيه يفعل بالاضلع والاحشاء فعله العجيب فشعرنا اننا مسافرون في آلة بخارية لتكسير الحجارة. ونحن الحجارة المكسرة. ما رثيت لاحد في القافلة رثائي لصديقي قرم لاني ادركت ان الطريق لا تضر به بقدر ما تضر بكرم اخلاقه ورقة شعوره تجاه رفيقيه ضيفيه الاميركيين. وقد ترجلوا جميعاً ومشوا ليخففوا عليهم بعض مشقات الطريق

قلت ان اجمل ما في اعالي الجبال لمن له المام بعلم الجيولوجيا مظاهر التكوين والتفكك، واجمل ما في هذه المظاهر المفاجئات الجيولوجية ما طال بنا المضيق فانتهينا منه الى سهول فسيحة غناء وربى مليحة خضراء، ومياه جارية لألأة. هوذا منبع الهركات. هي ذي الينابيع وهي ذي ثمار جهود الانسان.

انها لجميلة هذه الحقول الخضراء المخططة الملونة المدبجة بالازهار والاصفرار. صفوف البطاطا كانها الكتائب المنظمة، وصفوف البندوره كانها سلاسل من الزمرد طويلة. وحقول الحنطة والشعير، وسهول تهتز فيها اعلام الذرة، ويسمع فيها عجيج المواشي، ونهيق الأتن وصهيل الجياد. اضف اليها الاصوات البشرية صوت الانسان الخشن الهادي، صوت الزراع والفلاح.

وما تلك الصخرة الشامخة هناك، ووراء ذلك البيت على تلك الربوة؟ كانها مسلة فرعون، وكأن البيت ضريح تحتها. وهناك مصطبة وعلى المصطبة امرؤ وامرأة — بل على المصطبة اذ تدنو منها يظهر ثلاثة او اربعة رجال، وبينهم الامرأة الواحدة، وقفوا ينظرون الينا، ويتوقعون وقوفنا عند الدرج المؤدي اليهم

ما المكان بضريح، بل هو دكان في تلك الصخرة، والى جنبه جوزة قديمة العهد، عميمة الظل، كثيرة الثمار. وقفت السيارة. فخرجنا منها وصعدنا ذلك المكان لا لغرض سوى الفضول — وهو غرض محمود لطلاب العلم. فقد رغبنا بعلم يمكننا من افادة القارئ. بعد ان اغريناه بقولنا انه بيت في صخرة، او انه نشأ من الصخرة، او ان الصخرة نشأت فيه، فعلينا ان نصدق القارئ الخبر.

واول ما نصححه من الظنون هو ان البناء ليس بضريح وليس بدكان. هو بيت صغير لاحد المزارعين من اهمج، صاحب هذه الحقول المزروعة التي

مررنا بها. وانه وامرأته يسارعان الى استقبالنا والترحيب بنا. جاءتنا السيدة بالكراسي، وراح الرجل لغرضه

قلنا : الابريق من فضلكم.

وكان الرجل قد عاد يحمل طبقاً عليه زجاجات وكؤوس.

— « تفضلوا. اشربوا البيره ثم نجيئكم بالماء»

وأصروا بالبقاء للقهوة. « وكيف لا تشربون القهوة عندنا ؟ »

ذكرتني هذه الضيافة باليمن. بذلك السلطان الذي ارسل الخدم المسلحين ليدركونا بالفطور

والضيافة لا تسأل السؤآلات قبل ان يتم عملها فبين نحن نشرب القهوة سأل أحد الرجال الاشداء — وما برح الشمال ينبت من هؤلاء الرجال — سأل قائلاً: من الافاضل ؟ فدل احدنا الي وذكورني الآخر باسمي.

فهتف الرجل هتاف الدهشة والتعجب. هو ممن يطالعون الجرائد، ويقرأون الكتب، ويفتخرون — خشيت ان يكون ممن لا يفتخرون قالت السيدة تعرف الرجل الينا : حضرته الشيخ بطرس سابا الخوري

وقال الشيخ بطرس يعرف الينا صاحب البيت: وحضرته السيد سابا بطرس ابريانوس وحضرتها حرمته.

أدب التعرف بالضبط الانكليزي. كأن اهمج بلدة في جبال اسكتلنده.

وقد اعجبني من الشيخ قوله :الحرمة. لانها في عرف اهل الذوق الطف من زوجة وعقيلة وقرينة — ومدام : ليس في « الحرمة » ما تشتم منه القيود — عقيلة الرجل — مصفدته قرينته

في « الحرمة » احترام ومحرم وفي « الحرمة » عروبة صافية.

ولكن اسم زوجها ؟ ابريانوس ؟ ! ماذا تفعل يا رجل به ؟ ومن اين جاء ابريانوس. ان ذا الاسم ليقتل كل أمل بالوحدة اللبنانية اليانية وكل

امل بالانتداب اللبناني على اليمن. على ان هذا الرجل ذا الاسماء الثلاثة الفظيعة — سابا بطرس ابريانوس — هو من خير الرجال. يقري الضيف، ويضرب بالسيف، ويبني بيته، مثل صنوه في خولان، ومثل اخوانه النسور، بين الصخور.

سألنا حضرة الحرمة عن الجوزة وما قدر ما تحمل من الجوز فقالت: من الخمسة آلاف الى الستة.

قال الشيخ بطرس: ولكن شجرتك، يا استاذ، تحملُ اكثر من ذلك وثمارها الذ وانفع.

غصصت بالقهوة — وناديت شارل قوم لاعرف الشيخ اليه،

مهما يكن من مجاملة هؤلاء اللبنانيين، فان ترحيبهم بنا وتكريمهم لنا قبل ان يعرفونا لأثر طيب من الآثار اللبنانية القديمة، التي تتجلى بالضيافة والكرم واللطف والمعروف. هي ذي الفطرة الطيبة في اللبناني — هي ذي المزايا التي شرفت اجداده قديماً وما برحت تشرفه في هذه الاماكن القصية. ان البعد عن التمدن لخير ونعمة.

قبل ان ودعنا الرجل الكريم الرفيع الشأن صاحب الاسم الفظيع وودعنا حرمته المحترمة، والشيخ بطرس الفاضل درنا حوالي البيت نستكشف سره وسر الصخرة. فما هناك سر يذكر. هناك صخرة قائمة منذ القدم في شكل مسله — صخرة طويلة رفيعة، والكوخ مبني الى جنبها او بالحري أمامها فيظهر من بعيد كثقب في اسفلها.

ثم جاءنا احد الشبان بالابريق. كنا نسينا الابريق فشربنا من ماء النبع البارد كالثلج. وزادنا الشيخ بطرس علماً بالمكان. فالبيت والصخرة والجورة والنبع — كلها بمجموعها تدعى عين البطرك.

قلنا متنطسين: عين البطريرك

قال الشيخ بطرس: وان نقص منها حرفان فلا يضر ذلك بالعين، ولا

بالبطريرك.

توفيق الشرتوني: كأن احد البطاركة مرّ يوماً من هنا وشرب، من هذه العين فاطلق الاسم عليها.

الشيخ بطرس اظن ذلك.

السيد ابريانوس: بل هي الحقيقة. وصار يجب ان نسميها الآن عين الريحاني.

فماذا اقول انا بسابا بطرس ابريانوس ؟ ان الحياة لا تصفو لاحد من الناس. وان صفت في نبعها، فقد تتعكر في جرن العبادة.

اعلى مكان في طريق الجبل. العامر بعدن الاصطياف هو ضهر البيدر (١٥٥٠ متراً) ولكنه، فوق زفت الطريق وتحته، منحدر انحداراً سريعاً، فيذوب ثلجه في الشتاء، ولا تحمل تربته في الصيف ما يستحق الذكر من الكلاء. حتى اذا ما ذكرنا المعزى وكثيراً ما ترى المعزى هناك تغمز وتهز بأذنابها — لا كلاء ولا ماء.

اما القاع المنبسط تحت ضهر البيدر فهو عند شتورة لا يعلو عن البحر اكثر من تسعمائة متر، وهو لمركزه، وتوسط علوه، وغزارة مياهه، خصب التربة جزيل الخيرات. هو للبنان مخزن الحنطة والحبوب على انواعها.

ولكن اللألوء (١٨٥٠ متراً) اعلى من ذلك السهل الذي ينساب فيه نهر الليطاني، واعلى من ضهر البيدر. وهو مع ذلك غني التربة غزير المياه. ذلك لانه محاط بالجبال التي يذوب ثلجها حباً اليه، وتحمل سيولها ما يجدد على الدوام خيره المستثمر — او المدفون.

وفي تلك الجبال، اولياء نعمة اللألوء، قمم تتجاوز في علوها عن البحر ثلاثة الاف متر

عجيبة هي هذه الطبقات الخصيبة في اعالي الجبال بين طبقات تحتها وفوقها صخرية مستوحشة. كأن الله كوّر وحفر الجبل، الذي هو اليوم جبال، ورمى في الحفرة حفنة من التراب وقال للانسان: هوذا ميراثك. فاحرث وازرع تكن من الظافرين.

على ان ارض اللألوء تفتقر الى التشجير. فلو زرع الحور والصفصاف الشائك على اطراف الحقول في الاقل، تحديداً للاملاك، لصانتها من الرياح،

122

ودبجتها بالظلال، وجعلت الاقامة فيها مستحبة لغير المزارعين. وانه لمن الممكن ان يزرع التفاح الاميريكي الاحمر الفاخر في هذه الاماكن العالية، الباردة الجو والتربة والمياه. وانه لمن الفضول والتطفل ان ادلي برأي زراعي، ونحن قاصدون الى بيت من هو شيخ الزراعة واستاذها ومهندسها في هذه الجبال.

إنُمسِكْ اذن عن الزراعة، ونستمر في السير. فبعد عين البطرك نمر بعين البياضة، ونعلم ان في هذه الصرود عيوناً كبيرة وانها تشترك بالاسم الواحد اللاّلوء الذي يفتح الآن ذراعيه مرحباً بنا.

فقد تحسَّن الطريق، واتسع الافق، وامسى الجو مربعاً لاشعة شمس الاصيل ونفحات نسيم الغسق، وفاحت الارض بالروائح الطيبة التي تحير حتى العطار، حتى الكيماوي، فلا يدرك بالتحقيق طبيعتها المركبة الغامضة.

واني اسارع الى اطمئنانك، اذا كنت تخشى البرد، ان شمس الظهيرة اشد حراً في اللاّلوء منها في الساحل، وهي لا تحمل معها، عندما تغيب كل حرارتها، بل تودع الليل شيئاً منها فتدفيء جوانبه، ولا يضطر الانسان الى اكثر من غطاء واحد في الصيف.

قلت في ما اسلفت كلمة شعرية في حفر رأس الجبل ونثر حفنة من التراب في الحفرة. فيجب علي ان اخبرك ان العلم والشعر لا يختلفان في هذه المسألة كثيراً، الا في كيفية العمل، وفي الوقت الذي يستوجبه العمل. فمنذ عشرة ملايين او عشرين مليون سنة في تاريخ الارض الجيولوجي — العلماء متفقون في الرقم الاول مختلفون في الثاني — كانت هذه الجورة او الحفرة الواسعة العميقة بحيرة يسبح فيها التمساح والدلفين، ويرتادها الوعل واليَحْمُور. ثم علت المياه في اعصار طالت مدتها، فاشتد في طميها الضغط على جوانب البحيرة، فهدَّ اضعف موطن فيها، اخترق الطبقات الكلسية الرملية في الجبل الى الغرب، فتكون المضيق الذي مررنا به، واخذت المياه

بعد ذلك تحفر في الوادي، الذي اشرفنا في الطريق عليه، وتتوسع وتتعمق وتتفنن في عملها، فكانت الشعاب والمنعطفات، وكانت الاغوار والانجاد، وكانت البطاح والربى، وكانت السيول والسهول والمنحدرات والغدران.

وهذه البحيرة الجافة اليوم، المتجمع فيها تراب الجبال ورواسب السيول، المتصدع جانبها الغربي، المندرسة جوانبها الغربية الشرقية، هذه البحيرة الجافة تدعى اليوم اللألوء

ومن اين جاء هذا الاسم؟ من ذا الذي اخترعه؟ وما السبب في اصله؟ وما المناسبة في وضعه؟ وفي اي زمن عُرف المكان به؟ وهل هو اسم مكان او حيوان او انسان؟ لقد سرت اليَّ عدوى التسآل من هذا الاميركي الاديب رسول الشهرة او جزّارها الى شارل قرم.

انه لامر ذو كرب بيد ان الجهل اشد كربا منه. يقف الجهل مستعجماً — اشرقت عليَّ هذه اللفظة صباح اليوم فاستغوتني فاستأذنك فيها. اني اقف مستعجماً، اي صامتاً عاجزاً، امامك، ومكروباً كذلك، اسأل السؤآلات باسم هذا المكان ومن اجله، ولا استطيع ان اجاوب عليها.

فهل هو اللألوء بالهمزة والسكون ام اللقلوق بالقاف المعجمة؟ سمعت الناس هناك في اهمج وطرزيا يقولون اللألوء، ورآني احدهم اكتبها بالهمزة فقال انها خطأ وانها بالقاف اصح، وما كان لفظه للقاف يختلف كثيراً عن لفظه للهمزة. وسمعت من يلفظها بالقاف لفظاً بليغاً، ويريد ان تكتب بالهمزة. ان اهل القرى في الصرود حائرون وجاهلون مثلي.

لاحرج اذن في التقدير والتخمين. فهل سُميت الينابيع هذه باللقلوق، من لقلق اي صوّت. ليس لينبوع من الينابيع العديدة اليوم صوت يذكر.

ام هل أوحى بالاسم طير اللقلاق؟ هو اليوم غير موجود، ولا أثر له في تلك الاعالي الجبلية.

مما لا ريب فيه ان العربان كانوا يردون هذه الينابيع فيستقون



ويغسلون اغنامهم — ويلقلقون (اللفظة اللبنانية عامة) اي يعيشون بالمياه، ويوسخون ما حول الينابيع فتمسي مستنقعات وموحلات تصح فيها اللفظة اللبنانية العامة — لقلوق. ان ذلك ممكن

ولكن المهذبين من اهل القرى المجاورة وممن يؤمون المكان في الصيف، لا يروقهم هذا التأويل، ويؤثرون تخفيف القاف — ليتمكن بعضهم من لفظها ؟ !

اعجبني قول احدهم، وهو من المتحزبين لِلّألوء ان اللفظة مشتقة من اللؤلؤ، تشبيها بالحبب الذي يطفو على وجه المياه عند رأس النبع. ان هذا التأويل مستساغ، وانه من البيان بمكان. بيد ان عندي ما هو احسن منه، واقرب الى المعقول. ان اللّألوء — وقد قررناه بالهمزة الساكنة — مشتق من لَألأَ اي لمع وبرق. والمياه في انصبابها او في تفجرها تلمع لماناً متسلسلاً اي متلألئاً.

وقد قررنا امراً آخر وهو ان الذي اسماه بهذا الاسم هو شاعر من شعراء عرب النَعَيم — رائد القوم، اول من رأى المياه في هذه الاعالي المستوحشة فخل اليه النعيم، وكل شيء يلمع، ويتلألأ في النعيم، فنطق بالشعر وقال اللّألوء :

اننا الآن في قاب الحي، بين خيام العرب، بل بين بيوت الشعر، وقد تخللها بضعة بيوت من الحجر. وان في الساحة طائفةً من اشجار الحور والجوز والصفصاف. وأُتناً في ظلالها واغناماً يرعاها الذباب، وولداناً في قصان زرقاء يلعبون، واصواتاً تُسمع فتستهجن، اصواتاً عالية رفيعة، ولهجات مستنكرة لا بدوية هي ولا عاقورية او اهمجية.

فهل هي في التطور مثل اهل الحي ؟ وهل تؤثر بيوت الحجر بصوت المرء ولهجته ؟ هل الصوت العريض يرق، والعالي يخفت، والاجش ينعم، بين الجدران وتحت السقوف المبطنة بالكلس والطين ؟ ام هل يخجل

البدوي من صوته العريض الاجش كلما وقع نظره على الحذاء الاصفر او الاسود اللماع في رجله ؟ فيحاول ان يلطِّف الصوت، فتفعل المحاولات فعلها الخبيث، فتفسده وهي آخذة به الى فردوس التمدن ؟ ويلي من هذا الاميركي الاديب البحاثة الذي سرت الي مكروباته الشبيهة في شكلها البكتيريولوجي بعلامة الاستفهام ؟ . . .

عرب اللألوه من عرب النُعَيم، وهم فخذان بنو غشوم والدُوَيِر اما تاريخهم في هذه البقعة اللبنانية فهو مثل اسم المكان مجهول . من المحقق انهم كانوا هنا في عهد الامير بشير الكبير . ومن المرجَّح انهم أموا هذه الجبال، او نقلوا اليها، او أذنوا في استيطانها . في عهد الامير فخر الدين المعني .

وهم اليوم قليلون، وقلما ينقص عددهم وقلما يزيد . ان الكبار المعمرين في القرى المجاورة يذكرونهم ويقولون انهم كانوا نحو ثمانين بيتاً، اي نحو خمسمائة نفس، وانهم لا يزالون كذلك .

اما تطورهم فاحسن ما في مظاهره ان المتحضرين يرسلون اولادهم الى المدارس وادهش ما في مظاهره يختص بالمرأة — أم المدهشات — وستراه في حينه ومكانه .

المير بشير

حدثنا الشيخ اسكندر الخوري الاهمجي، الذي كان مديراً في هذه الناحية في العهد العثماني، قال :

« كانت هذه الاراضي في ايام المير بشير ملك الحكومة، او ملكاً اقطاعياً. فباعها المير من اهالي اهمج وتنورين والعاقورة، وهبهم اياها، لقاء خمسة وثلاثين غرشاً تدفعه كل ضيعة من هذه الضيع الثلاث سنوياً. كل هذه الاراضي من نبع الحديد الى حدود الحدث بماية غرش وخمسة غروش. البيع شرعي والصك مسجل ونسخة الصك عندنا »

والشيخ اسكندر يثبت اللألوء بالهمز . « اذا كان لا يثبتها التاريخ والعلم فيجب ان يثبتها الذوق . »

قال هذا وسارع الى ربة البيت يسلم عليها ،

كنا في الساحة امام الدار نحو خمسين ضيفاً فضيفا ، يدور كل على محور نفسه، ويأمل ان يتخطره، او ان يتسع محور غيره للامتزاج، فتتذوق الانفس ما يجود به التعاون والحديث .

وكان الجو صافياً شفافاً، والهواء جافاً ذا نفحة باردة وكان الحديث في اول الامر شبيهاً بالجو والهواء لِما اصق بنا من الروح المكوية بالنشاء روح المدينة والمدنية، وحين يبدأ النشاء يذوب تبين الجوانب القاسية الحادة من النفس، فيرفع كل امرىء قناعه ولا تصدق البسمات واللهجات، الا بعد ساعة الغروب.

— « وهل في الجبل غير صوفر وعاليه ان للراحة او للصحة او لشم الهواء ؟ تكسرت اضلعي في هذه الطريق. وعندما خرجنا من السيارة

غشي انكسر كعب بوطي — جامه جامه ده لا في —

صاحبة هذا الكلام آنسة لبنانية المولد افرنسية اللسان . فكلمها توفيق الشرتوني بالعربية، وابراهيم حتي بالانكليزية وكسر عليها اسكندر حداد قضيباً من افرنسيته .

— « الاخطار، يا حضرة الآنسة، لذة الاسفار . »

— « كِسكِل دي ؟ ما فهمت . »

— « ولذة الحياة بالتنقل . »

— « الذين يمتصون عصير البرتقال بقصبة افرنجية في صوفر وعاليه . يُظلَمون اذا دعوا الى مثل هذا المكان »

— « ولكن الحق على من يقبل الدعوة . »

رفعت الآنسة قبعتها الحمراء عن رأسها بحركة سريعة غضبى، ومرت باليد الأُخرى على شعرها الاسود تردُّه بعنف الى الوراء، وهي تقول : «صحيح صحيح . ولكني سمعت من اخي وهي المرة الاولى والاخيرة . »

اخوها ضاحكاً : « كل مرة تقول هذا القول . ولكنها تعود الى البيت راضية مسرورة . »

بين نحن في هذه الورطة نحاول ان نجبر ما تكسر في تلك الآنسة المنكوبة من اضلعها وقلبها وكعب حذائها، اذا بشارل قرم مسرعاً الينا، وفي عينه شكاية وفي فمه اعتذار .

— « يجب ان اعود الآن الى المدينة »

دهشنا جميعاً — صُعقنا .

— « الاميركي ومدامته في ضيافتي . والسيدة تريد ان ترجع حالاً، لانها تخاف الطريق، وتخاف العلو، وتخاف برد الليل، ولا تريد ان ترافق القمر، فيتحتم عليَّ الرجوع معها . »

— « ولكن السيدة لا تريد ان ترافق القمر . انت قلت . »

192

— الله يخليك واجب علي ان ارجع معها.

— « لا والله — .ما هو بواجب عليك. »

وكان الغضب قد حل محل الدهشة، فكملت قائلاً: « اني اعلم منك بهؤلاء الاميركيين والاميركيات واعرف اللغة التي يفهمونها ويقدرونها حق التقدير. لقد جئت انت معنا وستعود معنا. حدث هذه الآنسة المجنونة بصوفر وعاليه وقل لها ان اللآلوء لا يستحق غضبها، وانا اخلصك من الاميركي والاميركية دون ان اضر بسمعتك الرفيعة الغالية. »

وسارعت الى الاستاذ الاميركي:

« اننا هنا لعقد مؤتمر زراعي، يا سيدي. ومن الضرورة ان يشترك فيه الشاعر الذي جئت من اميركة باسم الشهرة تحمل اليه مشعلاً من النور، وحملاً من الزهور. فهو يشكرك، ونحن نشكرك، ونأسف اننا لا نستطيع ان نعود جميعاً معك الى المدينة. فاذا كانت زوجتك تمشي الطريق، والاماكن العالية والمظلمة، ولا تريد ان تبقى لساعة القمر، فالاحسن ان تعجل بالرجوع. وهذا السائق (كنت قد ناديت سائق سيارة قوم) هو امهر سائق في الجمهورية اللبنانية. اعصابه هادئة، وفكره مثل يديه يظل على الدولاب، وعيناه تخترقان الظلمات، وهو مع ذلك لا يتجاوز في المنعطفات والمنحدرات عشرة الاميال في سيره. هو تحت امرك. اوصل الاستاذ ومدامته الى نزلها ببيروت واذهب انت بعد ذلك الى بيتك. وسأعتذر عنكما لرب البيت، وابلّغ الرفقاء سلامكما. »

وكان شارل قوم قد نسي الاميركية على ما يظهر في دفاعه عن أخته اللبنانية، فسمعته وانا عائد يوبخ الجماعة.

— « عيب عليكم. اتناقشون هذه الفتاة ولو كانت على غير حق؟ اتناقشونها بدل ان ترقوا لها الكلام وتسلوها وتقولوا لها الحق معك، الحق معك. وتثنوا على ادبها وجمالها، ووطنيتها. فهل فضلت على هذا المكان

بلداً في الصين ؟. لا ما خرجت في تفضيلها عن لبنان. اما اذا كنتم ترغبون المناقشة فهذه السيدة... تناقشكم. وهي لا تكلمكم بغير العربية — مثلي الآن.»

وكانت السيدة... قد انضمت الى الحلقة فانبرت للدفاع عن الدعشوقة الدعجاء العين.

— «الحق معها. وماذا في هذه الارض القفراء لمثلها. الصخور للبنات والشباب، بدل الموسيقى والرقص وشم النسيم! اين الحكمة واين العدل في معاملتهم معاملة الكبار الذين تعبوا من الدنيا؟ انا نفسي اكره الصخور ان في الجبال او في البيوت. الحق مع البنت ليس في لبنان مثل صوفر وعاليه، وحوالي صوفر وعاليه اماكن كثيرة للنزهة.»

ورأيت ابراهيم حتي الذي كان واقفاً الى جنب شارل قرم يشحذ سكينه فقال:

— «يا ست. ما زلت متيقنة ان ليس في لبنان للراحة وشم النسيم غير صوفر وعاليه فلماذا خاطرت براحتك العزيزة في مجيئك الى اللالوء؟ يا ست...

اشفقت على السيدة من سكين ابرهيم. و كان لحسن الحظ قد عاد الينا الشيخ اسكندر الخوري، فاغتنمت الفرصة لانقذ السيدة والآنسة معاً وسألته سؤالا عن الامير بشير.

الشيخ اسكندر: «كان المير بشير يرسل خيله لتربّع في اللالوء ثم يجي هو ليقضي شهرين من الصيف على مياهه. كان يحب اللالوء. يا استاذ. وحيثما كان ينصب خيامه، كان ينصب كذلك المشنقة. ومكان المشنقة لا يزال معروفاً. عدل المير بشير.»

ابراهيم حتي: «وكان عدله يشمل النساء، ولا ريب. لولا ذلك لما كان ينصب المشنقة.»

شارل قرم: المرأة يا اخي ابراهيم هي الطاغية الكبرى

ابراهيم: احسنت احسنت.

شارل: ولكن الرجل هو المجرم الاكبر. كل الشرائع الظالمة التي سببت الجرائم والحروب في العالم سنها الرجل.

الشيخ اسكندر: «هذا صحيح. والمرأة مسكينة. كان المير بشير يقول ...»

ما سمعنا ما كان يقوله الامير بشير لان اسكندر الحداد ارتطم في تلك الفينة بنا وهو يقول: السلام عليكم. جئت ادعوكم الى داخل البيت باسم «ادجوني ووكر.»

ما تمتاز به المأدبة اللبنانية

سأل احد الواقفين حول مائدة الشراب : «ومن هو أدجوني ووكر ؟»

فشرع اسكندر الحداد يقص قصة رجل كان دوماً يشكو الم المعدة، فاشار عليه احد الاطباء بالمشي، وآخر بالحمية، وقال له الثالث دونك والوسكي. وبما ان الرجل كان اكولا وكان يكره المشي — وقف اسكندر بغتة وهو ينظر الى الباب ثم قال مختصراً : « كان يدعى ذلك الرجل أدجوني ووكر» وراح يسلم على المطران بولس عقل .

رجل المال ورجل اللاهوت كلاهما يحتاج الى الآخر. فلا غنى لصاحب المال عن اللاهوت لتسديد حسابه في الآخرة، ولا غنى لصاحب اللاهوت عن المال يعمر به الحياة الدنيا

على ان المطران بولس عقل كما يقال، يختلف في هذا الامر عن سواه من اصحاب الارجوان، وقد يكون المبنّك اسكندر عالماً بذلك فلا يخشاه، ولا يرى بأساً بلاهوته.

والمطران بولس يمتاز ايضاً بمرونة طبعه الاجتماعي فلا يجم في مجلس انيس، ولا يتجهم الزجاجة والكاس. وان له فوق ذلك ذوقاً رفيعاً في الموسيقى والغناء.

فلا عجب اذا كان رب البيت واللألوء اسعد يونس صديقاً حميماً للمطران بولس. فالمارونية وحدها لا تجمع بين رجلين اذا كان لا يجمع بينهما الذوق وكرم الاخلاق — والغنى . اما مضيفنا اسعد يونس فهو شيخ المهندسين في لبنان والثقة في علم الزراعة. في هذا الشرق العربي، وهو فوق ذلك صديق الادباء والفنانين، هو من اتباع ابراهيم الموصلي ومن المتشيعين للقصب

والناي، ومن القليلين في لبنان الذين يحسنون الاغاني البدوية.

وقد حمل اسعد الناي في الحرب العظمى — الناي لا البندقية — يوم كان طريداً شريداً في فلسطين. حمل الناي واصطنع لبس الدراويش، وراح سائحاً مغنياً اغاني البدو من مكان الى آخر، فاجتاز الحدود، وعاد الى ارض الجدود، بفضل الدروشة والانشاد.

وهو اليوم يستطيع ان ينقل قسماً من المدنية بكامل حسناته — وفيه الادب والشعر والفن والعلم والفضل والجاه والجمال الفتان — يستطيع ان ينقل هذه المجموعة الممتازة من لوح المدنية في المدينة الى هذا المكان الوعر الطريق، العالي القصي، المنبسط بين الجبال في صرودها، المشرف على الجبال في عروضها، المنعل فرس الشمس في النهار، الحامل خرج القمر في الليل — الى هذا المكان الذي يدعى اللّألوء.

يجمعهم ويطعمهم. والطعام اقل ما يكون من كرم بيت لبناني أصيل.

لقد جلست الى موائد كبار القوم في البلاد الاوروبية والاميركية وعرفت من المآكل افخرها واندرها واطيبها، وقد آكلت كذلك الامراء والملوك في هذا الشرق العربي، وما شعرت بما اشعر به وانا على مائدة لبنانية.

وما السبب في ذلك؟ لا تمتاز المائدة اللبنانية في الترتيب والاناقة، ولا في المآكل الفاخرة النادرة، ولا في مهارة الطباخين وكياسة الخدم وحذقهم ان فيها، ولا نكران، من نفضله نحن اللبنانيين على سواه من المآكل ولكن ذلك لا يحملني على التفضيل المطلق فارفع مائدة ابن جبلي على موائد كبار القوم في الغرب وموائد الامراء والملوك في هذه البلاد العربية.

فما الذي يحملني على التفضيل اذن؟ ان كل شيء في الموائد الرسمية رسمي جامد بعيد عما يهز القلب منك. ان في الموائد الرسمية ما تعجب به وتلتذ به وتظل بعيداً عما كان من اسبابه، ومن العوامل في تحضيره.

وراء المآدب الرسمية يد عاملة وعلم وفن واتقان

ووراء المآدب اللبنانية – ولا يمكننا ان نقول انها رسمية او غير رسمية، ولا يمكننا ان نصفها بغير قولنا انها لبنانية – وراء هذه المآدب علم واتقان وقلوب!

ومن يحسن طبخ المآكل الاهلية مثل امهاتنا ومثل شقيقاتنا ومثل زوجاتنا؟ واية مأدبة لبنانية، وان تعدد الطباخون فيها والخدم، لا تشترك ربة البيت في تحضيرها؟ وكثيراً ما تكون هي العاملة الاولى تعاونها نسوة القرية، وتجيء البنات والشبان للخدمة حباً وكرامة.

اجل، ان في كل لون من الوان المأدبة اللبنانية شيئاً من قلب ربة البيت، ومن قلوب المعاونات والمعاونين لها.

ومما امتازت به مأدبة اللألوء اليونسية خطبة لشارل قرم باللغة العربية. شارل قرم اللبناني الذي ينظم الشعر بلغة راسين وموليار فتجلس له باريس، وتعجب به، وتكرمه وتكبره، لا يحسن لغة اجداده الاقربين – العرب – ولا يعرف ان يقول: احبك بلغة اجداده الابعدين – الفينيقيين – هذا فيما تقدم من زمانه – ولكنه في زماننا – بعد ان حظينا بمعرفته ونعمنا بحبه والفته، وامتنعنا عن محادثته بغير هذه اللغة الشريفة لغة الضاد صار يقول: انها دسيسة منكم ونعم الدسيسة. ما قالها بهذه العبارة الفصيحة، ولكنه قالها وافهمنا اياها. وقد قال كذلك: «ستعلموني لغة ابي وامي وساكون ممنوناً لكم.»

وفي تلك الليلة باللألوء، على المائدة اليونسية وقف شاعر الشمس، الناظم قلادة درية لجيدها، وقف شاعر الجبل الملهم الملبس لبنان جلباب المجد والجلال، وقف شارل قرم يخطب بالعربية. فادهشنا جميعاً، وأثار فينا جميعاً الحب والحماس والاعجاب

أتسألني ماذا قال؟ وماذا يهم ما قال؟ لقد خطب باللغة العربية وكفى

128

وبين كان يخطب كانت الدبكة حامية في الساحة على نور مصباح معلق بغصن من شجرة الجوز.

هي العروبة باجمعها، بضيافتها بفصاحتها بكرمها و بدبكتها وقصبها.

تعال نشاهد الدبكة. الحلقة — هي حلقة كبيرة عامرة — وقد وعدتك كلمة عن تطور المرأة العربية في اللاذقية، واليك بمثال التطور فهو خير من الكتابة. ان النسوة اللواتي ترى في الحلقة اللابسات الجوارب الحرير المحتذيات الاحذية الفرنجية العالية الكعاب، انهن من عرب اللاذقية!

فقد ينسين كل ما ورثنه من قديم العادات والتقاليد، ولا ينسين الدبكة و اهازيجها.

ليس من المستحيل ان تنشأ في اللالوء نهضة زراعية حديثة، ينضم تحت لوائها اولئك العربان من عرب النعيم،فيشتركون هم واخوانهم اللبنانيون في الحراثة والزراعة. وليس بالعجيب ان يعود الى الفرس العربية في هذه الصرود سالف مجدها، فيقتني المزارع الخيل، ويربيها، ويستخدمها في جولاته في هذا القاع وما يجاوره من البقاع. فما كل عمل من اعمال الناس في الجبال يقتضي العجلة ، وما كل عمل من الاعمال الاقتصادية والزراعية يبرر نفقات البنزين.

وليس بالعجيب ان يزداد عدد البيوت في هذا القاع وفي رباه، فيغدو مصيفاً لابناء الذوق السليم والفكر والحكمة، لا لابناء التمدن العربي الصوفري أضم هذا الى الثابت من يقيني لاني ارى رائدَ اللالوء اسعد يونس يهجر الحكومة لينصرف الى الزراعة في ارض اجداده، واسمع المزارعين من اهل اهمج وتنورين يقولون ان للالوء مستقبلاً باهراً

وليس ذلك من اباطيل الأمل او بنات الخيال. فالعوامل متوفرة والاسباب متيسرة، الكامنة منها والظاهرة. فتعود الخيول العربية الى هذه الربوع، وتزداد فيها بيوت الاصطياف، فيجيئها مصطافاً من يبتغي الراحة والصحة لنفسه ولاهله، والعامل الذي يروم من الآفاق الجبلية سكينة لاعصابه ومهرباً من تكاليف الحياة، والاديب الذي ينشد آفاق الوحي الرحبة نهاراً وسماء الوحي القريبة ليلاً بقمرها ونجومها، ويكون لمن يريد من هؤلاء الحكماء ابناء البساطة والذوق السليم، ان يتنزه كل يوم على صهوة حصان عربي في هذه السهول، بين هذه الجبال، فيتمثل وهو

وحصانه يسبحان في العلاء، بقول المتنبي :

أعز مكان في الدُنى سرج سابح وخير جليس في الانام كتاب

واذا كنت ممن ملوا الكتب والمطالعة، ولا يحسنون او لا يلذ لهم ركوب الخيل فهناك البندقية، وهناك الصيد. فان في اللألوء كثيراً من الفرّي والأبّار والهدهد والحجل، وخصوصاً في ايام الحصاد. فالحجل مثلاً يجيء ليصطاد الجندب (القبوط) في الزرع فيجيء ابن تنورين او ابن اهمج فيصطاد الحجل.

واذا كنت لا تجد شيئاً من السلوى او السرور او الفائدة، في بندقية الصيد، او في كتاب او «صهوة سابح» فان ساعة من المشي قبل طلوع الشمس او ساعة عند الغروب او ساعتين كل يوم في نسيم الفجر العاطر، وسكون المغيب الساحر، تعيدان اليك كل ما فقدته من أمل بالحياة، او تزيدان، وتضاعفان كل ما عندك من الآمال، ومن العزم والقوة للعمل.

ان اعلى بقعة في اللألوء هي الرابية القائم عليها بيت اسعد يونس (١٨٥٣ متراً) وان دائرة المشاهد من هذا المكان مترامية الاطراف، رحبة الآفاق، كثيرة المحاسن العلية، والابعاد الجبلية.

ليكن اتجاهنا شرقاً بشمال. ان على سفح الجبل الاول شيئاً قاتماً كالسحاب مقيماً على الدوام هناك. هو ارز الحدث. ووراء ذلك الجبل ثلاث قنن بعضها فوق بعض، تحجب الاخيرة منها غابة الارز الكبرى — ارز بشراي — وهو على ساعتين مشياً او ركوباً على الخيل من اللألوء. وان بيننا وبين الجبل الاقرب الينا، على مسافة كيلو مترين منا تحتجب بلدة تنورين، وبين جبل الحدث والقنة العليا في القنن الثلاث المذكورة، فرجة كبيرة تريك عندما يصفو الجو شيئاً من البحر، وقسما من طرابلس.

أمِلْ بوجهك الى الغرب الشمالي ترَ جداراً اغرش اسحم جداراً عالياً

طويلًا هائلًا، يبسط ظله في الاصيل عند اقدام تنورين وينشره في الصباح على ارز جاج وراءه، وعلى بيوت اهمج الى جانبه الغربي. هو جدار لحصن في السماء، هو سور لمدينة في عالم الاهوال. لونه كلون النسور او السباع وظهره كالمنشار. وهو في حده المسنن اشد وضوحاً وجلاء ومضاء بين فينتي الغروب والغسق. فهو ساعتئذ صمصام فاصل قاطع بين الارض والسماء

وهناك على اعلى قنة من ذلك الجبل علم يُرى بالناظور نصبته ادارة المساحة الانتدابية. وهناك بين تلك الصخور، تحت ذلك العلم، جادة تصل اللاَّلوء بارز جاج.

اذا كنت لا ترغب كثيرا بالمشيء، اولا تقوى على المشي في الاوعار والتصعيد في الجبال، فاياك وذاك الطريق. قد يقول لك المعاز: الطريق سالكه، وليس بين اللاَّلوء والارز اكثر من ساعتين للماشي وانا اقول لك: الطريق مهلكة، واذا خرجت من اللاُلوء صباحاً قد لا تصل الى ارز جاج قبل الغروب. هذا اذا وصلت في حالة لا تستوجب اعتناء ممرضة او طبيب.

لنستأنف الوصف لدائرة المشاهد العظمى. اننا لا نزال في الاتجاه الغربي الشمالي. فاذا مررت بنظرك على الجدار الخطير تقف في طرفه الغربي عند قنة كالهرم، هي قنة جبل حقرون، وفيها أثر لا يرى الا عند الدنو من الجبل في العودة الى اهمج. هو اثر قديم — فينيقي بشهادة اخينا شارل قرم

اما الجهة الشرقية من الدائرة فوراء جبالها درب سالكه كما يقول المعاز. هي درب الجرد بين العاقورة وضهر القضيب التي مر ذكرها في الرحلة الاولى ونحن عائدون من الارز

كلمة اخرى، وقبل ان نولي وجهنا شطر الافق الجنوبي، انك في اللاُلوء فاذا كنت تحب مراقبة طلوع البدر، تشاهد بدراً منقطع النظير في بهائه وكبره، وفي صفاء وجهه ووضوح هالته، وفي قربه من موطىء قدميك. فهو يطلع من وراء جبل قائم كالسور، دون انحدار والتواء، ويرسل اشعته

130

من رأس الجبل الى الساحة امام بيت يونس في خط مستقيم – الضلع الثالث من المثلث – لا يتجاوز الكيلومترين طولا .

كيلومتران اثنان بينك وبين القمر . وان الطيارة في هذه الايام لتأكل خمس كيلومترات من الجو ارتفاعاً وتقول : هات هات . فاين القمر منها ؟ واين تكون من قمر اللألوء وهو يحيك لها ، اذا طارت في سمائه ، شباكاً من الاشعة التي تزداد طولا كلما دنت منها . ومع ذلك هي لا تتجاوز ، من رأس الجبل الى موطىء قدميك ، كيلو مترين اثنين . لا يجوز الامعان في الموضوع ، فاتورط واورّط القارىء في حقائق هي كالاوهام ، واوهام هي كالحقائق .

لنعد اذن الى ما تبقى من دائرة المشاهد العظمى . ان اهم القرى جنوباً من اللألوء هي قرطبة والعاقورة ولاسه . ومن الجبال البادية كالسحاب على الافق البعيد جبل يدعى مشاع الفتوح ، دونه قرى كسروان ميروبه وحراجل وفاريا . اما هذه القرى فهي لا ترى من اللألوء الا بعين الخيال اذا كان صاحبه عالماً بما في احضان تلك الجبال .

والى جنب مشاع الفتوح جبل آخر اطول منه واعلى ، تتلألأ فيه في الشمس المشرقة بُقَع بيضاء هي الثلج في ثنياته وخاريبه .

وهذه النخاريب والثنيات الحافظة للثلج صيف شتاء ، على الدوام ، هي في الطرف الشمالي من جبل صنين

وجبل صنين اطال الله بعمرك يطل على وادي الفريكة .

الرحلة السادسة

افقـــا

محتويات الرحلة

غرائب الآلهة

لكل نواحي الجبل حد غربي واحد هو البحر، وحد شرقي واحد هو الانجاد التي يشرف بعضها على سهل البقاع. اما الحدود الجنوبية والشمالية فهي على الاجمال الاودية التي تنحدر غرباً من الصرود، والانهر التي تجري فيها، فنهر الكلب مثلاً هو الحد الفاصل بين المتن وكسروان. ووادي الصليب في بعضه يفصل كسروان عن الفتوح. ونهر ابراهيم يجري بين جبال الفتوح جنوباً منه وبلاد جبيل شمالا.

وها نحن للمرة الرابعة في البلاد الجبلية نسلك الطريق التي سلكناها سابقاً الى طوزيا، فيصبح نهر ابراهيم وراء الجبل الجنوبي، وعلى قنته قرية بعد الميت، ويظل محتجباً حتى نصل الى المشنقة، القرية المعروفة بخرائبها القديمة.

لقد تقدم في الرحلة السابقة وصف الطريق وواديه من الساحل الى طوزيا، فاشملنا منها مصعدين، ثم شرّقنا الى اهمج فاللاقلوق.

اما الان فإننا نستمر في الطريق من طوزيا شرقاً، فنشرف على وادي فرحد الى اليمين، ونمر بثلاث قرى هي الحريق والصوانة وعلمات اكبر الثلاث. هي علمات المشهورة قديماً بتبغها، ذلك التبغ الذي كان يتغزل به الجد والعم والوالد، ويتاجرون وهم يتغزلون.

بلغنا المشنقة وهي على ستين كيلومتراً من بيروت ، والف ومائتي متر علواً من البحر. بلغناها وما رأينا منها غير دكان على الطريق، وبعض المكارين يحمّلون بغالهم خشباً، قُطِع حطباً للوقود، والواحاً وروافد للبناء.

هي ذي صورة قديمة فينيقية حيّة، بل هي صفحة من الماضي صادقة الخبر والمعنى. وهي ذي الجبال التي كانت تكسوها غابات الارز والشربين في ذلك الزمان. وهوذا الحطاب والتاجر يرافقهما المكارون . . .

إزرعْ ولا تقطع ! لا اظن ان الفينيقيين كانوا من اصدقاء الشجرة، او انهم اسسوا جمعية، وسنوا شريعة من اجلها، لوجهها الكريم. كان الفينيقيون يقطعون، ويبيعون، ولا يبالون بما سيكون من مستقبل الغابات، غابات الصنوبر والارز والشربين.

وما ابصر من الملوك الفاتحين نتيجة اعمالهم غير ذلك الروماني الوثني أدريان، الذي عمل بنصف حكمة اصدقاء الشجرة في زماننا، فَحَرَّم القطع، وما أمر بالغرس. ومع ذلك ما نعم لبنان بغاباته النعمة الكبرى، الشاملة الدائمة. فقد حرمته التجارة اياها، فعُرِّيَتِ الاودية والآكام والصرود من ثوبها السندسي، الا ما ابقى عليه منه الزمان، او ما نثرته الرياح من البذور الحية، فنمت افراداً وازواجاً بين الصخور، وجاءت جمعية اصدقاء الشجرة في هذه الايام تحاول اصلاح ما افسدته الاجيال الماضية، فتوفقت بعض التوفيق في محاولاتها، عملًا وارشاداً غرساً ودعاوة. ولكان فضلها اكبر وأعم لو آزرتها الحكومة مؤازرةً فعالةً صادقةَ التنفيذ. تنشر جمعية الشجرة أمرها في انحاء الجبل مكتوباً بخط عريض جميل : إزرعْ ولا تقطع ! ويصدر مدير الزراعة قانونه : لا قطع الا باذن الحكومة. وبعد ذلك ماذا ؟ عندما تعطي الحكومة الاذن ولا تشرف على تنفيذه الاشراف الفني الواجب فيتصرف الملاك به كما تشاء مطامعه التجارية او حاجته المادية الوقتية، فيفوز في طمعه او جهله على الحكومة والجمعية معاً.

تركنا الحطابين والمكارين في عملهم، يحملون الاخشاب المقطوعة من غابات الصنوبر والسنديان والشربين، في الجبال القائمة فوق ضفاف نهر ابراهيم، بين المشنقة وقرطبة، ومشينا وراء الرفيق الدليل الاستاذ يوسف الحويك، الغيور على آثار لبنان غيرة اصدقاء الشجرة على اشجاره، فنكبنا عن طريق العربات، وبعد بضع دقائق من السير في طريق قديم بين الصخور، وصلنا الى الاخربة المبعثرة على قمة الجبل.

هناك بقية سور مستطيل مربع كان يسوّر الهيكل والابنية اللاحقة به، وقد امست من الاطلال الدوارس، ولم يبق غير بعض القواعد لِعُمُد الهيكل، وقد قام الشوك عندها خطيبا.

اما الارض التي يضمها السور، فقد زُرعت صفوفاً معدودةً من التبغ، الذي كان يزرعه ابناء علمات بلا حساب في الماضي. وامسى زرعه اليوم مقيداً بقوانين شركة الاحتكار الاجنبية.

التبغ في ارض الهيكل الذي طالما انتشر منه قُتار المحرقات والبخور! اشعلْ غليونك، وافتح عيون خيالك. اي، بعل شمون، كم حُرق على مذبحك من القرابين؟ وكم من عباد الله جاءوك خاشعين ضارعين؟ كم من القلوب البشرية حملت اليك احمالها المكشوفة والمحجَّبة؟ كم من القلوب التقية حطت رحالها في هيكلك، وعرضت بين يديك، وعند قدميك، كل ما احتوته من الحب والشوق، والخوف والورع، والامل والرجاء؟ وكأين من شهوة شارده، ونزوةٍ مطاردة، تجشمت مشقات الزيارة، لتظفر بالنعمة الكبرى — النعمةِ الفانية الكبرى — ساعةٍ قدسية تتلوها الساعة الاباحية، ساعةُ النشوة والمتعة والحلول الرباني ...

أشعلْ غليونك، وافتح عيون خيالك. إحرقْ من تبغ هذا الزمان على ذكر آدونيس فتى الفتيان، ادونيس المعبود الاعلى، آله الحب والالم والبعث والخلود. وهل هناك مَفَرٌّ وانعتاق؟ هل يخلو حب من الم؟ وهل ينجو

الألم من الموت ؟ وهل يحرم الموت النعمة الكبرى — البعث والخلود ؟ — ان في الطبيعة او في الحياة البشرية، او في حياة الانسان الاجتماعية والوطنية ؟

فلو كان آدونيس متجسداً اليوم، ومقيماً في هذا الجبل اللبناني، لرأى الخنزير الهري في اسواق المدينة، وفي دوائر الحكم، لا في الاودية والغابات، ولَصُرع في قتاله كما صُرع الرؤساء والزعماء في هذه الايام. على ان صرعة الآله لَغير صرعة السياسيين، كهاناً كانوا او تجارا. ولا عجب. ان صرعةً فيها شجاعة الايمان والتضحية لَتثمر روح التضحية والايمان في اجيال من الناس. اما الصرعة التي فيها ارادة غاوية، ذات عين لاوية، يُقاد صاحبها بدعوة الى مأدبة، او برشوة ووسام، فماذا تثمر، يا رعاك الله.

أَشعل غليونك وارسلْ دخانَهُ عمداً وخلقات في هذه الساحة التي ضجت حول عُمُد هيكلها حلقات من الكهان ومن المتعبدين والمتعبدات، وكلهم يبكون ادونيس ويندبون — يبكون الشجاعة والبطولة والتضحية، وهي اليوم وَهُمُ جميعاً، ذكرٌ لنار استحالت دخاناً ورماداً، فانتشر الدخان في هذا الفضاء، ولصق الرماد بهذه الصخور فغدت غرشاء دكناء.

والى هذه الصخور كان يلجأ الانسان فيما يشتهيه من خلود الذكر، والسعادة الابدية. فركن اليها، وآمن بثباتها ووفائها — وفاء الجلاميد. احفِر ايها الحفار، وصور معبودي ومعبودتي الى جنب ضريح الحبيب. احفِرِ الرسم الخالد، والكلمة الخالدة. بورك فيك

واين من الضريح اليوم ذاك الحبيب، وذلك الحفار ؟ ليس في هذه النواويس الفاغرة افواهها — فقد كسر الفلاح اغطيتها لينحت منها العتبات لابواب بيته — ليس فيها عظم او شظيّة عظم بشري. هي خالية خاوية، الا من عنكبوت بنت بيتها في احدى زوايا الناووس، او دودة ضلت في جوانبه الجافة العقيمة. هي النواويس الفاغرة افواهها للأيام والليالي. هي

الصخور البكماء وقد محت رسومها الامطار والاعاصير. هي الآثار البائدة وقد صفر فيها الزمان صفير العدم.

وقفنا في طريق قُرطبة القديم، بين صخرين، على مائة متر من السور، فاذا هناك النواويس الفارغة، والأُطر المنقوشة في الصخور، وقد أمحى ما كان ضمنها من «كلمة خالدة» و «رسم لا يزول» دلني صديقي الحويك على شيء شبيه بظل شخص واقف هناك، في احد تلك الأُطر، والى رسم دارس في إطار آخر، قال انه رسم امرأة جالسة تنوح. اهي عشتر تبكي ادونيس ؟ هذا ما يقوله الاثريون الذين يقرأون الممحيَّ من الكتابات.

دع عنك الطلول الدوارس، والآثار الممحّاة، وتعال نسرح النظر من رأس الرابية في المشاهد حولنا. هناك شمالاً إهمج وقد بدت سندياناتكنيستها كشامة في خد الجبل. وهناك غرباً طرزيّا، على كتف وادي قَرحَد، وقد لمع زجاج مقهاها كالماس في نور شمس الضحى. وهذه شرقاً بشمال عقبة علمات، وفيها طريق ذو عشرة اكواع، علينا اجتيازه الى قُرطبة وهذا شرقاً بجنوب وادي نهر ادونيس، ودونه جبل موسى في حلته السندسية الوارفة، وقد تنوع اخضرارها، فأشرق في البساتين، واقتمَ في الغابات، وظهر خلاله بقاع قهباء هي قرى شوّرن والعبري وفراد، كل في عزلة عن اختها، لاجادة بنيها تُرى ولا سبيل.

ليس في كل ما شاهدت من مشارف لبنان مثل هذه القرى في وحدتها، ووحشتها، وشطِّ مزارها. وانك لتعجب بابنائها المتغلغلين في تلك الاحراج، المقيمين في الاغوار المقتمة، فتكاد تنكر انهم من سلالة آدم. وما هم من غيرها. ما هم من الجن، بل من الإنس الاكّارين، يحرثون الارض، ويحتطبون، ويأكلون ويتناسلون. وقد نأوا عن العالم نأي النساك الاقدمين. بل حسبتهم، وانا اشاهد منازلهم القهباء، المسطحة المربعة، بين ذلك الاخضرار الهادىء، حسبتهم في منتأى الارواح. يستحيل الوصول

136

اليهم، ويُستحب الوصول، وتُستحب الاقامة. فما اجمل الاسترسال الى ربات النوى والنسيان في تلك السكينة المشرفة على النهر المقدس، نهر ادونيس. هو هو الجمال الذي تراه العين ولا تدركه المتعة الهدّامة. هو هو الجمال الذي يظل جمالاً ما زال قصياً عصياً.

عدنا الى طريقنا المعبَّد نستأنف السير الى قرطبة. فصعدنا في الجبل الشرقي ونحن نجتاز اكواع الطريق العشرة، الواحد بعد الآخر، فتغير بعيد الأخير الافق، وانكشف امامنا مشهد جديد رائع، تلمع في قعره مياه النهر، وتبدو دون جبل موسى قنة سحماء جرداء للجبل الحاضن بين صخوره نبع الحديد. وهناك قنن اخرى، ترى من فرجة فيها طرفاً ناصع البياض. هو طرف من صنين الذي يبقى الثلج فيه حتى اواخر الصيف.

وهاك وادي ادونيس المنعم يوفر من الاخضرار والطيب. هاك قصيدة ادونيس السندسية العطرية الصوفية، وقد تنوعت ابياتها شكلاً ولوناً وشذىً ومعنى. هوذا حرج من شجر البطم، وفيه عناقيد القرمز تداعب ذخائر البخور. وهوذا حرج من السنديان وفيه القوة والنشوء والخلود كامنة كلها في بلوطة من بلوطه. وهاك غابة من الشربين نسيب الارز، وشريك مجده وجلاله. وهاك ادغالاً وآجاماً تفوح بطيب الغار والصعتر والقصعين. وهناك في اطراف الوادي ومنعطفاته سرحات من الصنوبر تفرش فيئها الندي للخنشار والسوسن. وهاك اغرب ما في المعاني والاسرار، رحبةً حافلة بالجوذ، وفيه الحب الذي هو للسمك كالخمر للانسان، يأخذه الصياد، فيلقيه في البحر فتسكر به الاسماك، فيصطادها وهي سكارى.

— اكلنا على ذكر الحبيب بنادق الجوذ، فسكرنا بها، ووقعنا في شرك الانسان، هبلته أمه!

عروض من الوادي القدسي نجتازها، فنبلغ منعطفاً يخفيها ويخفيه. ثم

ينكشف امامنا مشهد آخر من مشاهد هذا الجبل الفتانة. هي الغابات تؤدي الى البساتين. هي الحقول تبشر بالمروج الذهبية. مروج وبساتين تجري فيها السواقي والعيون، فتمتد منها القني للري. بساتين ومروج تزينها بواسق الحور، ونواعس الصفصاف — ها هنا الجنائن والكروم — التين والعنب والثمار اليانعة. ها هنا التوت يجاهد جهاده الاخير، ويندب مواسم الحرير. ها هنا الحقول المزروعة تزدهي بشتى البقول للمطبخ والمائدة. هاهنا قُرطبة سمية تلك الاندلسية العظمى، قُرطبة العرب. وهي على مسافة اثنين وسبعين كيلومتراً من بيروت، وعلى علو الف ومائتين وستين متراً من البحر. للاب اغوسطين السخن مؤرخ قرطبة وشاعرها اجتهاد في تفسير اسم بلده، لا يتجاوز السريانية. وعندي ان اكثر اسماء قرى الجبل القديمة يمكن حلها وشرحها وردها الى اللغة السريانية والعربية شقيقة الفينيقية وابنة عم العبرية وسنمثل لك الخطأ في كثير من هذه الاجتهادات السريانية في فصل آخر. ان شاء الله أمّا الآن فاننا نعارض اجتهاد الاب السخن باجتهاد آخر — وللقارىء ان يختار منه ما يحلو لنفسه.

ليست قرطبه لفظة عربية ولا سريانية انما هي اسبانية تكتب هكذا (Cordova) فعربها عرب الاندلس كما عربوا غيرها من اسماء البلدان فقالوا اشبيلية وغرناطة كما قالوا قرطبة.

وبعد سقوط الاندلس وجلاء العرب عنها في اواخر القرن الخامس عشر عاد منهم في منتصف القرن التالي المنحدرون من العرب الفاتحين عرب الشام الى بلاد اجدادهم وفي القلب شيء من الحنين وعندي ان بعض هؤلاء العائدين من قرطبة الى حمص او حماة دخلوا لبنان في الطريق الاقصر والاشهر، اي طريق بعلبك العاقورة، ومنها تقدموا غرباً فرأوا في جوار العاقورة ارضاً خضراء حافلة بالغابات والمياه تشرف الى وادٍ رهيب جميل ذكرتهم ببلاد الاندلس. بل بقرطبة البلد المهجور فحطوا الرحال ها هنا،

وبنوا البيوت وغرسوا الاشجار والازهار واسموا المكان قُرطُبة. والدليل على صحة هذا الاجتهاد ما في قرطبة اليوم من الاسر العربية الاصل. بشهادة مؤرخها وشاعرها الراهب اللبناني اغوسطين السخن.

والسخنيون انفسهم من اقحاح العرب، يمتون بالنسب الى قيس التنوخي، فكعب الياني، فصيفي بن سبا. هم من صميم قحطان. وقد قال شاعرهم في رثاء احد كبارهم:

في سهل تدمر او سبا وتهامة لجدوده عبق زكيٌّ طيبُ

حيّى الله بني سُخْنَة والأُسر العربية الأُخرى في قرطبة — وغفر الله ذنوب شاعرهم الشعرية — ونفع لبنان بهم جميعاً.

وقفنا في سوق البلدة للتحية، فشربنا القهوة في احد مقاهيها، واستأنفنا السير الى العاقورة. ان بين البلدتين بضعة عشر كيلومتراً، واخربة في منتصف الطريق الى جنبه تدعى دير الازرق. وما ادراك ما دير الازرق. ليس للاسم العربي صلة ظاهرة بما هناك اليوم من بقايا سور قديم، وجدران هيكل كان كنيسة بيزنطية، بعد ان كان معبداً رومانياً بعد ان كان هيكلا اغريقياً، بعد ان كان مذبحاً لآلهة من آلهة الفينيقيين.

مذابح الآلهة — هياكل الآلهة — خرائب الآلهة! بين هذه الحجارة المبعثرة، والعمد المحطمة، والجدران المتهدمة، وعند هذه الابواب الفاغرة فاها لفراغين، امامها ووراءها، يهمس الزمان كلمته الخالدة: لا شيء مما بناه الانسان يدوم.

لا شيء بين هذه الاخربة اليوم، وأمام هذه الابواب ووراءها، غير ما علاها من العليق، وما ظللها من السنديان. ظللها، وارسل جذوره بين حجارتها لتكتمل الهدم. جذوراً هي كالثعابين المتحجرة تحت اسكفة الباب، وحجارة تلصق بالجذور كانها تستجدي الحياة فيها، او تلوذ بها من وحشة الاطلال، ومن الاضمحلال.

كل بيت للهدم ما بنته الورقاء والسيد الرفيع العماد

انها يقيناً لخرائب موحشة مفجعة . علق أثرها بالنفس حتى دنونا من العاقورة، فاستقبلتنا هناك البيادر ، الراتعة في فيض من الشمس ، والفلاحون على البيادر، يسوقون البقر في دوائر مباركة، والقمح تحت النوارج ينطلق من قيوده الذهبية، من سنابله.

هي الحياة المقرونة بالعمل . هو العمل المكلل بالحرية .

الحياة—العمل—الحرية—هوذا مظهر من مظاهر القداسة الحقيقية الخالدة.

136

العاقورة

قلت في فصل سابق ان اكثر الأُسَر اللبنانية القاطنة في اواسط لبنان نزحت من بلاد جبيل. فينبغي ان اضيف الى ذلك ان في صرود جبيل بلدة عريقة في القِدَم، وكثيرة الشعوب والهِجَر، هي العاقورة. وان صح قول بعض العلماء والاثريين ان الانسان في هذه الديار توطن الجبال العالية قبل السواحل والسهول، فيجب ان ننقل مهد الشعوب اللبنانية من مدينة جبيل الى سفح جبلَي القرن والمنيطرة، الى ما بين هذه الصخور العاقورية والعيون المنبجسة منها.

ولكن البحث عن المهود، بشرية كانت او حيوانية او نباتية، يؤدِّي بنا الى غياهب الحياة الاولى على هذه البسيطة، فيزيدنا بلبالاً، وقلما يفيد. إن في الامر حقيقة بارزة، هي الغموض. فاذا استطاع العلماء ان يحددوا المكان والزمان لمسقط رأس الجُندب الاول مثلاً، او لمنبت الارزة الاولى، فقد يستطيعون ان يكتشفوا مهد شعبٍ من شعوب الارض.

حسبنا الان التاريخ الذي بين يدينا للاديب المحترم الخوري لويس هاشم، فأن في فصوله الاولى اشياء من العلم المفيد، التاريخي والاثري، وفي فصوله الاخرى بحراً من علم الانساب اللبنانية المفيد لاصحابها، المدهش لغيرهم من اللبنانيين. واول ما يدهش من هذا العلم تعدد الأُسَر التي هجرت الى العاقوره قديماً، ونزحت بعدئذ منها، ما عدا التي لا تزال مقيمة فيها. فبعد ان قرأت الفصول الاولى، وتصفحت خمس المئة صفحة التي تليها، وصلت الى الفهرست، وفيه من اسماء الأسر اللبنانية العاقورية الاصل ما يسر الخواطر، ويبهج القلوب، في كل زاوية من زوايا لبنان، جنوباً وشمالاً، ساحلاً وجبلاً.

ان في الفهرست اسماء مائتين وخمسين عائلة. فهل في جبال لبنان ما يُذكر مما فوق المائتين والخمسين ؟ يظهر، يارعاك الله، اننا جميعاً من العاقورة، بشهادة المؤرخ المحترم الخوري لويس الهاشم . جميعاً، اقول، إلا أهل بجه ومعاد. فما جاء في ذلك الفهرست اسم البجّانيين. على ان هنالك فروعهم بالزواج. خذني انا مثلا. فاني بجاني من ابي، هاشمي غصوبي « عاقوري » من جدتي لابي، وَأَشْقَرِيّ « عاقوري » من جدتي لأمي.

ان اكثر الأسر العاقورية او اهمها متحدرة من العرب . فالهاشميون من سلالة احد الصحابة هاشم بن عتبه، الذي تشيع بعدئذٍ لعلي بن ابي طالب، واقام في بلاد العجم. ثم نزح من ابنائه الى لبنان، فتنصروا — لخير ارواحهم — وكان كبيرهم الشيخ هاشم اول من قطن في العاقورة. واسرة نور الدين نزحت من دمشق الى بعلبك، ثم الى العاقورة، فتعددت فروعها، وبرز فيها فرع ايلياس المعروف اليوم بفرع جرمانوس. وهناك بنو كرَيدي وبنو حرب، وغيرهم كثيرون، النازحون من حوران وما دونها جنوباً.

على انك في هذه الأسر العاقورية، تجد تناقضاً صريحاً قبيحاً في الكثير من اسماء ابنائها. فالعربية والعجمية والرومانية والسريانية تتبارى فيها، وهي تتعانق وترضخ للنير الواحد المتعدد الالوان.

خذ الامثلة من صقر بن قانصوه، وقانصوه بن قسطنطين وزوجته مسيحية. وما قولك بجناً بن ابي الغيث نسيب العربي الكامل عماد ابي الغيث ؟ اما يوسف عرب فلا بأس به، واما غريغاريوس عرب فانه لاقطع من رستم بن ساسين، وادريس بن ارسانيوس. وما قولك، دام ذوقك الرفيع، بخازكيّه — زهرة من شيراز بين النساء — وولديها جرمانوس وورومانوس ؟ ! وهلا ترى الكفر في الشدياق سركيس نور الدين، والبطريرك جرجس عُمَيْره ؟

ليت شعري ما السبب في كثرة هذه الاسماء — جرمانوس رومانوس

ابريانوس فنيانوس — في هذه الناحية من لبنان وقلتها او عدمها في النواحي الأخرى ؟ ألِأن الدين يتغلب على الجنسية فيقتل الاسم العربي باسم سرياني او آرامي او بيزنطي ؟ وصاحب الاسم المقتول لا يبالي.

لقد كان العواقرة في عهد الفينيقيين اكثر الناس تعبداً للبعل والبعلة، واشدهم تمسكاً باهداب هياكلها، حتى في عهدَي اليونان والرومان، كما انهم اليوم من اشد الموارنة تحمساً لمار مارون، ولكهانه ورهابينه. وكأين من آله ومن معبدٍ وهيكل، وكأين من عقيدة او خرافة دينية، تخللت حياة العواقرة في سالف الازمان، من عشتر الى العذراء مريم، ومن بعل شمون الى القديس مارون!

يقول مؤرخهم المحترم ان العاقوره « مشتمل طوائف » ولكنه لم يبق في المشتمل — او في الحرج — غير طائفة واحدة والحمد لله. ومن المعقول ألاّ تشذ هذه الطائفة الواحدة عن الطوائف الأخرى البائدة التي تقدمتها، فتحل محلها الطائفة الوطنية اللبنانية العربية، وتكون، بفضل العواقرة الجبابرة، في مقدمة الحاملين لواء العروبة.

اقول « الجبابرة » ولا اجاري مؤرخ العاقورة وشاعرها. ولكني استنكر قول الاول في وصفها : « مأوى الجبابرة، ومعقل الابطال »، واستهجن البيت :

هي للجبابرة الاولى اعتصموا بها من كل طاغيةٍ وكل هوانِ

ولماذا الاستنكار والاستهجان ؟ ان في هذا المديح، نثراً وشعراً، شيئاً من قبيح التناقض. فالمعتصم غير البطل المستبسل. لا بد للمعتصم من ان يكون قد فرَّ من شرٍّ او مكروه — فرَّ هاربا. فهل يُحسب الهارب، ايها الشاعر، جبارا ؟ وهل تُعد المعاقل، ايها المؤرخ، للابطال ؟ ان المعقل الاوحد للبطل انما هو قلبه وحسامه.

اما ان يكون ابناء العاقورة من الابطال الجبابرة، فذلك لا يستغرب.

ان للبيئة الطبيعية، كما للبيئة الاجتماعية، مفعولها في نشوء الانسان وتكوّن طبائعه. والبيئة الطبيعية في هذه الاعالي الجبلية (١٤٥٠ الى ٢٣٠٠ متر فوق البحر) تضخّم العظم، وتحيّي الدم، وتشد العصب في ابنائها.

ولك ان تسأل : وهل تتفرد العاقوره بهذه البيئة، وانتاجها البشري ؟ فأجيب على سؤآلك بما فيه الايضاح كله. ان في لبنان غير العاقوره من البيئات الطبيعية العالية، ذات العوامل المذكورة للدم والعصب والعظام، كزحلة مثلاً وبشراي واهدن. وليس فيها ما في العاقورة وجوارها من العوامل الطبيعية الهدامة، التي تربي فيمن يقيمون بين اخطارها الكامنة والظاهرة قوى خاصة للدفاع عن النفس والحمى، فتولّد فيهم الشدة والشجاعة والجلادة والاستبسال، اي العناصر المادية للبطولة. اما عناصرها الروحية والمعنوية، فقد تنشأ وقد لا تنشأ عنها، ان لها حالاتٍ وشروطاً خاصة بها، لا نظنها تتم في ابناء البيئة التي هي الآن موضوع بحثنا.

فقد نبغ في العاقوره مئات من رجال الدين في سائر الازمنة، الوثنية والمسيحية[1]. وفيها من الكنائس، ومن بقايا الهياكل، عدد كبير، وما استشهد من ابنائها احد، على ما نعلم، وليس بين قديسيها قديس واحد وطني عاقوري.

اما في التمرد على الحكام، وفي الدفاع عن حقوق مهضومة او مزعومة، وفي الحروب الاهلية، او ما يسمونه عندهم «هوشات» فانهم في مقدمة اللبنانيين. لقد ذكر المؤرخ عشرين حادثاً، ذهب فيها عشرون قتيلاً، في عشرين سنة (١٩٠٥ — ١٩٢٦). اي قتيل كل عام. وقد استكثر العدد واعتذر، قال ان اكثر اسباب هذه العداوات والإحن تنشأ عن الشاعات العمومية.

وما كانت الحكومة في عهد من عهودها لتحسم خلافاً قام بين من

(١) «فقد اقام فيها بعد الملك الظاهر الى سنة ١٦٤٩ (اي خلال ٣٥٠ سنة) واحد وثلاثون مطراناً». تاريخ العاقورة

ادّعوا « وصل ليلى »، او تحدد ارضاً مشاعةً بينهم.

بيد ان الصائل الاكبر على هذه الارض، وعلى العاقوره والعواقره اجمالاً، انما هو جبل العاقوره بنفسه. ذلك الجبل القائم شمالاً وشرقاً، الممتد جنوباً، المؤلف من قلاع وحصون صخرية، يتخللها منحدرات طوية التربة، لا تحول الحصون والقلاع دون انهيارها في فصل الربيع كل بضع سنوات او بضع عشرة سنةٍ مرّة. وفي فصل الشتاء تنهار الثلوج انهيارها المهلك الهدام. وفي اوقات لا تُعرف ساعتها تزور الزلازل العاقورة لتكمل عمل الاعاصير والثلوج

هي ذي العناصر الهدامة المهلكة في البيئة الطبيعية التي اسلفت ذكرها. وهي ذي اسباب البطولة في العواقرة، فالنكبات التي تدهم اهل البلد الواحد، فيشتركون في احتمالها، وفي التغلب على اهوالها، تولد فيهم من القوة والعزم والشجاعة ما يكمن منها في اصلابهم، ويظهر في نسلهم، فينشأون بسلاءاشداء.

خسفات وزحفات وزلازل كل عشر او بضع عشرةٍ من السنين، والعواقوة مقيمون منذ القدم في ظلالها، وبين يديها القابضة على الصواعق والنار والصخور والسُواخ، فلا يتزحون، ولا يبالون. فلو لم يكونوا ابطالاً لما كانت اليوم العاقورة ولما كان اهلها.

لقد شاهدنا اثر الزحفة الاخيرة (١٩٣٧) وقرأنا في تاريخ العاقورة اخبار الزحفات والخسفات الحديثة التي تقدمتها (١٩٠٣–١٩١١ افقا – ١٩٢٩) فما وجدنا في الصفحة المكتوبة غير ما سمعنا من افواه الناس، ولا غير ما رأينا في صفحة الوجود. فان ادوات الحرب الحديثة – الدبابات المجهزة بالمدافع الرشاشة، والطيارات المسلحة بالقنابل، تقصر دون اهوال الاعاصير والانقلابات الارضية.

هناك في الجبل الشرقي الشمالي منحدر ترابي حصوي، منه مملوك، ومنه مشاع، وكله معشوشب او مزروع، تكسوه حلة زمردية من رأسه

الى أسفله عند ضفة النهر. وفي هذا الجبل المنحدر انحداراً حاداً بيوت للفلاحين، ودكات بني جدرانها اصحاب الاملاك صوناً للتربة، ولما غرس او زُرع فيها. هذا الجبل القائم بين حصنين من الصخور، الى الشمال والى الجنوب، هو في الربيع بهجة للعيون خصوصاً اذا شوهد من مدخل العاقورة الجنوبي الغربي.

اما اليوم (١٩٣٨) فانك لترى فيه بقعةً كبيرة، وسعها نحو اربعين متراً، وطولها من القمة الى السفح عند ضفة نهر الرُوَيس، نحو ثلاثمائة متر، هي سمراء حمراء، لا نبتة، ولا دكة ولا اثر لبناء فيها. بقعة منخفضة جرداء بين شِقَّي الجبل الاخضر الى جنبيها. هذي هي زحلة او زحفة السنة الماضية. وهي اصغر مما تقدمها واقل ضرراً.

ان للزحفات والخسفات اسباباً اربعة هي (١) غزارة الامطار و(٢) تراكم الردم من تراب وحجارة وغيرها على سطح الارض و(٣) التحوّل في طبيعة التربة الداخلية و(٤) انهيار الارض عند ضفة الانهار من فيضانها فيزحف ما فوقها. وقد تجتمع الاسباب الاربعة في الزحفة او الخسفة الواحدة.

اما الخسفة فهي تحدث في الارض المنبسطة اذ تسوخ طبقة من التراب في بطنها، لسبب من الاسباب التي مرّ ذكرها، فتتقلص، او تهبط، فيهبط ما فوقها من ارض، وما عليها من شجر او بناء.

واما الزحفة او الزحلة فهي ما ينهار من اعالي الارض المنحدرة الى الى اسفلها. فتبدأ في اماكن مختلفة، وقلما تستقيم في خطوطها الاولية. فيستمر التشقق ويمتد، وينعكف وينحدر، في ايام الزحلة التي تدوم شهراً او شهرين. فتغور منها عيون، وتنبجس عيون، وتردم السواقي، وتسد الطرق، وتفيض الانهار، وتحتقن فتتغير مجاريها، ومتى قرنت الامطار بالثلوج تزداد الشدة على الاهلين ويزداد الخراب.

— ٥ وكان الجليد شديداً (زحفة سنة ١٩٢٩) فكنت ترى مناظر

مدهشة. كان الثلج يرتفع كالآكام، وكالصخور العظيمة. وفي اعالي الفراديس كان يشبه الخيام والمغاور والكهوف ... وكان الانخساف يشتد يوماً فيوماً، فكانت الانهر تقذف الصخور بدويّ كالرعد. فالنهر الكبير اختلط بالنهر الصغير ... ثم تحول الصغير عن مجراه، واختلط بالكبير عند عريض ابي مرعب، فتكوّنَ بحيرات وبعد ايام انشقت البحيرات وغار ماؤها واضمحلت. وتغير شكل الارض »[1]

فغدت الأودية آكاماً، والآكام وهادا. واصبح السهل مضيقاً، والمضيق بركاً من الماء. طمى نهر الدباغة على اراضي البياضة، فاتلف الاشجار — الداب والصفصاف والحور — وذهب بكروم العنب وبساتين التوت — « وكان نبع مسعود غزيراً قرب حرف الابيض فاختفى، واضمحلت الطواحين، وبانت اشجار ارز مذهلة في استقامتها وطولها وثخنها ورائحتها الزكية ... واشجار ضخمة ثقيلة جداً، غريبة الجنس، شبيهة بالابنوس »[2]

سألنا فلاحاً على البيادر ان يصف لنا زحلة السنة الماضية فقال: « كانت الارض تتشقق، وتزحل، وتغلي بالوحل. وكان يتصاعد من الوحل دخان له رائحة مثل الكبريت. »

ولا غرو، وفي ارض العاقورة، فوق ما ذكرت، معادن وعيون كبريتية ومتفجرات !

وفي بعض الاحايين يتبع سنة الزحفة شتاء قليل البرد والامطار والثلوج فيجيء الجراد، في الربيع الذي يليه، من ناحية بعلبك الى العاقورة وضواحيها، فيختم الزحفة الارضية بزحفة على المزروعات.

زحفات وخسفات ! والعاقوري مقيم في ارضها، مهيمن على اسباب الحياة فيها، فينسى ما كان من نكبة أمس، ويستقبل بقلب صلب هادىء نكبة الغد، ولا يتزحزح، ولا يبالي. انه حقاً لبطل جبار .

---

(١) و(٢) تاريخ العاقورة: صفحات ١٤٨-١٥١

الاهرام المدرجة

ما اشتهرت العاقورة بالخسفات و « الهوشات » فقط، بل بما وجد العلماء والأثريون فيها، وفي ضواحيها، من الآثار القديمة ايضاً، آثار الهياكل والمعابد، والقلاع والحصون، لسائر العهود السالفة، من الفينيقية والاشورية الى البيزنطية والصليبية.

فقد مر بالعاقورة الفاتحون من بابل واشور، وزار العاقورة غير واحد من عواهل الرومان، وعم العاقورة للدرس والتنقيب طائفة من العلماء، اشهرهم الرحالة السويسري جوهان بركهارت والعلامة الفرنسي ارنست رنان. فعثروا على كثير من الآثار والكتابات والنواويس، في البلدة وفي ضواحيها، واخصها الطريق الشرقي الاقدم.

ذلك الطريق من جبيل الى العاقورة، ومنها الى بحيرة اليمونة فبعلبك، هو طريق الفاتحين من بابل واشور الى السواحل الفينيقية، كما انه طريق القوافل التجارية من جبيل الى بلاد الكلدان، ومنها الى خليج فارس فالهند

ذلك الطريق هو طريق الرومان العسكري من جبيل الى بعلبك فتدمر، كما انه الطريق الذي طالما ضج بالاحمال الثقيلة، منها الحجارة الضخمة والعمد السامقة المصرية لبناء هيكل الشمس.

يقول رنان ان هذا الطريق هو اقدم طرق الدنيا، لما في جانبيه من الكتابات الهيروغليفية والفينيقية والمسمارية واليونانية واللاتينية.

هي كلمة كبيرة — اقدم طرق الدنيا — لعالم من كبار العلماء المحققين المدققين. فقد يكون اختط هذا الطريق غير الاشوريين، وغير الفينيقيين، قد يكون فاتحه الانسان الاول، وهو يصعد في هذه الصرود،

حاملًا دبوسه الظرّاني للصيد. وما يدريك انه من الطريق السابقة للعهود الظرّانية كلها.

اقدم طريق في الدنيا! اني اقف على قارعته، امام عالمه الفرنسي الشهير، مؤمناً خاشعاً. ولكني ارى في الجوار هناك، جنوباً من هذا الطريق، شكلًا من الجبال الرواسي، واشكالاً من الصخور الشامخة، لها من السحر ما ليس لربة بابل، ولها من القدم ما ليس لاقدم العهود البشرية.

اجل ان هناك انصاباً طبيعية تحقر عندها انصاب الانسان والامم. ان هناك رواسي هي في شكلها كالأهرام، وقد شهدت في قدمها كل طرق الحياة الحيوانية الانسانية، من الهلامية، الى الفقرية، الى ذوات الثدي، الى ذلك الواقف على رجليه، الى غير الفاتحين من الملوك، الى الحامل بين كتفيه رأس أمير من امراء العلم، وقد احتوى القوة الفكرية التي تستطيع ان تزن الجبال، بل تزن الارض، وتقيس المسافات النورية بين الافلاك والنجوم.

هذه الجبال، جبال العاقورة، التي قال فيها رنان انها اجمل من جبال الألب، تستوقفك اياً كنت، فلاحاً او عالماً او قائداً للجنود. وتستهويك، وتجتيح الفكر فيك، ان كنت من الادباء الذين يحسنون مزج العلم والشعر مزجاً فنياً.

عندئذ تنتقل من القديم في تاريخ الانسان الى القديم في تاريخ الكون. وهذه الرواسي العجيبة الاشكال اعرق الارضين قدماً، واروعها شكلًا وخبرا.

فاذا قال العالم الأثري في طريق قديم انه اقدم الطرق في الدنيا، وانه يتجاوز تاريخ الانسان الى عهده السابق للعهد الظرّاني، فلا يبلغ عمره، وهو كذلك، عشرين الف سنة.

اما اذا قلنا ان هذا الهرم المدرّج عند مدخل العاقورة هو اقدم ما قام

من الاطواد في لبنان، فكم يبلغ عمره يا ترى ؟ اننا هاهنا لفي عالم القياس الذي يشبه عالم الخيال ويختلط به.

فما عمر هذا الهرم — هذا الجبل — هذه الارض — هذا الكون ما عمره وما منشاؤه ؟

كلما تقدم العلم، وتوفرت لدى العلماء اسباب البحث والتحقيق، دنونا من عالم الشعر والخيال، فيبدو الكون قصيدة آلهية، مطلعها السُدُم، وبيتها الأخير — اليوم — هو هذا الكاتب الواقف خاشعاً امامها، الناطق بحرف واحد من احرف كلمة البيت الاولى .

كان العلماء يقولون ان عمر الكون هو نحو مائة وخمسين مليون سنة. وهم اليوم يقولون، بناء على الاكتشافات الفلكية بواسطة اكبر مرقب في العالم (مرقب مرصد ولسن في الولايات المتحدة) ان عمر الشمس، وكذلك عمر الكون الذي هي احدى شموسه، هو اكثر من خمسمئة مليون سنة.

ونحن لا نعرف من تاريخ الانسان، منذ بدأ ينقش كلمته الاولى على الصخور ، اكثر من سبعة آلاف سنة . . .

وان لهذه الصخور نفسها تاريخاً قديماً ، يبدو تاريخ الانسان بالنسبة اليه، كحبة الخردل بالنسبة الى هذا الجبل. وذلك بالحساب الذي امسى قديماً مهملاً

اجل، ان للصخور مراحل فيما كان من سوَاخها الحامي، وتبخرها وتكتلها ، وخلوها من أثر الحياة، وفيما كان من معاصرتها للاحياء الهلامية، كما ان لها مراحل في برودتها وتجمدها، وفي احتوائها على الحيوانات البحرية المتحجرة. وان لكل مرحلة من مراحلها عدداً من السنين يصدم الفكر البشري في تبخره صدمة عنيفة مدوّخة.

فقد كنا امس نقول ونعدّ[1] على هذا المنوال: من العهد السُواخي

(1) راجع اللائحة والفصل المعنون بسجل الصخور في تاريخ العالم لِ ه. ج . ولس. صفحة ١١ . اما الرقمان في كل مرحلة فهما يجمعان بين ما اختلف فيه من التقدير العلمي.

الحامي الى عهد الاحياء الهلامية اربعة واربعون او اربعمائة واربعون مليوناً من السنين. ومن الهلاميات الى العقارب البحرية اربعة وعشرون مليون سنة او مائتان واربعون مليوناً من السنين. ومن العقارب البحرية الى الحيوان البحري الهري الاول اثنا عشر مليون سنة او مائة وعشرون مليوناً من السنين. الى آخر اللائحة اي الى عهد الثدَيِيات والكلاء والغابات، فيظل بيننا وبين ذات الثدي الاولى عشرة ملايين او مائة مليون من السنين.

كنا امس نقول هذا القول ونردد هذه الارقام، فصرنا اليوم نقول: على المستر ولس ان يصحح لائحته. كيف لا، وقد بان لعلماء الفلك من اكتشافاتهم الحديثة للسُدم أن عمر الشمس وكذلك الكون التي هي احدى شموسه، يتجاوز الف مليون سنة.

« واذا حُلّت الصخور المحتوية على مواد مشعة عرف العلماء المدة التي انقضت منذ تجمدت تلك الصخور. وقد تبينوا ان اقدم الصخور التي درست على هذه الطريقة يرتد تاريخ تجمدها الى ١٧٥٠ مليون سنة ! [1]

اقدم طريق في الدنيا، اين هو ؟ دليني عليه، ايتها الجبال المنحدرة من الازل، المتجلببة بالخلود. انت التي شاهدت الحوت الاول يخرج من الماء ليستنشق الهواء، ويصطلي بنور الشمس، انت التي رأيت التمساح الاول يتفيأ النخيل على هذه السواحل الشرقية، انت التي سمعت الجُندب الاول ينشد نشيده الوحيد في ليالي الصيف، الفارغة من كل حي مغرِّدٍ سواه. انتِ التي شاهدت الكركدن الاول يشق طريقه في الغابات تحت قدميك، افلا تدلينني على اقدم طريق في الدنيا ؟

ايتها الجبال التي وقف الماضي في كل ادواره أمامها، فاستعرضت

---

(١) المقتطف : الجزء الثالث من المجلد الثالث والتسعين صفحة ٢٦٧

حيواناته وشعوبه وجنوده وملوكه ولياليه، وسمعت عواء ثعالبه، وزئير سباعه وسمعت كذلك عويل ابنائه الادميين، كما سمعت اناشيدهم الوطنية، وتراتيلهم الدينية، وزفير ساعاتهم الغرامية، ايتها الجبال المتجلببة بالخلود، انك لاجمل واعظم واروع من جبال الآلهة في عاصمتي الاغريق والرومان.

ايتها الاهرام المدرّجة، المدفونة في احشائك اجيال من الاحياء البحرية والبرية، المشيدة طبقاتك بعضها فوق بعض في الازمنة التي كان الانسان فكرةً او حلماً او سراً في قلب الكائنات، الناطقة هندستك بالفن الاعلى، المزينة بالرواشن والاطناف، المعطرة جوانبك بأطايب الرياحين — بالغار والبطم والآس والقصعين — القائمة على اكتافك الصبيات من الاهرام — هرم فوق هرم — شيدتها الايام، ودرّجتها الرياح والاعاصير، انك حقاً لأعظم واجمل واقدس واثبت من كل ما شيده الانسان من الاهرام، ومن الهياكل والابراج، ان كان في مصر او في الهند والصين.

لقد وقف أمامك ذلك العالم الشاعر الفيلسوف، الذي وقف على الأكروبول في آثينا يمجد آلهة اليونان، ويطري الثقافة اليونانية، ببيانه المشبع علماً وفلسفةً وشعراً، وما رأى، يوم وقف امامك غير انك اجمل من جبال الالب، وازكى رائحة منها.

عفا الله عن رنان، الذي شُغل يومئذٍ بالزائل من آثار الانسان عن الخالد من آثار الطبيعة.

142

الغابة المغضوب عليها

بعد ان نمر بظل الهرم المدرّج، ونجتاز جسراً من الحجر صغيراً، امام غارٍ في الجبل القائم بين الهرمين، نمشي الى مفرق الطريق، فنجنح الى فرعٍ منه جديد، لا يزال العمال يعملون في شقه وتعبيده.

هو الطريق الى منبع نهر ادونيس وهيكلها الاكبر — هو الطريق الى أفقا. ولقد كنا مسرورين بأن نؤم ماشين ذلك المكان الذي قدسه الاقدمون. جئناه حاجين، نحن الاربعة الميامين، الفنان يوسف الحويك، ورجلي الدنيا الحكيمين يوسف صادر وابراهيم حتي، وكاتب هذه الرحلات، حاجين على الاقدام في يوم من ايام آب، ساعة تفتح الشمس ابوابها على المصاريع، فيتبلّج الفضاء بالنور الهزاز، وتتوهج النار على الارض.

يا لصفاء تلك السماء! لا غيمة في فضائها الشعشاع لا غيمة واحدة وقد ضنت علينا بغيمة من رحمتها. ولكن الصرود تكفر عن مظالم الصفاء السماوي بعض التكفير، فتلطف الحرارة بنسمات طيبات باردات من نسمات الجبال العالية.

مشينا نحو كيلومترين في الطريق الذي كان يعمل العمال في شقه وتعبيده، فكثرت فيه الحجارة والتراب والغبار. ان ذلك على الحاج يسير. ومع ذلك نكبنا عن الطريق، فاقتفينا أثر الفلاحين في جادة تتعرج بين الحقول المزروعة، والصخور المنثورة، الى غابةٍ من الشربين[1] قديمة العهد، كثيرة النكبات.

---

(١) من اشجار الجبل القديمة الارز والسرو والشربين. اما العرعر الذي يذكره بعض الكتاب مع السرو فهو الاسم الفارسي الاصل للسرو نفسه. والشربين يختلف عن السرو بانه اكبر ورقاً منه، واصغر ثمرا.

ما رأيت في جبل لبنان شجراً تنقبض له النفس، وترثي لحاله، مثل هذه الاشجار المقطعة، المهشمة، المشتتة في الطريق الى افقا. هي الغابة المغضوب عليها، المنكوبة بما جنى عليها الانسان والزمان، وليس فيها شجرة مستقيمة سوية، الا بعض الفتيات التي غُرست حديثاً، او بالاحرى نشأت مما نثرته الرياح من بذور الأُمّات، فصادفت شيئاً من التربة الصالحة بين الصخور، فنمت هنا وهناك شجيرات نضرات رشيقات.

اما الاشجار الأُخرى فهيَ جديرة بان يقف عندها نبيٌّ شاعرٌ مثل ارميا، يندب يومها الغابر، ويرثي مجدها. لله من يد الانسان، الطامع بحزمة من الحطب. لله من هذا القاطع طريق الغابات — يسطو على الجذوع والفروع من اشجارها، فيفتح قلبها للرياح والاعاصير، فتكسّر وتصوّح ما يبقى فيه من اسباب النشوء والحسن، بل من اسباب الحياة.

اني اتخيل هذه الغابة في مجدها، يوم كانت تظلل هذا الجبل من العاقورة الى افقا، فيعلو اخضرارها الآفاق، ويحجب الطرق التي تنساب خلاله الى الهيكل الاكبر. واني اتمثل، من الزوار الاقدمين، اولئك العواهل والقواد الرومان الذين حجوا هذا المكان المقدس باسم الزهرة وادونيس، فحملوا اليها القرابين متشفعين بها، وامروا بما فيه صون هيكلها، وازدياد خيره ومجده.

ومن اولئك ادريان، الامبراطور الرحّالة، المتعبد للزهرة، المشيّد لها الهياكل في الشرق والغرب؛ المحرّم قطع الاشجار — السرو والشربين والارز — في جبل لبنان، وخصوصاً في الطريق الى افقا المكرّمة. وكأني به، وهو حاج في حاشيته الملكية، في بدء القرن الثاني للمسيح، قد شاهد ما شاهدناه نحن من اثر غزوات الحطابين، وعلى الاخص في غابات السرو والارز والشربين، وقد قُدست لهيكل الزهرة، فامر بالمحافظة عليها، وحرّم قطعها.

143

وقد تكون زهت بعد ذلك، وظلت زاهية، الى يوم الهياكل العصيب، يوم اضمحلال الوثنية في لبنان، فعاد اللبناني بعد ذلك الى عادة اجداده القديمة، يرسل فأسه في الغابات فاتكاً عاثثاً، ولا يبالي بما في عمله من عوامل الخراب في الاودية والجبال.

لذلك لم يبق من الغابات القديمة غير غابتي الارز في بشري وجاج، وهذه الشبيهة بالغابة، الحاملة جذوعها وفروعها احتجاجاً صارخاً على جرائر الحطابين. تلك الجذوع الهرمة الجافة المجوّفة المحدودبة المهشمة، لو رأيتها في الغسق، او في شيء من ضوء القمر، لبدت كالمخلوقات الممسوخة، او كالخيالات المجسدة لأولي الالم والغم والقنوط.

تلك الجذوع المرعبة، وقد امتدت جذورها على الارض وبين الحجارة، كالافاعي والثعابين. تلك الجذوع الفظيعة الاشكال، وقد بدت كرؤوس الافيال بخراطيمها المنتشرة، وكاعناق الجمال المدفونة اجسامها في الرمال، وكقرون الاوعال المتشعبة، وكاقسام محطمة من تمثال اللاوكون [1].

وها كها كافراس النهر الواقفة على رجليها، الرافعة يديها الى العلاء. وها كها جنيةً برزت أنيابها، وتشعث الشعر على كتفيها. وهاك ثالوثَ الهول، جذعاً تجسم من ثلاث لعنات جهنمية: ظهركِ في عنقكِ وعنقك بين ساقيكِ ان شاء الله! تلك الجذوع المبقورة — تلك الجذوع الممسوخة — تلك الجذوع المحطمة المهشّمة، انها على بؤس حالها، لا تيأس من الحياة. على ان الاغصان الجديدة التي تنمو في جوانبها وبين جروحها تزيد المشهد كآبةً وقبحا.

قال الحويك الفنان، وهو يحاول ان يخفف وقع المشهد في نفسي: هي اطياف الزوار عبادِ عشتروت.

---

(1) لاوكون (Laocoon) هو التمثال الذي يمثل كاهن طروادة وابنيه وقد التفت على اجسامهم الثعابين.

وقلت : وهذه العجوز المرعبة، القابضة على صخرة [1] لترميني بها، اين منها تلك المتعبّدة لِعَشترة وآدونيس ؟ »

فقال الفنان : « وفي الاشكال المرعبة شيء من روعة الفن . »

ثم ذكرني بذلك التمثال الاغريقي – لاوكون، اي الكاهن وولديه يصارعون الافاعي .

وما اكثر أمثاله في جذوع هذه الاشجار وفروعها . ان في عجائب المسخ والتشويه ما يفوق هولاً تصور هوميروس ودَنْتِه .

هي الغابة المغضوب عليها . وكأني بها تقول، لو كانت ذات مشيئةٍ ولسان : اقطعوني من اصولي واحرقوني – احرقوا جذوري وجذوعي وفروعي كلها، ولا تدعوني على وجه البسيطة مثالاً مروّعاً منكراً لنقمة الآلهة .

---

(١) حجر ضخم عالق بين جذعيها، فنموا حوله وهما يطفانه عليه .

كنا نقف في الغابة المغضوب عليها لنريح النظر منها، لننظر الى ما دونها من الآفاق، وان ضاقت جوانبها. فكان يمتد منها أُفق واحد هو الغربي الجنوبي، وتُسد الآفاق الأخرى. هنالك فوق نهر ادونيس يلتقي جبل موسى بجبل علمات، وهاهنا ينطوي وراءنا الطريق. ومن حين الى حين تنكشف امامنا الحقول الخضراء، وقد رفعت صفوفُ الذُرة اعلامها فيها، ونثرت البطاطس عليها الازاهر البيضاء.

وهاك فلاحاً يزرع الحب الذي سيحصد في الخريف. وهاك شاباً يقنّي الماء بمعوله الطويل، يقني ويغني ليفرّج عما بصدره من الم الفراق والنوى — يغني العتابا بصوت اجشّ طويل المدى:

« سافر بابور ما انكسرَتْ ما كنتو
سافر بابور ما انكسرت ما كنتو
بِخْسِبْكُم يا حبابي ما كُنْتو
ناس كثير عاشو بلا صحاب»

مشينا ساعة ونصف ساعة في تلك الشمس المحرقة، لولا نسمات الصرود الباردة تلطف حرها، والطريق ينعرج امامنا، ويختفي وراءنا، دون ان يبدو منه لضالتنا المنشودة اثرٌ او خيال.

قال الرفيق الحويك، وهو في المشي من المجرَّبين المبرِّزين.

عَمَلّسُ اسفارٍ اذا استقبلت له سَمومٌ كحر النار لم يتلثم

ولا كان يعتمر بعمارة عربية او افرنجية. قال عندما باشرنا المشي « أفقا هي على ساعة من مفرق الطريق »

